فلسفة اللغة العربية وتطورها

وهي مقالات أنشأها الاستاذ

جبر ضومط في تاريخ اللغة العربيـة ونهضة الاقوام

المتكلمين بهـا وفلسفة نشوئها وتطورها ووسائل

ترقيتها — ونشرها في مجلتي المقتطف والهلال

بين سنة ١٨٨٨ وسنة ١٩٢٨

تأليف

جبر ضومط

أستاذ اللغة العربية وآدابها سابقاً في

جامعة بيروت الاميركانية

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

سنة ١٩٢٩

الاستاذ جبر ضومط

ومباحثهُ في نشوء اللغة العربية

مقدمة المرحوم الدكتور صروف

من الخطبة التي اعدها قبيل وفاته لتتلى في يوبيل الاستاذ الذهبي

للشيخ أوقات يود فيها انقضاء الاجل ويقول مع لبيد

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها وسؤال هـذا الناس كيف لبيدُ

وهي أوقات الضعف وأوقات المرض وأوقات فقد الاخلاء والاقارب . ولهُ أوقات غبطة وحبور أوقات يرى فيها تحقيق أماني الشباب أو يجني ثمر ما غرسهُ زمن الـكهولة أو يسمع عن فوز رفاقه وأصدقائه ومحبيه

كل ذلـكم مرَّ عليَّ وأبقى أثرهُ في نفسي . تولاَّني الضعف في سمعي حتى صرت أتجنب المجتمعات ومرضت في بداءة العـام الماضي حتى قطع الرجاء مني وفقدت والديَّ وأخويَّ وثلاثاً من أخواتي وجمًّا غفيراً من تلاميذي وأصدقائي

ولـكن هذه المساوىء تقابلها نعَم كثيرة حبيتُ بها ومنها ما دعاني الى كتابة هذه السطور وهو أن أحد تلاميذي في الصغر ورصفائي في الـكبر بلغ بسعيهِ وجدهِ درجة أهَّلتهُ لأن يحتفل بهِ عارفو فضلهِ في بلادهِ وفي سائر البلدان حيث انتشر تلاميذه وقرئت كتبهُ وعرفت آراؤهُ العلمية

صديقي الاستاذ جبر ضومط بل الفتى جبر ضومط رأيتهُ منذ ثمانٍ وخمسين سنة . ذهبت الى برج صافيتا أو صافيتا البرج في صيف سنة ١٨٦٩ وأقمت فيها أكثر من شهر ولا تزال صورتها في ذاكرتي لانها ممتازة ببرج شاهق مبني بحجارة جافية لم أرَ أكبر منها الاَّ الحجارة الـكبرى في قلعة بعلبك . ارتفاع هذا البرج أكثر من ثلاثين متراً أو نحو ارتفاع برج الساعة في هذه الجامعة وطولهُ أكثر من ثلاثين متراً وعرضهُ نحو عشرين وثخن جدرانهِ — وهنا المزية الـكبرى — ثلاثة أمتار الى أربعة حتى أن السلَّم الذي يصعد بهِ الى طبقتهِ العليا والى سطحهِ قائم في باطن جدار من جدرانهِ وحول هذا البرج مبانٍ فخمة حجارتها كبيرة منحوتة باقية من قلعة قديمة ربما بناها الصليبيون اما البرج فلعله بني في عهد الفينيقيين او الرومان

بناء مثل هذا ترتسم صورتهُ في الذهن ولا سيما في ذهن الشاب قبلما تكثر مشاغل الحياة وترسخ معهُ صور كل ما حوله او يتصل بهِ . وقد مرَّ عليَّ الآن ثمانٍ وخمسون سنة ولا ازال اتذكر صافيتا وكل ما رأيتهُ بها او الذين لقيتهم من سكانها. أفلا يؤثر منظر البرج العالي في نفس ولد من ابناء تلك القرية يراه كل يوم من حين أُميطت عنهُ التمائم ويحملهُ على طلب المعالي

كانت اقامتي في غرفة على تل مقابل للبرج والى جانبها مدرسة صغيرة لاولاد القرية انشأها المرسلون الاميركيون يعلّم فيها رجل من اهل السقي وبين تلامذتهِ ولد لم انس صورتهُ لانهُ انتقل بعد ذلك الى مدرسة عبيه فكنت اراه فيها ثم صار تلميذاً لي في هذه الجامعة وخلفني في تدريس العربية وآدابها . ولم يقنع بالخطط التي سار عليها أسلافهُ بل اختط خطة مبتكرة في الدرس والتدريس

***

هذه مقدمة طويلة اطول من كل مقدمة كتبتها . ولكن لا تخافوا ان آتي بعدها بكلام مسهب لانني اعلم ان الوقت محدود ولو كان الموضوع حقيقاً بالاسهاب

الاستاذ جبر ضومط لو اكتفى بنظم الاشعار كما كان ينظم بعيد رحلته الى السودان او بتعليم الصرف والنحو والبيان كما يعلمها كثيرون غيره لما استحقَّ في رأيي ان يحتفل بهِ هذا الاحتفال ولو قضى في التعليم ستين سنة لا خمسين لما وجدت سبيلاً لالقاءِ هذه الكلمة عنهُ . ولكنهُ عمل ما هو اهم من ذلك كثيراً بحث في نشوء اللغة العربية بحثاً احسبهُ مبتكراً عندنا وممهداً لعمل اعدُّهُ من انفع الاعمال

المشتغلون بالعلم كثيرون ولكن قلَّ منهم من يبقي أثراً يذكر بهِ . فالذين اشتغلوا بقواعد العربية منذ الف ومائتي سنة الى الآن يعدون بالمئات او بالالوف ولكن قلما نذكر منهم غير سيبويه والمبرد والكسائي وابن جني وابن مالك وابن هشام وأمثالهم من الذين وضعوا قواعد الصرف والنحو ومع ذلك فعمل هؤلاء كلهم مقصور على الجمع والتبويب وما منهم من بحث عن اصل العربية وكيف نشأت كلماتها وتصاريفها . فاننا صرنا نعلم في هذا العصر ان لغات البشر التي تعدُّ بالالوف كانت في زمن متوغل في القدم لغة واحدة قليلة الكلمات بل الاصوات ثم تفرقت طوائف وكل طائفة تشعَّبت شعباً كثيرة ودخل المزج والنحت في كلماتها حتى بلغت ما بلغتهُ وهذا شأن العربية ولكنني لا اعلم ان احداً اطلق هذا البحث على العربية من ابنائها قبل الاستاذ جبر ضومط

الذين تعلموا الصرف والنحو وعلّموهما لا يحصى عددهم ولكنني لم ارَ لاحد بحثاً

في كيف بني الفعل جَلَس على فتح آخره ولا كيف تدخل عليه الهمزة فيصير متعدياً بعد ما كان لازماً ولا من اين اتت التاء التي تلحق الفعل الماضي فتدلُّ على المتكلم اذا كانت مضمومة وعلى المخاطب اذا كانت مفتوحة وعلى المخاطبة اذا كانت مكسورة . ومثل ذلك كل تصاريف الافعال مجردة ومزيدةً مفردة او ملحقة بالضمائر فانها كلها بلغت صورها المعروفة بعد ان دخلها المزج والنحت مدة قرون لا تحصى . والاستاذ ضومط تمكن من البحث في هذا الموضوع وكشف الستار عن غوامضه لمعرفته العبرانية والسريانية شقيقتي العربية ولو عرف الحميرية والحبشية لزاد توسعاً في البحث وكشفاً للغوامض فهو مثل ورنر وليَل في علم الجيولوجيا وتولد طبقات الارض ومثل لامارك وداروين في نشوء الاحياء وتولد بعضها من بعض ومثل مندل في كشف ناموس الوراثة وتطبيقه على الاحياء

اليكم بضعة أمثلة من كتابه الخواطر في اللغة الذي نشرهُ منذ اثنتين وأربعين سنة فانهُ وجد أولاً بالاستقراء أن الكلمات المتشابهة في مخارج بعض حروفها تتشابه في معانيها كجذع وجدع وجدم وجذم وكحبض وحبط . وكهجأ وهجم وكتم وكتم وختر وخثر وختل وكقطب وقطف. وارتأى أن ذلك كان سبباً لتولد كلمات مختلفة لفظاً ومشتركة معنى . ووجد أن وزن المطاوعة (انفعل) مركب من لفظة أنا ضمير المتكلم والفعل المجرد فقولنا انغمستُ مساوٍ لقولنا أنا غمستُ أو غمست نفسي . ووزن افتعل أصلهُ اتفعل كما يلفظهُ المصريون وهو مركب من ات ومعناها ذات أو نفس وهي إت في العبرانية ويت في السريانية وعليه ففعل المطاوعة مركب من الفعل المجرد وكلمة معناها النفس . اما وزن استفعل فقال انهُ مطاوع قياسي لوزن سفعل عند السريان ورجح أن السين منحوتة من فعل ىمات يدل على الوجود المطلق ومن بقاياهُ ليس ولات وهما مؤلفتان من لا النافية والفعل المذكور للدلالة على نفي الحال أو الكون وعلى ذلك تكون استفعل مركبة من ثلاث كلمات وهي اس وات وفعل فتلاحمت اجزاؤها مع الايام فصارت استفعل

ومن هذا القبيل تعليلهُ للضمائر فان لضمير المتكلم في العربية صورة واحدة وهو انا مفرداً ونحن جمعاً . وفي السريانية انا مفرداً وحنَن جمعاً وفي العبرانية اني او انوخي مفرداً وانحن اونحن او انو جمعاً وواضح من ذلك ان لفظة نحن العربية مركبة من نا او انوخي العبرانية الحق آخرها بالنون للدلالة على الجمع

ثم بيّن ان الضمائر المتصلة منحوتات من الضمائر المنفصلة فالتاء المضمومة من

انوخي والمفتوحة من انتَ والمكسورة من انتِ والواو من همون أو همو والنون في ضربن من هنَّ ونا من نحنُ وهلم جرًّا

وكتاب الخواطر على صغره جمع اكثر المبادىء الاولية التي مشت عليها اللغة في نشوئها . وهو بحث مبتكر في العربية على ما اعلم . طرقته انا في السنة التي طرقه فيها صديقي الاستاذ جبر كما يرى في الفصول التي انشأتها في المقتطف سنة ١٨٨٦ وموضوعها تولّد اللغات ونحوها ولم اكن اعلم ما هو فاعل ولا هو يعلم ما انا فاعل ولكني اطلقت اكثر الكلام على اللغات كلها ولم اخص بهِ العربية ولم اكن اعرف السريانية والعبرانية حتى استعين بهما على تعليل ما وقع في العربية ولم ارَ بعد ذلك بحثاً لاحد في هذا الموضوع كأن آية الحجاب سُدلت عليه . الاَّ ان ما اثبتهُ صديقي الاستاذ ضومط في كتابه الخواطر شبيه بما كشفهُ مندل في الوراثة فان مباحث هذا الراهب النمسوي التي نشرها سنة ١٨٦٦ طرحت في زوايا المنسيات مع انهُ كشف بها اهم الحقائق البيولوجية الى ان كشفت ثانية سنة ١٩٠٠ فهل يقوم من تلاميذ الاستاذ ضومط من يعود الى هذا البحث ويكون متضلعاً من العربية والعبرانية والسريانية ومن الحميرية والحبشية والقبطية واليونانية واللاتينية والفارسية فيميط اللثام عن تاريخ كل الكلمات التي في معاجمنا العربية . هذا ما ينتظر منكم يا تلاميذهُ ويا مريديهِ

قلتُ في بدء كلامي بعد المقدمة ان الاستاذ ضومط بحث في نشوءِ اللغة العربية بحثاً مبتكراً وممهداً لعمل اعدُّهُ من انفع الاعمال فما هو العمل الذي اعدُّ بحث الاستاذ ضومط ممهداً لهُ

اذا كانت اللغة العربية قد نشأت كما تنشأ كل الاجسام الحية واعتورها التغيير والتبديل كما اثبت الاستاذ ضومط فلا يحتمل ان يمر الف وأربعماية سنة تبقى فيها على حالها تماماً . والواقع انه عرض لها امران جوهريان الاول انها تغيرت تغييراً كبيراً في ألسنة المتكلمين بها في مصر والشام والعراق وتونس والجزائر وبلاد العرب نفسها حتى لا يكاد ابن الشام يفهم حديث ابن تونس ولا يكاد ابن المغرب الاقصى يفهم كلام ابن العراق . الا ان هذا التباين يكاد يكون محصوراً في الكلام وقلما يتناول الكتابة ويحتمل ان يزول اكثره بعد ما سهلت سبل الاتصال وانتشرت الجرائد والمجلات

والامر الثاني وهو المهم انه دخل العربية كثير من لغات الأقوام الذين صارت العربية لغتهم او الذين نقلت العلوم من لغاتهم الى العربية . ولقد كان الدخيل كثيراً في العربية قبل الاسلام لانه لا يحتمل ان يتصل العرب بسكان مصر والشام والعراق

وفارس كما كانوا متصلين ولا يدخل العربية كثير من اللغات المصرية واليونانية والسريانية والعبرانية والفارسية ولو خفي على جامعي العربية اصل كثير من كلماتها فحسبوها كلها من صميم العربية . وهذا بحث كثير الشؤون لا محل له الآن . ثم زاد الدخيل بعد الفتح ونقل العلوم من اليونانية والسريانية والفارسية والهندية ولو لم يعلم جامعو كتب اللغة انه دخيل . هاكم قانون ابن سينا الذي الفه في بداءة القرن الخامس بعد الهجرة فقد عددت في الصفحة الاولى من جزء الاقراباذين مائة اسم من اسماء النباتات وسائر المواد الطبية فوجدت الدخيل منها لا يقل عن سبعين اسما وقد ذكرها ابن سينا كلها كأنها اسماء مألوفة في ايامه

القرن الثالث والرابع والخامس والسادس كانت من القرون الحافلة بالعلم والعلماء كما كانت حافلة بالشعراء والادباء وكما كان العلماء من اطباء ورياضيين وفلكيين يرحبون بكل كلمة اجنبية تزيد غناء العربية غناء كان الادباء والشعراء لا يستنكفون من استعمال المعرب

ومنذ قام محمد علي عزيز مصر وعلم بعض ابنائها في اوربا وأمر بترجمة الكتب العلمية الى العربية كما فعل الخليفة المأمون في عصره دخل العربية كثير من الكلمات العلمية ثم اتسع نطاق الترجمة حتى شمل كل انواع العلوم الرياضية والطبيعية والحقوقية والسياسية وصار على المترجمين والمؤلفين ان يحذوا حذو الفارابي وابن المقفع وابن سينا وابن رشد فيبقوا الكلمات العلمية على وضعها وهي تعد بالالوف وعشرات الالوف ومات الالوف فتغنى العربية بها ويسهل على المتعلمين تناولها او ان يفتشوا عن مرادف لها في العربية ويهملوا ما لا يجدون له مرادفاً وما تتعذر ترجمته . وقد ثبت من بحث الاستاذ ضومط في كتابه الخواطر ان العربية كانت في كل عصورها الماضية قبلما كتب حيّة نامية . ويظهر بأقل بحث ان هذا النمو استمرّ الى الآن افيحسن بنا ان نقف الآن في سبيله موجسين شراً لئلاّ يدك مقام العربية ؟ لا ياسادتي واخواني العربية قائمة بتصاريفها وتراكيبها لا بالاسماء التي تدخلها فقد دخلها الوف من الكلمات السريانية والعبرانية والمصرية واليونانية ولم تزدها الا غنى وستدخلها الوف اخرى ولا تزيدها الا غنى ولها اسوة بالفرنسوية والانكليزية والالمانية وكل اللغات المشهورة . والكلمات تتنازع البقاء مثل الاحياء ولا يمكث منها الا ما ينفع الناس فلا نكون عثرة في سبيله .

قوة العلم والعلماء

هي القوة التي ميزت الانسان عن الحيوان ورفعت منار المدنية والعمران هي القوة التي عنت لها القوات الطبيعية فلكت الانسان من مقاودها واطلعته على اسرارها وغوامضها فاظهر منها ما كان مستوراً ونظم ما كان مبدداً منثوراً هي القوة التي تطال معها الى السموات العلى وتنقب بها عن دفائن الارضين السفلى واستعان بها على حل ما اعضل من المشكلات فاهتدى الى معرفة ما كان في عداد المستحيلات وما لو ذكرت بعضه على بعض العامة لرميت بالجنون وتقولوا عليَّ ما كان وما يكون

هي التي ذللت البحار فعلا الانسان متونها بمراكبه وخاض عبابها بسفن تجارته ودوارع حربه لا يبالي بها وان قامت مياهها لججاً عظاماً وهبت هواها هلاكاً وموتاً زؤاماً هي القوة التي جعلت الهواء مطية تكاد تكون ذلولا بعد ما شمخ بانفه عن ان يعطي القياد دهراً طويلاً فعملت البالونات الى حيث قصر السحاب وصولاً

ولا يهولنكم ما ذكرته عن قوة العلم فما ان كان الا يسيراً صغيراً او برقشة على غير العارف يهوّل بها تهويلاً فالعلم قوة اخرى لا تدرك غايتها عظمة وجلالاً ولا يبلغ الواصفون من وصفها وان اطالوا مقالاً واوسعوا لها في ميادين الطروس مجالاً . قوة ازالت عن العقل من براقع الجهل غشاوة بعد غشاوة وبدّدت من كتائب الاوهام كتيبة بعد كتيبة . فظهر الحق ودُحرت الاباطيل دحوراً

قوة غيرت العقل ومجاري تصوراته تغييراً وقضت ان يكون له من ميتة الجهل بعثة ونشوراً فبينت له من صواب الرأي وسداده ما اهتدى معه الى سبيل رشاده فنعمت القوة قوة العلم جعلت الانسان سيد المخلوقات الارضية والحاكم يرجع الى احكامه بين البرية

ولكم كان الجهل يشنُّ من غارة شعواء تذهب بالمستضعفة من الناس فريسة للاقوياء ولكم كان يأتي بظلامة عمياء وبلية دهماء وشنيعة شنعاء تذبح معها الابناء وتضحى لها الامهات والآباء الى ان ذهب العلم بآثار الجهل هذه ادراج الرياح ونادى مناديه حيَّ على الفلاح فسنت النظامات والاحكام وعينت وظائف الامراء والحكام ووضعت قواعد الفنون والصناعات ومناهج التجارة والمعاملات . هذا فضلا عما توصل به اليه من معرفة نواميس الجاذبية العامة ونظامات الافلاك الخاصة . ومعرفة مقادير السيارات وما لها من الابعاد والمدّات وما يحدثه بعضها في بعض من الاضطرابات وما هنالك من المبادرات والانقلابات

فكان مما ترتب على قوة هذه المعرفة العلمية ان مات القول بدلالات النجوم الوضعية ومات معها اعتقاد السعد والنحس فيها ونسبة ما كان ينسب اليها مما لا تصح نسبته بديهاً ومات ايضاً حوت القمر وتنين الشمس وآلهة الامم الاقدمين كجوبيتر ومارس ونبتون وغيرهم مما ذكر في اساطير الاولين ولله در من قال

اين الرواية بل اين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصاً واحاديثاً ملفقة ليست بنبع اذا عدّت ولا غرب
عجائباً زعموا الايام مجفلة عنهن في صفر الاصفار او رجب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة اذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
وصيروا الابرجَ العليا مرتبة ما كان منقلباً او غير منقلب
يقضون بالامر عنها وهي غافلة ما دار في فلك منها وفي قطب

واما تأثير قوة العلم في معرفة الكهربائية والمغنطيسية وقوانين الالفة الكيماوية وشرائع النور والحرارة واستخدام البخار في الصناعات والتجارة وغيرها من السكك الحديدية والبواخر التجارية والحربية فامر يطول شرحه ويعجزنا وصفه . والحق اذا تأمل متأمل رأى من القوة ما تحار له عقول الخاصة فضلا عن عقول العامة ويكاد يظنها الكثيرون ضرباً من المعجزات. والمحكي عن كثيرين من امم الهند وغيرهم من القوم الهمج انهم يظنون في الآلات البخارية والكهربائية ارواحاً تدير حركاتها وسكناتها وتفعل تلك الافعال الصادرة عنها ومثل هؤلاء فليس من قوة في الكون تستطيع اقتلاع هذه الاوهام من عقولهم غير قوة العلم فانها القوة التي تفعل ما لا تفعله الكتائب والفيالق وتسطو على مالا تسطو عليه الرماح الخطية والمواضي المشرفية بل ما تستطيعه قوة العلم في استئصال شأفة مثل هذه الاوهام الفاسدة لمما لا تستطيعه جنود الممالك العظيمة عن آخرها متفرقة كانت او مجتمعة معاً

هذه بنادق الامم الغربية ذات الطلقات المتعددة ومدافعها الضخمة وجنودها المدربة وافرادها الطامعة في المكاسب الحريصة على توفير الارباح جميع هذه لم تستطع ولن تستطيع ان تغير مثقال ذرَّة من عقول امم افريقية والهند ومايدخلها من الاوهام والمعتقدات الفاسدة . وما لم تدخل قوة العلم فتهدم ما عندهم من اسوار الاوهام ومعاقل المعتقدات وحصون الجهل والخرافات فلا مطمع بازالتها من عقولهم ونفوسهم ما كرت الايام وتعاقبت السنون والاحقاب

ولقد ادرك هذه الحقيقة كثيرون من اهل الحمية واصحاب الغيرة على ترقية شأن

الانسانية فبعثوا اليهم بطلائع من قوات العلم وفي مأمولهم ان تفعل الاقلام غير ما يفعله الحسام ولسوف يتحقق لهم صحة ما ارتأوه مع الايام

واما العلماء وهم امراء النوع الانساني وقادته في سبيل الفلاح وهداته في معارج المدنية والارتقاء فقوتهم اعظم مما يظن واشد في اعتقادي مما تقدرونها ايها الكرام فانهم الضعفاء الاقوياء والسوقة الامراء. هم القوم الذين لا يعقب عليهم معقب الا منهم ولا يُجرح آراءهم واقوالهم الا العلماء امثالهم. وهم الذين يرجع الى آرائهم في الحادثات المشكلات ويعتمد على اقوالهم في الغامضات والمغيبات هم الذين اذا تناقل الناس قول حكمة مثلا فانما يتناقلونهُ عنهم . وهذا شأنهم مذ قام الانسان الى الآن وفي كل طور من اطوار المدنية والعمران واليكم التاريخ فانهُ شاهد عدل يشهد بما كان وتنطبق شهادتهُ على ما في العيان فما اثارت الامم الغابرة حرباً ولا شنت غارة الا بعد ان اعتمدت مشورة رجال العلم وهم اهل الدين في تلك الايام والمعقبون على الامراء والاحكام فان شاءوا غضبت الآلهة على البشر وان شاءوا رضيت

واما فلاسفتهم العظام الذين سارت بهم الامثال كسقراط وافلاطون وارسطو وغيرهم من كبار العلماء فقوتهم اعظم من ان يقدرها مقدّر أو يبالغ فيها مبالغ فانها حملت معاصريهم ومن جاء بعدهم من أجيالهم ان حسبوهم في مصاف الآلهة واقاموا لهم في هياكلهم من التماثيل ما كانوا يقيمون مثله لمعبوداتهم وختموا على علومهم من بعدهم فكانت اقوالهم وآراؤهم هي المتابع فيها والمعول عليها وما زالت كذلك الى الآن يتناقلها الناس فيما بينهم فتغير من افكارهم وأقوالهم ومجاري تصوّراتهم وهم لا يشعرون وعلى الحقيقة انها كانت بمثابة حياة تحيا بها عقول العقلاء وقوة يعتمد عليها العظماء والامراء ويتفقه بها الاغنياء والفقراء وما عقّب عليهم في مدركاتهم العلمية والادبية فنسخ من بعضها وغير البعض الآخر الا من جاء بعدهم من جهابذة العلماء واكابر الفلاسفة والحكماء . فاذاً ما زالت قوة العلماء هي السائدة على كل القوات والمأخوذ بها بين اهل المراتب والطبقات بل ما زالت اسماؤهم حية حتى الآن وما زلنا نصف الوزراء والعظماء وجلة الملوك والامراء بنعوت مأخوذة من تلك الاسماء ولله در من قال

مضى ذكر الملوك بكل عصر   وذكر السوقة العلماء باق

فلا تظن يا شيشرون الرومان انك زلت من عالم الوجود فقد اقام لك ابناء جلدتك من بعد مماتك تمثالاً جعلوه بين تماثيل آلهتهم ودعوك رب البلاغة والخطابة وما دار لسان احدهم ببليغ عبارة من بعدك الا استمدها منك ولا تكلف متكلف حجة او برهاناً الا

فكان مما ترتب على قوة هذه المعرفة العلمية ان مات القول بدلالات النجوم الوضعية ومات معها اعتقاد السعد والنحس فيها ونسبة ما كان ينسب اليها مما لا تصح نسبته بديهاً ومات ايضاً حوت القمر وتنين الشمس وآلهة الامم الاقدمين كجوبيتر ومارس ونبتون وغيرهم مما ذكر في اساطير الاولين ولله در من قال

اين الرواية بل اين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصاً واحاديثاً ملفقة ... ليست بنبع اذا عدَّت ولا غرب
عجائباً زعموا الايام مجفلة ... عنهن في صفر الاصفار او رجب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة ... اذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
وصيروا الابرج العليا مرتبة ... ما كان منقلباً او غير منقلب
يقضون بالامر عنها وهي غافلة ... ما دار في فلك منها وفي قطب

واما تأثير قوة العلم في معرفة الكهربائية والمغنطيسية وقوانين الالفة الكماوية وشرائع النور والحرارة واستخدام البخار في الصناعات والتجارة وغيرها من السكك الحديدية والبواخر التجارية والحربية فامر يطول شرحه ويعجزنا وصفه . والحق اذا تأمل متأمل رأى من القوة ما تحار له عقول الخاصة فضلا عن عقول العامة ويكاد يظنها الكثيرون ضرباً من المعجزات. والمحكي عن كثيرين من امم الهند وغيرهم من القوم الهمج انهم يظنون في الآلات البخارية والكهربائية ارواحاً تدير حركاتها وسكناتها وتفعل تلك الافعال الصادرة عنها ومثل هؤلاء فليس من قوة في الكون تستطيع اقتلاع هذه الاوهام من عقولهم غير قوة العلم فانها القوة التي تفعل ما لا تفعله الكتائب والفيالق وتسطو على مالا تسطو عليه الرماح الخطية والمواضي المشرفية بل ما تستطيعه قوة العلم في استئصال شأفة مثل هذه الاوهام الفاسدة لمما لا تستطيعه جنود الممالك العظيمة عن آخرها متفرقة كانت او مجتمعة معاً

هذه بنادق الامم الغربية ذات الطلقات المتعددة ومدافعها الضخمة وجنودها المدربة وافرادها الطامعة في المكاسب الحريصة على توفير الارباح جميع هذه لم تستطع ولن تستطيع ان تغير مثقال ذرَّة من عقول امم افريقية والهند ومايدخلها من الاوهام والمعتقدات الفاسدة . وما لم تدخل قوة العلم فتهدم ما عندهم من اسوار الاوهام ومعاقل المعتقدات وحصون الجهل والخرافات فلا مطمع بازالتها من عقولهم ونفوسهم ما كرت الايام وتعاقبت السنون والاحقاب

ولقد ادرك هذه الحقيقة كثيرون من اهل الحمية واصحاب الغيرة على ترقية شأن

الانسانية فبعثوا اليهم بطلائع من قوات العلم وفي مأمولهم ان تفعل الاقلام غير ما يفعله الحسام ولسوف يتحقق لهم صحة ما ارتأوه مع الايام

واما العلماء وهم امراء النوع الانساني وقادته في سبيل الفلاح وهداته في معارج المدنية والارتقاء فقوتهم اعظم مما يظن واشد في اعتقادي مما تقدرونها ايها الكرام فانهم الضعفاء الاقوياء والسوقة الامراء. هم القوم الذين لا يعقب عليهم معقب الامنهم ولا يجرح آراءهم واقوالهم الا العلماء امثالهم. وهم الذين يرجع الى آرائهم في الحادثات المشكلات ويعتمد على اقوالهم في الغامضات والمغيبات هم الذين اذا تناقل الناس قول حكمة مثلا فانما يتناقلونهُ عنهم. وهذا شأنهم مذ قام الانسان الى الآن وفي كل طور من اطوار المدنية والعمران واليكم التاريخ فانهُ شاهد عدل يشهد بما كان وتنطبق شهادتهُ على ما في العيان فما أثارت الامم الغابرة حرباً ولا شنت غارة الا بعد ان اعتمدت مشورة رجال العلم وهم اهل الدين في تلك الايام والمعقبون على الامراء والاحكام فان شاءوا غضبت الآلهة على البشر وان شاءوا رضيت

واما فلاسفتهم العظام الذين سارت بهم الامثال كسقراط وافلاطون وارسطو وغيرهم من كبار العلماء فقوتهم اعظم من ان يقدرها مقدّر أو يبالغ فيها مبالغ فانها حملت معاصريهم ومن جاء بعدهم من أجيالهم ان حسبوهم في مصاف الآلهة واقاموا لهم في هياكلهم من التماثيل ما كانوا يقيمون مثله لمعبوداتهم وختموا على علومهم من بعدهم فكانت اقوالهم وآراؤهم هي المتابع فيها والمعول عليها وما زالت كذلك الى الآن يتناقلها الناس فيما بينهم فتغير من افكارهم وأقوالهم ومجاري تصوّراتهم وهم لا يشعرون وعلى الحقيقة انها كانت بمثابة حياة تحيا بها عقول العقلاء وقوة يعتمد عليها العظماء والامراء ويتفقه بها الاغنياء والفقراء

وما عقّب عليهم في مدركاتهم العلمية والادبية فنسخ من بعضها وغير البعض الآخر الا من جاء بعدهم من جهابذة العلماء واكابر الفلاسفة والحكماء. فاذاً مازالت قوة العلماء هي السائدة على كل القوات والمأخوذ بها بين اهل المراتب والطبقات بل ما زالت اسماؤهم حية حتى الآن وما زلنا نصف الوزراء والعظماء وجلة الملوك والامراء بنعوت مأخوذة من تلك الاسماء ولله در من قال

مضى ذكر الملوك بكل عصر وذكر السوقة العلماء باقِ

فلا تظن يا شيشرون الروماني انك زلت من عالم الوجود فقد اقام لك ابناء جلدتك من بعد مماتك تمثالاً جعلوه بين تماثيل آلهتهم ودعوك رب البلاغة والخطابة وما دار لسان احدهم ببليغ عبارة من بعدك الا استمدها منك ولا تكلف متكلف حجة او برهاناً الا

نقلا عنك وقد كنت وما زلت امام شيوخهم ومهذب شبانهم

وأنت يا كنفوشيوس فيلسوف الصين مر عليك نيف والفا سنة في التراب واختلطت ذرات جسمك مع ذرات تربة الصين فلم تعد تتمايز عنها شيئاً ولو نشرت الآن لرأيت انك ما زلت في عالم الحياة وان قوتك ما زالت تتعاظم كلما مرت عليك الايام والسنون الى ان اصبحت ونيف واربعمائة مليون من الخلائق يقولون بقولك ويأخذون بما وضعته من آدابك وسننك ومن فيهم من الامراء والعظماء والقضاة والحكماء واكابر الجند واعيان الامة جميع هؤلاء حتى سلطانهم الاعظم ابن السماء يوقدون الشموع والبخور كل يوم امام تماثيلك ويتوجهون اليك بنوع من الصلاة والعبادة يسألون آلهتهم ان تقدرهم على فهم حكمتك والقضاء بموجب سننك واذا ولد لهم مولود تقربوا به اليك يعلمونه من اعظامك واجلالك ويلقنونه من مبادىء علمك وحكمتك حتى كأني بالامة الصينية تحيا بك وتتنفس بانفاس آدابك . وانت أيها الفخر الرازي يا ابن خطيب الري لو نشرت من ضريحك لرأيت كتبك العقلية والنقلية وشروحك التفسيرية تتناقل بين جلة القوم وأفاضلهم . وكذلك انت يا صاحب الاحياء ما زلت حياً تفعل عظاتك وآراؤك في النفوس والعقول

وأنت ياصاحب الكشاف والبيان مازال بيانك عالياً على كل بيان وما زلت اماماً للبلغاء في أساس بلاغتك ونابغة فيما اوتيته من سحر بلاغتك ومعجب فصاحتك . وما قدمت خطيب الرومان وحكيم الصين عليك وعلى من ذكرت من ابناء قومك الفضلاء الا لتقدمهما زماناً ولابين لكم أيضاً أيها السادة ان قوة العلماء هي على مارأيتم حتى بين قوم لا كتاب لهم . او بعد هذا ينكر منكر قوة العلم والعلماء ام يتجاسر متجاسر ان يضع لها حداً أو يمثلها بقوة اخرى غيرها فان منها قوة الجاذبية العامة فان هذه تربط عالم الجوامد الميتة بعضها ببعض وتلك تربط عالم العقول المتصرفة بعالم الجماد وتسعى بها في مراقي الكمال والعظمة

ومالي وللاعصر الخالية والامم الغابرة فانما الاولى بي ان استلفت انظاركم لمحة الى الجيل الحاضر والى قوة العلم والعلماء فيه فانها أعني قوة العلم قوة تكاد تكون اعظم اثراً مما سلفت في جميع القرون السارة مجتمعة معاً قوة لا نزال نراها تخضع من عالم العناصر والهيولى وتغير من مظاهر العمران الخارجي بما يوجب ارتقاء شأنه وعظمة آثاره وراحة سكانه وكذلك قوة العلماء فانها لاتنفك تؤثر في عقول الناس وآدابهم وافكارهم وتصوراتهم فترفع أفكارهم عن الخسائس والسفاسف الى ما هو اعلى واسمى وتصوراتهم عن البسائط الى ما هو اجل وارقى الى تصورات عليها أبهة الجلال والعظمة ورواء الكمالات الانسانية

واني لموقن أيها السادة انكم لا تشكون في عظمة قوة العلماء ولا في افادة العلم للعمران البشري عموماً على اني ارى ان هذا ليس موقف الاهمية وانما موقف الاهمية الحقة في ما هي المعارف التي توجب لصاحبها شأناً ومكانة في العمران حيثما كان من غير تخلف في أثرها اصلا وهنا استأذنكم في بسط الكلام شيئاً في هذا الشأن فأقول ان من المعارف ما تعم الحاجة اليها في ذاتها اما لانها وسيلة لنقل القوة العلمية او لمعرفة كيفية استخدامها والقدر اللازم معها ونوعه واما لتوقف المعاملات بين الافراد عليها . ومنها ما هي خاصة وليس لنا بها حاجة الآن

أما المعارف العامة الحاجة اليها فاذكر منها ثلاثة انواع وهي اللغة أولا ومعرفة اخلاق الناس ومشاربهم ثانياً ومعرفة نظامات المملكة وقوانينها التي تجري بمقتضاها جميع اصناف المعاملات ثالثاً فمن جمع في شخصه هذه المعارف الثلاث فقد حصل من القوة ما يضمن له بين اقرانه من المكانة عاليها ومن المرتبة خطيرها وجليلها

اما اللغة فلأنها ترجمان الافكار بين المتكلمين والموصل الذي تنتقل عليه القوة الفكرية الى اذهان السامعين بل هى مرآة المتكلم ترى فيها افكاره واخلاقه وحسن آدابه ومبلغ تهذيبه . ولا أدلّ على خطر المرء من لسانه فاذا تكلم انزله السامعون في المنزلة التي يستحقها فيضعون منه أو يرفعون على حسب ما يسمعون واللغة في ذاتها خلابة تجور بذي اللبانة عن هواه . ولحسن البيان موقع في النفوس ما من موقع وراءه ولنفثات البليغ اسحر في الالباب من نفثات الراقي وألعب بالاعطاف من حميّا الساقي ورب ذي بلاغة يذهل السامعين عن انفسهم ويشغلهم عن اخذ أنفاسهم فيتغيبون عن الوجود بما ينفثه عليهم من نفثات بلاغته ويدير عليهم من مسكر بيانه ورقيق عبارته

ولا ارى أولى بحسن البيان وقوة البلاغة من اعيان القوم ونبلائهم واصحاب الوجاهة وأغنيائهم فانهم لو اضافوا هذه على ما خصهم به المولى لبلغوا مبلغاً لا يناله المتناول ويقصر عن ادراكه المتطاول والعجب من امثالهم أنى يهملون اللغة ويضربون عن قوة البلاغة وحسن البيان زينتهم اذا ارادوا تزيناً وكمالهم اذا أرادوا كمالا بل هو منشأ تطولهم على الناس وعنوان فضلهم بين الجلاس ولا غرابة معه اذا غالى الناس في الاعجاب بهم على ما غالى الشاعر فيمن كان من قبلهم حيث يقول

معسول اطراف الحديث كأنما ... يسقي المسامع مسكراً او سكّرا
اني لأقسم لو تجسد لفظهُ ... أنفت نحور الغانيات الجوهرا

وأما معرفة اخلاق الناس ومشاربهم فقوة ما بعدها من قوة فان من عرف اخلاق

شخص ومشاربه فقد ملك قياده واصبح يديره كيف شاء ويحمله على ماشاء فيسرّه ويسوءه ويغنيه ويفقره ويخدمه ويستخدمه ولا ارى اجهل من رجل يطلب السيادة في قوم وهو لا يعرف شيئاً من طباعهم ولا من اخلاقهم ومشاربهم ولا اجهل كذلك ممن يتصدى لحمل الكافة على امر او لتغييرهم عنه وهو لا يعلم ما الذي يدعو الى اقبالهم ولا ما يوجب نفورهم

والامر الاخير هو معرفة النظم والقوانين التي يجرى بمقتضاها التعامل بين افراد الناس ويعين لكل حقوقه وتفرض عليه واجباته ولا يخطر لي هنا ايضاً الا مزيد الاختصار ولذلك فيكفيني الالماع الى ان هذه النظامات والقوانين انما يصونها الملك والسلطان والامة اجماعاً ولهذا كانت قوتها قوة هؤلاء اجمعين ومن عرفها واتقن علمها فقد جعل على جانبه قوة المملكة باسرها من علمائها وقضاتها واصحاب الامر والنهي فيها الى سائر من سواهم من اهل المراتب والطبقات* ومن كان على جانبه مثل هذه القوة فاحر به ان يكون ذا شان ومكانة بين اقرانه ما بعدها من شان ولا مكانة

ثم إن من جملة النظامات والقوانين ما وضع لخير العموم منظوراً معه الى ترقية شؤونهم وتحسين احوالهم في الحال والمستقبل معاً ولا يخفى ان هذه النظامات انما وضعت بعد التحري والنظر وطول الاختبار وتوكل الى من يقيمون بمناصبها فمن البيّن اذن ان اصحاب هذه المناصب هم ذوو قوة ووجاهة لتوقف النفع العام عليهم على ان قوتهم انما تقوم بمعرفة تلك المسنونات فاذا جهلوها فلا يفيد وجودهم في مناصبها المخصوصة شيئاً وعندي بل عند جميعكم ان الذين يطلبون الوجاهة والكرامة بالتصدي لهذه المناصب المهمة فعليهم ان يطلبوا العلم بالنظامات الموضوعة لها ويتفقهوا في معرفتها والغاية من وضعها وأسباب ذلك جميعه فانّ لهم بذلك ما يرغبونه ويتنافسون في تحصيله من القوة وتوابعها من الاكرام والتجلة والا كانوا خُشُباً مسندة تأنف منهم مراكزهم وتستغيث تطلب ابعادهم عنها لعدم كفايتهم

بقي علوم اخرى غير هذه على إن تلك العلوم لا تعم الحاجة اليها ولا يترتب نفعها المادي لاهلها انما نفعها في ترقية شان العالم عموماً وهي متروكة لاربابها من اهل العلم في كل عصر ممن لا تهمهم المناصب والرتب ولا يحفلون بالقوة الظاهرة من الاموال والمقتنيات يصرفون انظارهم الى موضوع مخصوص ولا يزالون في التنقيب عنه الى ان يبلغوا فيه مبلغ الطاقة الممكنة لهم في جيلهم وهؤلاء قد يفطن لهم العالم في حياتهم فيوفيهم حقوقهم وقد لا يفطن لذلك حتى بعد مماتهم فيذكرون حينئذ بما عملوا ويبقى تأثيرهم في الكون واهله على ممر الايام الى ما شاء الله

[ثم التفت الى الذين انهوا دروسهم المدرسية وخاطبهم قائلا] اتقدم اليكم الا تخافوا

أن يحبط سعيكم في طلب العلم ولا يداخلكم شك في انكم ستكونون في مقدمة رجال العمران حيثما كنتم وذلك اذا اعتمدتم على قوة العلم والمعرفة ولا سيما فيما تعم اليه الحاجة بين ابناء جلدتكم فوجهوا انتباهكم لتحصلوا على كل ما يمكنكم تحصيله من حسن البيان والبلاغة فان ذلك وسيلة للتفاهم وواسطة لنقل قوة العلم التي فيكم الى من يجاوركم والا ذهبت ضياعاً لان القوة اذا لم يكن لها من موصل ينقلها لم يكن لها من أثر محسوس كما لا يخفى على علمكم

وكذلك عليكم بمعرفة اخلاق الناس وطباعهم ومشاربهم ودرجات عقولهم واميالهم الادبية فانكم بذلك تعرفون نوع القوة التي ينبغي ان تستخدموها في سبيل منفعتهم وترقية شؤونهم وتحملونهم على اعتباركم والانتصاح بنصائحكم

واهم من هذه جميعها ان تتفقهوا ولا سيما غير الاطباء منكم بدرس نظامات دولتنا العلية ومسنوناتها المبنية على الحكمة والعدالة والمقصود منها صلاح حال الجمهور وفلاح احوالهم فاذا فعلتم ذلك لم يجسر متجاسر ان يفتات عليكم في حقوقكم ولا ان يلبس عليكم في واجباتكم فترتعون آمنين مطمئنين في ظل سلطاننا الاعظم

ترتيب الفعل ومتعلقاته

لا بد في الجملة الفعلية من ذكر الفعل قبل الفاعل مطلقاً وأما ما سواه من بقية المتعلقات فالاصل فيها ان تتأخر عن الفعل الا انها بحسب الصناعة اللفظية لا يتعين بينها وبين الفعل ترتيب مخصوص فلك ان تقدم ما شئت منها على الفعل او تؤخره على ما تراه مناسباً بشرط ان تحافظ على منع الالتباس وتتجنب التعقيد . اما الالتباس فلا يسوغ بوجه من الوجوه لمخالفته الغاية من وضع اللغة واما التعقيد والمراد به كل ما اوجب توقفاً في فهم المعنى المراد او اوجب للذهن تعباً يمكن تجنبه قل او كثر فلا تؤذن به البلاغة والطبع ايضاً يقضي بتجنبه ما امكن

وهذان الشرطان اعني منع الالتباس وتجنب التعقيد (او توخي سهولة الفهم) لا يمكن حصرها في ضوابط معينة انما يرجع في ذلك الى مقامات الكلام والى نظر الكاتب وخصوصية في فطرته من جهة والى معرفة القواعد والتراكيب النحوية المتعارفة والمتفق عليها من جهة اخرى. واری ان الاطالة في ما يوجبهما او ينفيهما ضرب من التكلف لا حاجة بنا اليه وخير من ذلك ان نذكر بعض الملاحظات في شأن ترتيب الفعل ومتعلقاته وهي لا تخلو من فائدة

(١) قدم الزمان وما يتعلق به على الفعل في كل جملة يبادر فيها الذهن لداع من الدواعي الى تعيين الزمان كقولك مثلا « يوم الاربعاء الواقع في ١٠ تموز الساعة ٨ ب.ظ تحتفل المدرسة الكلية السورية الانجيلية احتفالها السنوي الخ » وسببه انه مع ذكر الفعل الذي يدعو مقتضى الحال الى تعيين زمانه كثيراً ما يبادر الذهن الى تعيين ذلك الزمان فان اصاب في التعيين وهو القليل النادر اقتضى ذلك احضار الزمان في الذهن مرتين مرة قبل ذكر الزمان في الجملة ومرة بعده وهذا اسراف. وان اخطأ كان في ذلك مشقة على العقل في اصلاح خطاه والرجوع الى الصواب وهو من الاسراف ايضاً بخلاف ما اذا ذكر الزمان اولاً فانه لا يكون من العقل على الغالب الا انه يتهيأ لانتظار الفعل حتى اذا ذكر ادركه من غير تكلف لاحضاره اكثر من مرة او لاصلاح ما اورثه التسرع

(٢) قدم المستفهم عنه مطلقاً كقولك « ماذا فعلت » و « متى اتيت » وهو معلوم

(٣) قدم ما اردت تعيينه او قصره او تخصيصه اذا كان مقتضى الحال يدعو الى الاختصار او يؤذن به فان مجرد التقديم دليل على ما اردت عند البلغاء من غير استعانة

بلفظ موضوع له (كلفظة لا غير او العطف بلا الخ) مثال ذلك قولك « ماء شربت » تعني « شربت ماء لا خمراً » وقول القائل

بكم قريش كفينا كل معضلة   وأمّ نهج الهدى من كان ضلّيلا

اي بكم لا بغيركم او دون من سواكم كما لا يخفى . حكي ان بعضهم شتم صاحبه شتماً قبيحاً فاعرض المشتوم عن جوابه فقال الشاتم اياك اعني فاجاب المشتوم وعنك اعرض . وكل ذلك مما تقضي به بديهة الطبع فضلا عن حسن الذوق

(٤) اخّـر ذكر العلة او سبب الفعل عن الفعل لان العقل لا يسأل عن سبب الفعل الا بعد وقوعه ولذلك كان ذكر سبب الفعل قبله مما يتأذى منه العقل لما فيه من المخالفة لمقتضى الترتيب الطبيعي الا لغرض كارادة القصر او التعيين على ما مر وكأن يكون السبب واقعاً معلوماً من قبل والفعل (او معناه) المسبب عنه اشبه بالنتيجة له فيتقدم حينئذ ذكر السبب وعليه ورد في سفر التكوين « لانك سمعت لقول امرأتك واكلت من الشجرة التي اوصيتك قائلا لا تأكل منها ملعونة الارض بسببك بالتعب تأكل منها كل ايام حياتك » وكقول رئيس المحكمة مثلا « بناء على ثبوت الدعوى المقدمة من فلان على فلان بشهادة الشهود العدول نحكم على فلان بكذا الخ »

ومما يقرب من هذا قول بعضهم

لما رأيت موارداً   للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها   تسعى الاصاغر والاكابر
لا يرجع الماضي اليَّ   ولا من الباقين غابر
ايقنت اني لا محا   لة حيث صار القوم صائر

فانه قدم على الفعل (ايقنت) ما اوجبه من الاسباب الواقعة المعلومة لترتب اليقين عليها بما يشبه ترتب النتيجة على المقدمات

وقريب من هذا الباب ما اذا كان الفعل واقعاً معلوماً عند المخاطب والعقل متوجهاً للسؤال عن سبب الفعل فانه في مثل هذه الحالة تقتضي البلاغة ذكر السبب اولاً لاسيما اذا كان للفعل يحسبُ تبعة التنصل منها . حكي عن بروتس احد عظماء الرومان وصديق قيصر الكبير انه بعد ان قتل قيصر قام فيهم خطيباً واليك مفاد بعض ما قاله ولا فرق هنا بالنسبة الى غرضنا بين ان تكون نسبة هذه العبارات اليه حقاً او ادعاء قال «لان قيصر كان صديقي فانا ابكي عليه واندبه ولانه كان ذا حظوة موفّـقاً فانا اهش لهذا واستعذبه ولانه كان بطلا شجاعاً فانا اجله واحترمه لكن لانه كان يتشوف الى الملك واذلال الرومانيين قمت عليه وقتلته »

فانظر كيف قدم ذكر السبب في هذه الجمل الاربع اما في الثلاث الأول فلان السبب واقع معلوم من قبل واما في الرابعة فلان الفعل واقع معلوم دون السبب مع انصراف الخواطر الى معرفته وتوجه غاية المتكلم الى ان يتنصل من تبعة الفعل بذكر السبب الذي يقوم به عذره لدى السامعين

(٥) قدم ما اردت على الفعل محافظة على الفاصلة في الكلام المسجوع ومحافظة على الوزن او القافية في الكلام المنظوم (على شرط عدم الالتباس وعدم التعقيد) كالآية « خذوه فغلّوه ثم الجحيم صلّوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » وكقوله

وما كل بمعذور ببخل ولا كل على بخل يلام

وكقوله ايضاً وجدتموهم نياماً في دمائكم كان قتلاكم اياهم فجعوا

وكقول الآخر عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

وهذا كثير شائع

(٦) توخَّ المطابقة بين الجمل المتعاطفة فقدم في المعطوف ما هو مقدم في المعطوف عليه وأخر هنا ما هو مؤخر هناك كقولك : انه كان لا يؤمن بيوم الحشر العظيم ولا يحض على طعام البائس المسكين . فاذا قلت مثلا انه كان بيوم الحشر العظيم لا يؤمن فقل وعلى طعام البائس المسكين لا يحض . وقد تكون المطابقة بين طرفي كلام واحد كقول الخوارزمي « ولكن الكبير من الكبير يصغر كما ان الصغير من الصغير يكبر » فاذا قلت ولكن الكبير يصغر من الكبير فقل كما ان الصغير يكبر من الصغير

واعلم ان متعلقات معنى الفعل كالصفة والمصدر يجري عليها مع الصفة والمصدر ما يجري على متعلقات الفعل معه مما مر بك واللبيب اذا احسن اعتباره في ما ذكرناه كفاه ذلك عن مزيد التطويل وكثرة الامثلة

الى ماذا نحن صائرون وكيف نتلافى امرنا (١)

ايها السادة والسيدات

علم الله اني استعفيت من المقام في هذا الموقف امامكم فلم أعف . وحاولت جهدي في ان أتَخلَّى عنه لغيري ممن يتشوف البادي والحاضر للاصغاء اليه فلم انل بغيتي . حاولت ان اتخلى لرب الخطابة والمقدم فيها العلامة الدكتور وليم فانديك ويا حبذا لو تم ما حاولته فانه لو قام مقامي هذا الفاضل على ما اشتهيت وسعيت لكنتم تسمعون منه الآن غير ما تسمعون وتمر بكم الساعات لا الدقائق وانتم صاغون ومعجبون بل كنتم تودون لو يمد الليل بساعات من النهار وانتم باسمون ومبتهجون لكن صدق شاعرنا المشهور حيث يقول

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

فقد جرت الرياح بسفينة هذا الواقف امامكم وهو مبلبل البال مضطرب الخواطر يخشى ان لا يحسن ادارة دفتها فلا تصل به الى حيث يريد وان هو احسن القصد وافرغ في سبيل ذلك غاية المستطاع ومنتهى الجهد . على اني اخلصت النصح في ان يكون غيري الخطيب ممن ترضونه ثم لما لم يسمع نصحي ولا سوعدت على اخلاصي بذلت غاية جهدي في ان آتي بأحسن ما يؤتى به من مثلي فان جاء في ما سأقول شيء يشفع بي عندكم فذلك لفضل فيكم وجزاء لي على اخلاصي والا فاللوم على من اوقفوني هذا الموقف لا علي لاني نصحت اولاً واجتهدت ثانياً وبذلت في هذا وذاك غاية ما في وسعي ولا تكلف نفس فوق ما في وسعها

موضوعي ايها السادة والسيدات « الى ماذا نحن صائرون » وهو موضوع بعيد المسافات متوعر المسالك فان انا اخذت في جميع طرقه واطفت به من جميع جهاته اعوزني الوقت وحملتكم من المشقات ما لا تطيقون وهب ان فسح لي في الوقت فمن اين لكم الصبر اذا سلكت بكم في جميع منعرجاته وطفت معكم في جميع معالمه ومشاهده بل أرى الوقت لا يؤذن لي بالمقدمات التي تقدم عادة بين يدي الموضوع ولا بالتمهيدات التي تمهد قبل ان تنفض مسالكه ويخاض في مخاوضه فاعذروني اذن في اقتضاب الكلام اقتضاباً وابتداء الغرض منه ابتداهاً فاقول . انظروا الى جبالنا تعلموا الى اين نحن

(١) خطبة كتبت لتتلى في جمعية تهذيب الشبيبة السورية

صائرون . هذه جبال لبنان من اولها شمالا الى آخرها جنوباً جميع اعاليها جرداءقرعاء يسلك فيها السالك ساعات لا يرى شجرة ترمي ظلا او تمسك تربة فاذا وقعت عليها العين من بعيد لا تستقر على ما كان ينبغي ان تستقر عليه من انيق خضرة تسر العيون بجمالها او غابات ادواح رائعة تتسع الصدور لاتساعها وتستشعر القلوب والنفوس اعظاماً لعظمتها وهيبة واجلالا لهيبتها وجلالها. نعم لو كانت كما ينبغي ان تكون لا على ما هي عليه الآن لكانت احسن بقاع الله ماء وهواء وجمالا وجلالا ولكانت بلاد سويسرا على شهرتها ليست الا وصيفة من وصائفها او أمة من امائها. بل لو كانت كما ينبغي ان تكون لاعتدلت فوق اعتدالها فصولنا فكان صيفنا اعل هواء والطف حراً وأقل جفافاً واطرد شتاؤنا فكان اكثر مطراً وجاء الباكر منه والمتأخر في اوانهما معتدلاً لا طوفاناً يجرف التربة جرفاً ويخرب السواحل تخريباً ولا رذاذاً غثاً لا ينقع صدى ولا يروي لأرض غليلا . وليس الحال في بقية جبال سورية وتلالها الا على ما وصفنا به جبال لبنان فان اكثرها جرداء قاحلة بعد ان كانت غاباً واحداً من ادواح الأشجار على اختلاف اجناسها وانواعها

والمترتب على هذا فضلا عما ذكرنا من اختلال فصولنا وقلة امطارنا وعدم اضطرادها شتاء وربيعاً ان فنيت اخشاب البناء وقل الوقود في البلاد واعوز وجدانه في المدن والقرى الكبيرة وارتفعت اسعار الفحم فيها

من اين ما نراه من مستودعات الحطب في جوار ميناء الحسن امن غابات لبنان هو ام من حراج صنين والشعراء ؟ ولا يبعد بعد قليل ان نرى مثل هذه المستودعات او ما هو من بابها في دمشق وغيرها من مدن الداخلية كما نراها اليوم في اكثر مدن السواحل

او لم يكن الا هذه المستودعات لهان الامر لان ما فيها يردنا من بلاد عثمانية وفي سفن على الغالب عثمانية ولكن انظروا الى طرق لبنان المزدحمة بدواب النقل واخبروني ماذا تحمل هذه ؟ انها تحمل احجاراً سوداً مربعة الشكل يقال لها فحم حجري يردنا من انجلترا او فرنسا او بلجكا وهي بلاد اجنبية وفي بواخر اجنبية ايضاً ليوقد في معامل بيروت ولبنان او ليوقد في مواقد حديدية اجنبية للدفء شتاء في كثير من بيوت بيروت وكثير من بيوت لبنان الكبيرة . بل هنالك اكثر مما ذكرنا . ادخلوا البيوت في بيروت وفي كثير غيرها من المدن والقرى الكبيرة وفتشوا في مطابخها واخبرونا ما هو نوع وقود هذه المطابخ انكم قلما تدخلون بيتاً الا وترون وقوده البترول من باطوم او الولايات المتحدة . فلماذا استبدلتم يا اصحاب البيوت مواقد مطابخكم بطباخات البترول ؟ أليس لان جبال لبنان وسورية اصبحت قرعاء جرداء فاعوزنا الحطب والفحم

واضطررنا اضطراراً الى الطبخ والغسل على البترول . هذه نظرة نظرناها الى جبالنا فقولوا لي بعدها يا من ترون معي ما ارى «الى ماذا نحن صائرون؟» واأسفاه اننا صائرون الى الخراب والافلاس غداً او بعد غد

دعونا من هذه النظرة ايها السادة وانظروا نظرة اخرى الى حالة زراعتنا . سهولنا ومزارعنا اكثرها بور والمزروع منهـا وهو ما قارب المدن والضياع لا يكاد يبلغ ربع الارضين . واما ما بعد فمتروك للشوك والحسك . ويا ليت ان في البـلاد ماشية من الغنم والبقر وسائمة الخيل تتكاثر وتنمو على هذه الارض المتروكة بوراً فكنا اذن نستوفي شيئاً من خصبها الطبيعي بصورة الماشية ولكن الحال ليست كذلك فان اغنامنا قليلة جداً وكذلك بقية الماشية حتى تضطر اغاب مدننا وضياعنا الـكبيرة ان تجلب اللحوم من خارج سورية وقد بلغ ثمن اقة اللحم في مدينتنا بيروت في غضون هذه السنة نحواً من خمسة عشر غرشاً او تزيد وهو ثمن لو بلغته اقة اللحم في لندن او باريس في غمرة الشتاء لضج اهلهما من مجاوزته المعتاد

انظروا الى انهارنا واعظمها العاصي شمالا والاردن جنوباً والليطاني ما بينهما فهذه الانهر الـكثيرة المياه السريعة المجرى متروكة هملاً لا تسقي ارضاً ولا تدير آلات الا بعض مطاحن لطحن القمح . ولو ان هذه الانهر ينتفع بمياهها على ما ينبغي لـكانت البلاد على بعض ضفافها تفوق بلاد النيل خصباً وكثرة حاصلات ولـكانت كما يقال تفيض ذهباً وفضة . ولقد نقل عن استاذنا الدكتور جورج بوست انه قال اعطوني نهر العاصي وواديه عن جانبيه والاردن وواديه وانا املأ لكم سورية طعاماً وكسوة فلا يجوع رجل ولا يعرى ولد

ايها السادة سهولنا واسعة ومزارعنا خصيبة ومياهنا في بعض الجهات كثيرة ولـكن اين غلاتنا ؟ اين الحبوب التي كان ينبغي ان تكون مركومة امثال التلال في مزارعنا وقرانا وتصدر في سفننا من ثغورنا الى مدن اوربا وبنادرها . ام اين اقطاننا التي تملأ بيوت زارعيها وتفيض فتملأ المستودعات الكبيرة والمخازن الواسعة في مدننا فتصدرها تجارنا وترد علينا اثمانها ذهباً وهاجاً

واأسفاه ليس شيء من ذلك اما القطن فاظن الشبان ومن هم في اول سن الـكهولة [illegible] لا يعرفونه الا محشواً في فراش احدهم او لحافه اما كيف يزرع ويجنى ويحلج [illegible] كان يضرب المثل بمتانته فذلك مما يسمعونه عن آبائهم او نقلا عن

واما الحبوب فيسوءني ان اقول على مسمع منكم ان كثيراً من مخازن الحنطة في مدينتنا الآن منها لكن من غير سهول حمص وحماه والشام وحوران ولو ان الحنطة والدقيق يردان الينا من اضاليا فقط لهان الامر لان اضاليا بلاد عثمانية وقمحها يستهلك في ثغر عثماني ولكن سلوا العارفين فيخبروكم ان تجار الدقيق قد يستوردونه من روسيا وفرنسا بل من اميركا وانكلترا ويجدون له مشترين في بيروت وغيرها من المدن البحرية. وان لساني ليتلعثم في فمي حزناً واسفاً اذا ذكرت لكم ما اراه وترونه انتم كل يوم من مركبات تحمل الخبز الى كثير من البيوت من افران تجلب دقيقها من فرنسا او روسيا واحياناً من ايطاليا وفي كل يوم يزيد عدد الموزع عليهم من هذه الافران عن سابقه

دعونا الآن نلفت نظرنا عن حالتنا الزراعية الى حالتنا الصناعية . وبكل اسف اقول انها اشبه بحالتنا الزراعية ان لم اقل اسوأ منها عاقبة واسرع بنا الى الخراب والافلاس مصيراً . ادخلوا الى بيوتنا في المدن والضياع وانظروا ماذا ترون ؟ ترون اثاثنا وادوات طعامنا وشرابنا وانواع زينتنا اغلبها ان لم اقل كلها هي من المصنوعات الاجنبية ويا للاسف حتى الزيوت والمكبوسات من البصل والخيار واشباه ذلك ولا اقول المشروبات ترد الينا في قناني من البلاد الاجنبية ونفاخر بها لانها من صنع بلاد اجنبية . استوقفوا رجالنا وشباننا برهة وانظروا في ملابسهم من اسفل القدم الى قمة الرأس فانكم ترون الاحذية من صناعة اجنبية والطرابيش كذلك وما بينهما من القميص الذي يباشر الجلد الى المنديل في الجيب كل ذلك من بلاد اجنبية وصناعة اجنبية . ويا للعجب ان القمصان وربط الرقاب ليستخف بها اذا كانت مصنوعة بايدي صناعنا ويفاخر بها لمجرد انها مصنوعة في لندن او باريس واعجب من ذلك وانه لعجب يستوجب البكاء ان بعضاً من شباننا يباهون في انهم يخيطون اثوابهم في باريس او في لندن يرسلون اقدارهم الى الخاطة هناك فتأتيهم الاثواب طرداً في البوستة او مع احد الركاب لا يشعرون بسوء عاقبة ما يفعلون ولا يفطنون لفضيحة ما به يباهون

امور تضحك الجهال منها ويبكي من عواقبها الحكيم

استوقفوا المكاري استوقفوا الفلاح استوقفوا الفاعل من الفعلة الاعتياديين وانظروا ماذا قد يلبس كل واحد من هؤلاء لا ترونه يلبس العباءة ولا الخام البلدي ولا الديما التي يحوكها صناع بلادنا وكان يلبسها من قبل انما ترونه يلبس الصاكو المصنوعة في المانيا والديما المنسوجة على انوال منشستر والجلد المدبوغ في مدابغ فرنسا واميركا

ياشبان بلادنا ويا رجالها لماذا لا نلبس الانسجة التي حاكها صناعنا في

أنوال دمشق وبيروت وحمص وحماه والزوق يا سيدات بلادنا لماذا لا تلبسن الحرائر المنسوجة على هذه الانوال وتباهين — كما تباهي الغربيات — في منسوجات نسجتها صناعنا وخاطتها الخاطة من بيننا — واني لا اخاطب الغنيات اللواتي علكن هن او ازواجهن الالوف من الجنيهات فهؤلاء مستثنيات في كل بلاد فضلا عن انهن يعددن على الاصابع وانما اخاطب من سواهن من الجمهور الاعظم

ايها السادة والسيدات اني لاستحي من نفسي واستر عيني خجلا اذا ذكرت لكم ان رئيس مدرستنا هذه واعضاء عمدتها رأوا سوء الحالة التي ذكرتها لكم وحببوا الينا غير مرة ان نلبس ملابس بلادنا ومنسوجات بلادنا ليقتدي بنا تلامذتنا في ذلك فيخفف عن عاتق آبائهم كثير من النفقات التي حنت ظهورهم فاعرضنا عن نصحهم وأدرنا اليهم ظهورنا

دعونا بعد ننظر من موقف آخر يطل على حالتنا الادبية من جهة الاقتصاد في النفقات فلعل هنالك ما يختلف في المغزى عما رأيناه. هؤلاء شباننا يسرحون ويمرحون فانظروا اليهم عن آخرهم انظروا الى ابناء المدارس والمتاجر والصناعات المختلفة وقولوا لي ماذا ترون. انهم على اختلافهم في درجات الغنى وعلى اختلاف في المهنة التي يمتهنونها والمدرسة التي يتعلمون بها وعلى اختلافهم ايضاً في الاذواق والمواهب العقلية والادبية يكادون يتفقون في المباهاة بالانفاق على غير طائل ويتنافسون في الاسراف والتبذير — الا من عصمهم الله وقليل ما هم يركبون العربات لا لأنهم لا يستطيعون المشي ولا لأن في ركوبها زيادة في المسرة ويركبون الدراجات لا لانهم يريدون المحافظة على الوقت والاسراع في قطع المسافات الطويلة ليباشروا اشغالهم في اوقاتها باكراً بل يركبون هذه او تلك لان في ركوبها مظهراً من مظاهر الاسراف وايماء الى ما يذهبون اليه باطناً ويبدو في عرض احاديثهم ظاهراً من انهم لا يحفلون بالمال ولا يقدرونه بقدر كأن الرجولية والأسفاه تتطلب الاسراف او الحكمة تأمر بتبذير المال. اسأل المستخدمين من هؤلاء الشبان ماذا ابقيتم في جيوبكم من رواتبكم الشهرية او السنوية رأس مال لكم في المستقبل يجيبوك انهم لم يبقوا شيئاً بل كثيرون منهم ابقوا عليهم ديناً يماطلون به او يتدافعه عنهم آباؤهم. اسأل ابناء المدارس فيما انفقتم النفقات الكثيرة التي يئن آباؤكم من ثقلها وانتم تأكلون وتشربون من المدرسة وتنامون فيها فيسكتون او يتمتمون ويعتذرون بما لا تحصل له

دعوا الشبان جانباً وانظروا الى البيوت الى الآباء والامهات واسألوا هؤلاء ماذا انفقوا في سنتهم الماضية ام اين حسابات تلك السنة ؟ ما اظن احداً من المسأولين يقدم

لك حساباً وأكثرهم يتعللون بقولهم وما فائدة مسك الحسابات أيُقلّ ذلك من النفقات ام يزيد في الدخل ؟ وكأني ببعض المسأولين يتململون من هذا السؤال وينظرون ذات اليمين وذات الشمال وبعضهم ينظرون بطرف خفي الى زوجته وكلنا نعلم معنى هذه النظرة. وغاية ما نجده هنا ان الدخل والخرج متساويان ان لم يكن الثاني يزيد على الاول . فاذا سألت اولئك الذين تساوت نفقاتهم ودخلهم ماذا تؤملون في المستقبل قالوا لك الله كريم غداً يكبر اولادنا فينفقون علينا بدلا مما انفقنا عليهم في تعليمهم وتهذيبهم . واما اولئك الذين تزيد نفقاتهم على دخلهم فلا نعلم ايضاً جواباً نعتذر به عنهم . ايها السادة كأني اسمع احدكم يقول ما لك ولنا نحن الذين قيل فيهم بعرق جبينك تأكل خبزك فانه يكفي امثالنا ان يزجوا العيش تزجية وحسبهم ان يتساوى دخلهم ونفقاتهم فاسأل اصحاب الاملاك الواسعة والمقتنيات الكثيرة ودعنا نحن وشأننا . صدقت ايها القائل اقله بحسب الظاهر فاذسألكم يا اصحاب الاملاك والعقارات الذين بيننا والغائبين عنا . ماذا وفرتم من دخلكم في السنة الماضية ؟ وبأسف اجيب بلسان اغلب هؤلاء ان نفقاتهم تستغرق دخلهم بل كثيرون منهم تبقى عليهم بقية دين من سنة الى اخرى فلا تلبث هذه البقايا ان تتكاثر سنة بعد سنة وهم لا يشعرون وكثيرون منهم لا ينتبهون من غفلاتهم الا وقد اطاف بهم الافلاس واصبحوا في خطر من ان يفقدوا املاكهم ووجاهتهم معاً

وليس التجار بيننا خيراً بكثير ممن ذكرنا من الاغنياء من اصحاب الاملاك . هؤلاء الذين ينظر اليهم من بين جميع الطبقات ويتوقع منهم ان يحافظوا على رؤوس الاموال ويزيدوها من سنة الى اخرى ليمدوا بها البلاد ويزيدوا من مرافقها ومنافعها العامة — هؤلاء اذا فتشتم عن احوالهم ترون انهم يكادون يماثلون بقية الطبقات في تعريض رؤوس الاموال التي يتوقف عليها نجاح البلاد للخسارة والضياع . فان كثيرين من تجارنا ومن هم بمثابتهم ممن جمعوا شيئاً من رأس مال قد استغوتهم البورصة فالقموها فضلات ما جمعوا فاطبقت عليها اشداقها وتركتهم صفر الايدي يعضون اصابعهم ندماً وحسرة

قولوا لي ماذا اصاب بيروت في هذه السنين الاخيرة ؟ اما نقص رأس مالها نقصاً فاحشاً ضعضع اركان الامنية التجارية واوقف حركة الاعمال والمتاجر . لو شئت لظللت اعدد حتى الصباح مظاهر واحوالا لا تخفى على عاقل وكلها تشير الى سوء مصيرنا وتسرُّعنا افراداً واجمالا البلاد والعباد الى شفا الافلاس والخراب . وقد بدأت الحال تتكشف عما ذكرنا فاين الاطباء والصيادلة واصحاب الشهادات العلمية الذين يخرجون من مدارسنا سنوياً ؟ اين الصناع الاكفاء ؟ اين الفعلة الاقوياء ؟ اين اهل الفلاحة والزراعة

ثمن يستغلون الاراضي ويقومون على استثمار خيراتها ؟ اين جميع هؤلاء ؟ وماذا اصاب اكثرهم ؟ انهم يهاجرون افواجاً افواجاً لم يتوقف تيار مهاجرتهم منذ اكثر من خمس وعشرين سنة الى الآن حتى بلغ فلّهم اطراف المعمور وما اظن يقل عددهؤلاءالمهاجرين عن الاربعمئة الف نسمة ولا يزال الكثير ممن لم يهاجر يتشوف الى المهاجرة ويجعلها نصب عينيه

تأملوا ايها السادة واحكموا لانفسكم . بلاد واسعة من اخصب بلاد الله في المعمور ومن احسنها هواء وانقاها سماء وماء لا يزيد اهلها على المليونين ومع ذلك فقد هاجرها نحو من خمس سكانها وفي هؤلاء المهاجرين كثيرون من اطبائها وصيادلتها وكتبتها ومعلميها وصناعها من اقواهم بنية واحدهم قلباً وخاطراً . فلماذا هذه المهاجرة وما هو سببها ؟ انه ليس لذلك من سبب الا قلة رأس المال في البلاد عموماً وعوز اولئك الذين هاجروا خصوصاً . نعم ان لو كان بين يدي الافراد او في البلاد رأس مال ما هجرها الطبيب والصيدلي ولا الكاتب ولا المعلم . ومثل ذلك يقال في الصانع والعامل والفلاح والزارع ومن سواهم من اهل الحرف المختلفة . وما معنى الافلاس الا ذهاب رأس المال

كيف نتدارك امرنا ونبلغ امانينا

متى ايها السادة تصبح اعالي لبنان غابات ادواح وتلال سوريا وهضابها كروماً ناضرة وحدائق غناء يانعة ؟ متى تصبح سهولنا الواسعة ملآنة قطاناً ومزارعنا الخصيبة تفيض حنطة وخيراً ؟ متى تستخدم مياه انهارنا الكبيرة في ري ما على ضفافها الخصيبة من التربة فتصبح أقطاننا تكفي حاجاتنا ونصدر منها الى البلاد الاجنبية جانباً كبيراً ايضاً ؟ بل متى يعمل لنا صناعنا وندفع اليهم اجور العمل لا الى غيرهم فيبقى مالنا في بلادنا لا يتسرب منها الى البلاد الاخرى اجرة لصناعها ويبقى صناعنا فارغي الايدي وعالة على البلاد لا يجدون عملا يعملونه ․ متى نرى كل ذلك ؟ لا بد ان يمر علينا زمن طويل قبل ان تتحقق لنا هذه الاماني . على انها لا تتحقق الا اذا أخذنا بالاسباب المقتضية لها . وهذا ما يهمنا السؤال عنه أعني كيف نتدارك أمرنا بحيث نبلغ أمانينا من جهة وندفع من جهة أخرى عن انفسنا وعن بلادنا شر ما نحن صائرون اليه من الافلاس والخراب

يقول البعض اعقدوا الشركات لجمع الاموال وانفاقها في غرس الغابات والكروم وفي تكثير الزرع والضرع واستخدام مياه الانهار في الري والصناعة . ونعم القول والرأي هذا. ولكن اين الاموال لذلك والبلاد في حالة الافلاس ؟ من منا في صندوقه مال مذخور

يستغني عنه زماناً طويلا ليودع في صناديق هذه الشركات؟ اجيبوني ايها المعلمون اجيبوني ايها الشبان المستخدمون. اجيبوني يا ارباب البيوت واصحاب الحرف والصناعات المختلفة. بل ما لنا ولهؤلاء اجيبوني ان استطعتم يا ارباب الاملاك الواسعة والعقارات الكثيرة وافتحوا صناديقكم لنرى ما فيها من الذهب الوهاج. يالمزيد الاسف انها فارغة ليس فيها دينار واحد يستغنى عنه مدة. مالنا ولهؤلاء ايضاً. هلموا بنا الى التجار والصيارف نستغيث بهم. ياتجارنا الكرام وصيارفنا الاغنياء افتحوا صناديقكم الحديدية لنرى مافيها من الاموال الاحتياطية. هل من احد منكم حاضر هنا يسمع كلامي؟ اني اشك بذلك. لكن هب ان كان منكم احد الآن او كان غيره ممن هو عارف بحقيقة الحال فماذا يجيب؟ ان البورصة ابتلعت من هذه الصناديق في السنين الاخيرة من مدينة بيروت فقط مايزيد في الراجح على الخمسمائة الف جنيه كان يمكن ان تستودع اساساً لمثل هذا المشروع وتزاد في المستقبل شيئاً فشيئاً فلم يبق الا مايكاد يكفي لحركة تجارتنا الاعتيادية البطيئة

يقول قائل اذن فلنستدن الاموال من الخارج. من صيارفة اوربا وبيوت المال فيها. وا أسفاه ان هذا مايحاوله هؤلاء وهذا ما يسعون اليه جهدهم. وان تم لا سمح الله اصبحنا غرباء في البلاد واصبحت السهول والجبال لهؤلاء دوننا وخير لنا ان تبقى البلاد قرعاء جرداء وعلى شر مما هي عليه وهي لنا من ان تصير الى ما نحلم به وهي لاولئك الاقوام. وكفى عبرة بما وقع لغيرنا وببعض ما وقع لنا

قالت الضفدع قولا فسرته الحكماء
في فمي ماء وهل ينطق من في فيه ماء

ايها السادة اني سمعت ما اكاد اظنه حلماً لا حقيقة وهو ان بعض اغنيائنا في مصر والشام قد عقدوا شركة مالية رأس مالها منهم وفي نيتهم ان يستخدموا هذا المال في احياء الموات من الارضين وفي زراعة القطن واستثماره على الاخص فان كان ماسمعته صحيحاً — حقق الله الخبر — ففيه مايحيي لنا شيئاً من الامل ونتوقع معه حسن العاقبة في المستقبل ومع انا على يقين ان الله اذا اراد امراً هيأ له اسبابه فليس من الرأي ان نسترسل الى ما لم يتحقق بعد من الاماني ونترك ما في مكنتنا اتخاذه من الوسائل والاسباب التي تقضي بها علينا الحكمة والرأي مما يكون ردفاً لهذه الشركة ودعامة لها تدعمها في حينها.

يقول آخرون هذبوا فتياتنا وفتياتنا فان على تهذيبهم مدار النجاح والفلاح وفيه اساس لحسن الحال والمآل في العاجل وضمانة يتلافى بها ما يهددنا من الافلاس في المستقبل. ونعم هذا القول قولاً ما اشوقه في الظاهر وارواه واسده قبل التحقيق وامضاه وكان علي

من حيث اني معلم ان اختم على صحته من غير تردد فيه او اهلل به على رؤوس الملأ من غير تجريح له . ولكن ان كان القصد بالتهذيب مجرد التعليم على ما جرينا عليه الى الآن فما اكثر الاقوال الشائقة لكن على غير جدوى واروى الآراء المموهة لكن من غير محصل ولا فائدة ! هذه مدارسنا قد ملأت المدن والقرى ومنذ ثلاثين سنة الى الآن وعددها يتزايد وعدد الطالبين والطالبات يتكاثر فماذا نفع البلاد تعدد المدارس او ماذا اجدى عليها تكاثر عدد الطلبة ؟ انَّ عندنا الآن من المدارس الكلية والعالية ما لو نسبناه الى عدد الانفس لاربى على ما عند الانكليز او الفرنسويين . ومع ذلك فالبلاد اليوم اقرب الى الافلاس مما كانت منذ عشرين او ثلاثين سنة وستكون بعد عشر سنين اقل رأس مال مما هي عليه الآن ان لم نتدارك امرنا . قولوا لي ماذا نفع البلاد كثرة التلامذة وما هي الزيادة التي زادوها الى رأس مالها ؟ بل كيف ينفعون البلاد وهم يهاجرونها الواحد بعد الآخر وقد بلغ فُلاَّهم اطراف المعمور من شمال اميركا الشمالية الى جنوبي اميركا الجنوبيَّة الى بلاد الفليبين وقلب السودان وبلاد الترنسفال ورأس الرجا الصالح ولعل بعضهم الآن في نواحي الصين او في قلب بلاد اليابان

والمتأمل يرى ان المهاجرة كانت تتزايد على نسبة تزايد عدد المتعلمين والمتعلمات وليس لذلك من سبب الا ان التهذيب الذي نتهذبه يزيد من افلاس البلاد حتى اذا ما أتمَّ الطالب ايامه المدرسية واخذ شهادته العلمية او الطبية او الصيدلية او التجارية لا يرى معه شيئاً من رأس مال يستند اليه ولا هناك في البلاد رأس مال يحمل علمه والنتيجة ظاهرة انه لا يجد بداً من المهاجرة فيهاجر

فان قيل ان المهاجرة طبيعية وقد تكون دليلا على تقدم البلاد قلت نعم لكن في غير الحالة التي نحن فيها اما في حالتنا نحن فلا لان سكان سوريا لم يزد عددهم على ما تتحمله البلاد بل هي تتحمل أضعاف أضعاف الاهلين في الوقت الحاضر فالمهاجرة اذن غير طبيعية وهي دليل واضح على قلة رأس المال بين ايدي الافراد الذين يهاجرون وفي البلاد عموماً

أيها الطالب العزيز الذي تباهي في الاسراف وكثرة النفقات حتى تستنزف على تعلُّمك آخر غرش في جيب أبيك وتتركه في آخر سنيك المدرسية صفر اليدين لا مال صامتاً ولا ناطقاً لديه بل كثيراً ما تتركه وقد رهن بيت سكنه نفقة عليك وتحملا لمطالب بذخك واسرافك قل لي باهذا ماذا يبقى أمامك عند نهاية أيامك المدرسية الا المهاجرة الى حيث ترى نفسك مضطراً ان تصرف معظم ما بقي من نشاطك وقوة شبابك لتفك ما رهنه أبوك

علي تعليمك ثم بعد ذلك تنفق نفسك وقواك في إعداد معدات لبيتك حتى اذا صرت صاحب بيت وتوجهت خواطرك لاعالة فتيانك وفتياتك رأيت انك لم تدخر شيئاً ولا تستطيع ان تدخر بَعْدُ ويعود الدور بين أولادك وبينك على مثل ما كان بينك وبين أبيك . وإذا كانت الحال على هذه الصورة فهيهات هيهات ان ترى بلادك الا على ما هي عليه الآن. وهيهات هيهات ان يكون في طوقك ان تزيد على حالتها الحاضرة ما تصبح معه على حلم ان تصير اليه. وكل آمالك بل أحلامك الآن تموت عند ما تستيقظ في أيام كهولتك لانك لا ترى بين يديك رأس مال تستغني عنه يستخدم في ترقية شؤونها وزيادة قوتها وفلاحها . وبالاجمال فالتهذيب الحالي لم يبلغ ولا يبلغ بنا المقصود ولا هو مما يركن اليه في تلافي أمرنا

ايها السادة . اذا أردنا ازالة الداء فلابد من معالجة أسبابه الرئيسية وإزالتها أولاً . وليست هذه الاسباب الجهل على ما ارى ولا قلة الشبان المتهذبين على ما بيَّنا ولا هي ايضاً كسل الاهالي وتراخي أيديهم عن العمل لأن المتأمل الخبير يعلم أن الصانع اليوم أنشط من صانعنا بالامس وأكثر منه إكباباً ومثابرة على العمل .وكذلك فاعلنا وزارعنا وبستانينا ومستخدمنا وتاجرنا وكاتبنا ومحاسبنا ومعلمنا فان جميع هؤلاء يشتغلون ويجتهدون في العمل فوق ما كانوا عليه في الماضي

وكذلك ليس السبب أيضاً عدم وجود الشركات العمومية لان عدم وجود هذه ليس سبباً في الافلاس أو تسارع أفراد الامة اليه بل هو نتيجة عنه . فان من الحقيقة التي لا تنكر عند ذوي البصيرة ان عدم وجود الشركات العمومية مسبب من عدم وجود رأس المال اللازم لها بين ايدي الافراد لا سبب لنقص رؤوس الاموال هذه . نعم لو وجدت هذه لزاد بها رأس المال ولكنها لا توجد اولاً إلا بعد ان يوجد رأس مال بين أيدي الافراد غير رأس المال الذي لا بد لهم منه لادارة حركة أعمالهم الاعتيادية . وأزيد أيضاً من غير ان أنسب الى الاطراء والتملق للهيئة الحاكمة ان السبب فيما يهددنا من التسارع الى الافلاس ليس هو عدم الامن ولا هو من اختلال إدارة الاحكام واعمال العمال الذين تقصر إجراءاتهم عن ان تأتي مطابقة للدستور لان الامن الآن هو فوق ما كان عليه بكثير منذ خمس وعشرين سنة ودليله اتساع دائرة الزراعة والصناعة والتجارة فقد زاد المزروع في البلاد وزادت حاصلاتها وتجارتها وصناعتها الى ضعف ما كانت عليه قبلا ان لم يكن الى أكثر من ذلك . ويستحيل ان تكون هذه الزيادة ما لم يكن الامن قد زاد واما تقصير العمال فأراه يكاد يكون مسبباً عن نقص رأس المال في البلاد لا سبباً له . نعم لا أنكر انه كان خيراً للبلاد لو لم يوجد مثل هذا التقصير وانه سبب أيضاً في قلة

رأس المال لـكنه ليس سبباً أولياً بل سبباً ثانويًا ويمكن إزالته شيئاً فشيئاً مع زوال السبب الاولي وفقاً لما تقتضيه ضرورة الوجود

والخلاصة ان كثيراً مما يذكر انه سبب لتأخرنا ولتسارعنا الى الافلاس اما ان لا يكون سبباً أصلا او يكون سبباً ثانوياً لا أولياً وما لم نعلم السبب الاولى ونسعى في إزالته فلا يرجى لنا نجاة مما نحن صائرون اليه .وعندي ان السبب الاولي انما هو إسرافنا وتبذيرنا أولا من حيث نحن أفراد وثانياً من حيث نحن أمة . واليكم بيان ذلك ولو بمراجعة ما المعنا اليه سابقاً ولنبدأ باسرافنا من حيث نحن أفراد

رأينا الحاجة الى العلم فكثر عدد المدارس عندنا ولـكننا اسرفنا في النفقات على تعليم اولادنا لاننا لم نبق لهم رأس مال يستعينون به بعد خروجهم من المدرسة بل لم نبق لنا أعني الادباء رأس مال نستعين به على تحصيل مقتضيات العيش لا مالاً في الجيوب ولا أملاكا تستثمر حتى باع البعض في سبيل ذلك او رهنوا بيوت سكنهم وأي إسراف فوق هذا الاسراف. كثرت أجور صُنّاعنا فصارت ضعف ما كانت عليه أولا ولـكن لم يجد علينا ذلك لان صناعنا اسرفوا في نفقاتهم على طعامهم وشرابهم وكسوتهم حتى أصبحت هذه اما تعادل أجورهم او تزيد عليها . فترى الشاب منهم ينفق جزافاً على طعامه ولباسه ودخانه وشم هوائه كانما هو من اصحاب الاموال الـكبيرة فيأتي آخر الشهر او آخر السنة فاذا هو لم يذخر في كل سنته شيئاً رأس مال يستعين به على تحسين حاله بل كثيرون منهم يبقون عليهم ديوناً يماطلون بها

وليس الشاب المستخدم بارقى حالا من الشاب الصانع لانك ترى احد هؤلاء في لباسه ونفقات طعامه وجيبه وترى مخدومه فلا يظهر لك من نفقاتهما ايهما الخادم وايهما المخدوم بل قد تظن الخادم مخدوماً احياناً . واذا حادثت احد هؤلاء فذكر لك ما ينفق على طعامه وشرابه وكسوته ونوع الدخان الذي يدخنه ومقدار ما يدخنه في اليوم او ذكر لك ما انفق على شم هوائه مع اصحابه (وقد لا يكون مبالغاً) ظننته يأخذ من الاجر ثلاث مرات او اربع مرات ما يأخذه حقيقة . وما هي نتيجة كل ذلك ؟ انه يقضي ايام شبابه مفلسا وربما يموت كذلك . واما ابناء المدارس واسرافهم في النفقات على لباسهم وجيوبهم فامره اشهر من ان يذكر ولقد اصبحوا مضرب مثل في الاسراف والتبذير وهم لا يفطنون

وعلى ذكر الطلبة اراني مضطراً الى ذكر المعلمين اي خدمة العلم ومربي العقول ومهذبي الاخلاق ومثال الحكمة والروية ولـكن كيف نجد هؤلاء الافاضل أأقل اسرافاً

هم من الطلبة؟ انا لا استطيع ان اجيب بالايجاب بل اقول بكل اسف انهم — وان كنت لاتجد في المئة منهم عشرة ينام احدهم مطمئنا في انه اذا توقف عن العمل شهراً واحداً لايحتاج الى مساعدة الآخرين — هم مع ذلك مسرفون يتطلعون الى التأنق في الملابس والمآكل والمظاهرات الخارجية كان احدهم رب الالوف من الجنيهات وتظهر امرأته واولاده مثل مظهره ان لم يزيدوا عليه وندر ان يموت احدهم غير فقير ويترك اولاده غير عالة

دعونا من المعلمين والطلبة واصحاب الحرف والمستخدمين بل دعونا من الطبقة الوسطى من اهل الصون والسترة عن آخرها . مساكين جميع هؤلاء فأنهم يبدأون بالحياة ولارأس مال معهم ويموتون وأكثرهم لا يتركون شيئاً الا الدين وان كان جزئياً واولاداً في الغالب عالة على ذوي قرباهم . ولنأت الى اصحاب الاملاك والعقارات فان هؤلاء زادت املاكهم وعقاراتهم وزادت مداخيلهم ايضاً ولكن ما ذا نفعت البلاد من تلك الزيادة وهم في نهاية شوطهم تراهم اصبحوا وقد اثقلتهم الديون حتى كادت تستغرق كل املاكهم ومقتنياتهم وما لذلك من سبب الا الاسراف في النفقات والخروج عن خطة الفطرة الى التقليد في كل شيء تقريباً ومباراة اصحاب الملايين في اوربا واميركا

بقي علينا التجار والصيارف وهم من تتسرب اليهم فضلات اموال البلاد او ما بقي من هذه الفضلات التي انفقها اهلها جزافاً على كل شيء اجنبي ماذا صار لهذه الاموال التي هي عمدة نجاح البلاد وعلى نسبة الموجود منها يكون حالها من القوة والضعف والتقدم والتأخر ؟ اباقية هي على ما كان ينبغي ان تكون ؟ وا أسفاه ان ما سلم من اسراف المتوسطين واصحاب الاملاك والعقارات لم يسلم من اسراف التجار والصيارفة الذين استغوتهم البورصة فاضاعوا فيها اغلب ما كان ينبغي ان يذخر في البلاد ويستخدم في انماء الزراعة والصناعة . هذا هو داؤنا اي الاسراف وهو السبب الاصلي في مسارعتنا الى الافلاس والخراب ونحن افراد

ولو نظرتم الينا من حيث اننا مجتمع وامة لرأيتم الاسراف قد بلغ فينا مبلغه لاننا كأمة قد ماتت نفوسنا واعتبارنا لنفوسنا فاصبحنا نحتقر كل ما هو وطني ونتصرف عنه ونعظم ما هو اجنبي ونقبل عليه وقد اسرفنا في الامرين كل الاسراف حتى امتنا صناعة البلاد والجأنا الصانع اما الى المهاجرة واما الى الخمول والموت فقراً . وشاهدي قريب فأني اسألكم رجالا ونساءاتلبسون ايها الرجال من منسوجات الشام وحمص وحماه والزوق ام تلبسن ايها السيدات من حرائر البلاد المنسوجة على انوال بيروت والشام وطرابلس

والاستانة ؟ ما اظن احداً منا يجيب بالايجاب بل بدأ كثير من متأنقينا على ما المنا ان يأمروا فتخاط أحذيتهم واثوابهم في باريس ولندن وغيرهما من المدن الغربية استكباراً لصناعة اولئك واحتقاراً لصناعتنا مع ان الفرق هنا مما لا يعتد به بين الصناعتين . وهذا منتهى الاسراف ومنتهى الصغار أيضاً وضعف النفس في الامة

ايها السادة والسيدات داؤنا الاسراف والتقليد الفارغ وهما السبب الاولى في تسارعنا الى الافلاس والخراب ولا يوقفنا عما نحن مسرعون اليه الا الاقتصاد وترك التشبه والتقليد فان لم تقتصد ايها الطالب في نفقاتك بقدر ما تستطيع افنيت رأس مال أبيك وتركته لا يستطيع ان يأتي بعمل بعد ذلك للقيام بنفقاته ونفقات بقية افراد عائلته وتركت نفسك بالضرورة ايضاً ولا خيرة لك الا المهاجرة والاغتراب حيث تصرف قوى عقلك ونشاط شبابك في غير بلادك وتخدم غير نفسك واهلك وانت لا تدري

ان لم تقتصد ايها المستخدم والصانع فى لباسك وطعامك ونفقات جيبك ليتأتى لك ان تذخر فى كل سنة شيئاً تعده رأس مال لمستقبلك بقيت طول عمرك مستخدماً وصانعاً واورثت لبنيك الفاقة والمذلة او اضطررت الى الاغتراب والمهاجرة . وهيهات ان تكون هناك أكثر من خادم او صانع تخدم غير ذويك وتستصنع لغير بلادك وأهلك

ان لم تقتصدوا يا أصحاب البيوت فى نفقاتكم من صغيرها الى كبيرها بقيتم على ما انتم عليه تعللون النفس بالاماني والاحلام الفارغة او تشكون الدهر وانتم تزجون العيش تزجية . واذا افضى احدكم لا سمح الله الى المذلة والفقر فلا نلومنّ الا أنفسنا على سوء تدبيرنا وعدم اقتصادنا

ان لم تقتصدوا يا أصحاب الاملاك والعقارات الكبيرة فلا تأمنوا مغبة الدين وان تنتقل أملاككم وعقاراتكم الى ايد غير ايديكم او غير ايدي بنيكم ولا تكون مع الايام الا يداً اجنبية اقدر على ادارة الاملاك واعرف بسبل الاقتصاد والارض لله يرثها النشيطون المقتصدون

ان لم تقتصدوا يا تجارنا وصيارفنا . ان لم تتوقوا أشراك البورصة وتهربوا منها هربكم من الافعى جررتم أنفسكم الى الافلاس العاجل وجررتم البلاد باسرها معكم الى الخراب والدمار . والخلاصة ان داءنا الاسراف ولا ينجينا من الافلاس والخراب المتسارعين اليه الا الاقتصاد وقد بذلت لكم نصحي وما أنصح الا نفسي وأهلي والسلام

انتقاد فتاة مصر

قبل ان ابدأ بانتقاد هذه الرواية البديعة في بابها اقول اني كنت اقرأ فتاة مصر كما كنت اقرأ بقية مقالات المقتطف الرائعة واعيد النظر فيها كما اعيد النظر في تلك فتأخذني نشوة من حسن اساليبها وما اودعهُ الكاتب في مطاويها من افكاره العمرانية وانتقاداته البديعة الفلسفية إن في ما يتعلق بأسباب الحرب الروسية العمرانية او في ما يتعلق بأحوال مصر الاجتماعية والزراعية او في ما يتعلق بالماليين وتأثيرهم في هيئة المدنية الحاضرة

والحق يقال اني كثيراً ما كنت اقدم قراءتها على قراءة بقية مقالات المقتطف لا لمجرد الفكاهة واللذة المرادة من كتابة اغلب الروايات بل لما كنت ارى فيها من الحقائق العمرانية والسياسية وما ترمي اليه من اصلاح الاخلاق والعادات والتعريض ببعض ما اضرَّ بنا من الاقبال على ما كان يشرف بنا على شفا جرف من الافلاس والخراب واشتدت غوايتنا به حتى عم اوكاد يعم غنينا وفقيرنا عالمنا وجاهلنا تاجرنا وصانعنا واعني بذلك مضاربات البورصة والتقحم فيها على الخراب ونحن لا نشعر

واقول ايضاً اني بعد ان قرأتها اجزاءً وقت صدورها عدت فقرأتها مجلدة مرتين فما زادتني قراءتها الا اعجاباً بها ويقيني انها من خير ما الف لتهذيب شباننا وانها اجدر كتاب حتى الآن يحسنُ بنا ان نضعه بين ايدي شباننا وطلبة مدارسنا يقرأونه اولاً لما فيها من حسن الاسلوب ودقة التعبير مضافاً الى ذلك فصاحة الالفاظ وبلاغة التراكيب وسلامة الذوق . وثانياً لما فيها من المرامي والمقاصد الحكميَّة والفلسفية العمرانية ولاسيما ما ينبغي تنبيه اذهان الشبان اليه من قوة المال والماليين وانه لا تقوى امة او تصير شيئاً مذكوراً ما لم يجتمع عندها بكد افرادها واقتصادهم رأس مال يعدونه لطوارق الحدثان يغالبون به بقية الامم ويزاحمونهم على موارد التجارة والانتفاع وينازعونهم بكثرة السطوة والوجاهة

فلا مجد في الدنيا لمن قلَّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلَّ مجده

وهنا اشكر لاستاذي الدكتور صروف واضع هذه الرواية لانه اجاب ملتمسي في طبعها على حدة لينتفع بها التلامذة خصوصاً وانها وفت بالغاية التي من اجلها التمست منهُ طبعها وحدها وهي الآن كتاب مطالعة لاكثر من ستين بل سبعين طالباً يتمرنون بمطالعتها على تطبيق قواعد النحو على ما يقرأونه ويتحدَّون اساليبها في الكتابة والانشاء وقد وفت بهذين الغرضين فضلاً عما يجده فيها الطلبة من الفوائد العمرانية والاخلاقية المقصودة رأساً من تأليفها

ولنرجع الآن بعد هذه الديباجة او التمهيد الى غرضنا الاصلي من الانتقاد عموماً وانتقاد هذه الرواية خصوصاً

أنواع الانتقاد

(اولاً الانتقاد النحوي)

واكثر كتابنا اذا انتقدوا وجهوا همهم الى هذا النوع من الانتقاد فاذا رأوا عرضاً المرفوع منصوباً او مجروراً او بالعكس اكثروا الصياح والجلبة على الكاتب فرموه بالجهل والفهاهة واكثروا من ذلك يهولون بعلمهم وفضلهم واتخذوا ذلك ذريعة للتنقّص من الكاتب والغضّ من كرامته والانحاء على علمه وفضله تهكماً واستخفافاً واولى بالمنتقدين منا ان يُقلعوا عن هذا الانتقاد التافه فانه ان دل على علم من جهةٍ فهو دليل على جهل من جهة اخرى . وسببه ان اكثر ما يقع من هذه الاغلاط انما يقع عن تسرع الكاتب وقلما يخل مع ذلك بفصاحة او بلاغة لان المعنى يكون ظاهراً ظهور الصبح حتى قلما يفطن له احد الا المتحري له بل ربما كان ما عُدَّ غلطاً لا يُعدُّ كذلك الا على مذهب مخصوص والعاقل يعلم ان علامات الاعراب في اللغة انما هي من قبيل الاناقة والمواضعة لا من قبيل الجوهر والحقيقة فمن ثمَّ قد لا يُعدُّ الاخلال بها اخلالاً يقضي على المخلّ بالجهل وعلى الناقد بالفضل بل كثيراً ما يكون الامر على عكس ذلك لان لسان حال الناقد المحتفل بهذه الاغلاط المعظم لها يشهد عليه ولا سيما اذا جرى على مذهب مخصوص انهُ حسب العرض جوهراً والآلة غاية وهذا هو الجهل بعينه . هذا ولو كان الاعراب امراً جوهرياً في الخطاب والكتاب لما سقط من العبرانية والسريانية خطاباً وكتابة وهما اختا العربية او اقله لما سقط معظمهُ من على السنتنا في كل البلاد العربية حتى من على السنة المشتغلين بالنحو لاشغل لهم سواه وقد فرغوا كل اوقاتهم لدرسه وتدريسه لا يعرفون سواه ولا يحفلون بغيره من بقية انواع العلوم

ولا يؤخذ من قولي هذا أن النحو علم لا ينفع وجهالة لا تضرُّ حاشا لي ان أقول ذلك وأنا من معلمي النحو والمشتغلين بدرسه وتدريسه منذ عشرين سنة ونيف بل أنا ممن يعتقدون ان علم النحو العربي قد يكون بفضل استاذٍ من أفضل انواع العلوم التي تدرس في المدارس العالية لتقوية قوى العقل في الشبان ولا سيما قوى الفهم والقياس والاستنتاج. وهو من هذا القبيل لو وُضع في كفة ميزان ووُضع في الكفة الاخرى علمان آخران — أي علمين كانا — المنطق والفلسفة — الجبر والهندسة — الكيميا والفاسفة الطبيعية

— الحيوان والنبات — التاريخ واللغة الخ — لرجحهما فهبطت كفته بسرعة الى الارض وشالت الاخرى الى السحاب. ولكني مع اعتقادي هذا لا أرى انتقاداً تافهاً على كتاب علم أو فلسفة اتفه من الاقتصار على انتقاد هذه الحركات والسكنات الاعرابية أوالتهويل بها كأن العلم كله في تحريها والجهل كله في الغفلة أحياناً عنها .أقول ما اقوله وانا أحمدالله ان فتاة مصر لا مجال فيها لهذا الانتقاد التافه فاني لم ألحظ أغلاطاً من هذا القبيل الاّ أن تكون غلطة مطبعية ظاهرة للعيون ظهور الشمس في رائعة النهار حاشا عين المتعنت المتحذلق في النحو ولا أذكر اني مررت على غلطة من هذا القبيل أو ما يضارعها الا في صفحة ٢٦ آخر الوجه فقد جاء فيه هنالك — أنا لا أطيق أتُلقي نفسك في أيدي هؤلاء اللصوص — والمرجح ان الكاتب أراد ان تُلقي نفسك — فسقطت النون في هذا الموضع غفلة من صفيف الاحرف أو تسرُّعاً من الكاتب ولم يشعر بذلك كما يحدث كثيراً مع كل كاتب على ما يُعلمُ بالاختبار (١)

(ثانياً الانتقاد البياني)

وهو أعلى شأناً واكثر فائدة من الانتقاد على مرفوع او منصوب أو مجزوم أو مبني على السكون او احدى الحركات . ومداره على التعقيد والالتباس فحيثما وُجد هذان فهنالك محلٌّ للنقد واما حيث البيان وظهور المراد على أتمها في المفردات والتراكيب فلا موضع له وان تمحل له موضع مع خلو الكلام مما ذكرنا من الالتباس والتعقيد فهنالك الخبط والجهل الفاضح (وان كانا لا يُعلمان عند كل الناس) وليس مرادي الآن ان أتغلغل في هذا الموضوع من النقد وبيان جميع مايدخل تحته فانه بحر واسع لاساحل له.واكثر الكتب الموضوعة في فن البيان مما يُطبق على موافقته لضوابطها او مخالفته لها غير مجرح فيها ولا توجيع ضوابطها الى اصول كلية لا مجال للاعتراض عليها ولذلك كان الذوق السليم أولى أن يحكّم غالباً دونها وهو اذا رجعنا اليه في انتقاد فتاة مصر رأيناها لا غبار عليها الا في مواضع قليلة جداً واكثرها من قبيل استعمال الفصيح مع وجود الافصح او ما يقارب ذلك . ومن هذه المواضع ما جاء في وجه ٤٠ ـ وانفضّ رأيهم على ان الخواجه لاڤي يدبر الامر بحكمته ـ أي وانفضّ مجلسهم فان الانفضاض في الاصل للمجلس لكن لحصول الرأي في ذلك المجلس نسب الانفضاض اليه . وهو من قبيل اقامة الحالّ في

---

(١) (المقتطف) لقد تحرينا انطاق الناس بما ينطقون به عادة فكلمة « انا لا اطيق » مقولة على هذه الصورة مقطوعة اي انا لا اطيق ما تفعل او ما يفعل والجملة بعدها استئنافية او ابتدائية ولو وضعت نقطة بعد كلمة اطيق لكان ذلك ادل على المراد

المكان مقام المكان ويمثلون له بقولهم ـ ونادى أصحابُ الجنةِ أصحابَ النار ـ أي جهنم لكن لما كانت الملابسة بين الرأي والجلاس اكثر بُعداً مما هي بين النار وجهنم في الآية التي يستشهد بها كانت لذلك عبارة فتاة مصر من قبيل استعمال الصحيح الفصيح دون الافصح . ومما يجري هذا المجرى ما جاء في صفحة ٤٣ حيث يقول — فكأنها أموال تقترضها الحكومة وتعطيها للاهالي رباً معتدل لا يستطيعون الاقتراض بهم — وكان الاولى على ما ارى لو قال — لا يستطيعون هم ان يقترضوها رباً مثله او رباً من مثله. وكذلك ما جاء في وجه ٥٦ — وحليمة اخت حليم بك من اجمل البنات التي وقعت عليهن عيني . ووجه ١٠٧ — كلاّ ولكنّ هنري نفسه اخذ مكتوبها وكتب لي حاشية فيه يقول فيها وتركيب العبارتين فصيح لا غبار عليه الا ان حسن الرصف يقضي بتأخير المجرور عن (عيني) في العبارة الاولى وتقديمه على (حاشية) في الثانية . ومع ذلك فالفرق بين العبارتين على اصلهما وبينهما على ما صارتا اليه زهيد جداً ولا سيما في العبارة الاولى. وربما وجدت مواضع اخرى من قبيل العبارتين اللتين ذكرناهما لم انتبه اليها ولكنها قليلة جداً وبالاجمال أقول ان الذوق السليم يشهد ان « فتاة مصر » جاءت من اولها الى آخرها كأنها النيل المبارك يجري مدلا بعظمته وجلالة قدره بين الجزيرة والجيزة في جوار القاهرة . واليك بعض شذرات منها

هنري — اذاً أنت تفكرين فيهم اما أنا فاني باذل جهدي لكي أنسى ما مضى فلا أستطيع ويخطر ببالي احياناً ان اعود من السويس ولكن السفينة تقوم صباح الاثنين ولا تقوم سفينة بعدها الى اليابان توًّا الا بعد اسبوعين ومهمتي تقضي عليَّ بالذهاب في هذه السفينة وقد ضاقت بي الحيل ولا اعلم كيف اعمل . أيجوز ان اضحي بعواطفي كلها لاجل عمل لا ينالني منه ربح مادي ولا ادبي . لماذا نذهب الى بلاد اليابان ؟ لخدمة الماليين لكي تكثر اموالهم اما جمهور الاهالي الفلاحين والمعدنين والصناع وهم التسعة الاعشار فلا يستفيدون شيئاً . والماليون ايضاً لا يستفيدون لان زيادة المال لا تزيد الراحة بل تزيد التعب. لورد بنشيلد تقدر ثروته بأكثر من ثلاثين مليوناً من الجنيهات ودخله اليومي بأكثر من ثلاثة آلاف جنيه وقد سمعت منه ان ما ينفقه على نفسه في مأكل ومشرب وملبس لا يزيد على ثلاثة جنيهات في اليوم يأكل في الصباح بيضة ويشرب كاساً من القهوة واللبن ويأكل الظهر قطعة من السمك وقطعة من اللحم وقليلاً من الخبز والخضر والفاكهة ونحو ذلك في المساء وان زاد بُلي بالتخمة ويلبس مثل ابسط الناس وما هو الا وكيل على امواله يهتمّ نهاراً وليلا بتشغيلها وتثميرها فلو بلغنا مبلغه من الثروة لزدنا طمعاً وتعباً . انظري

كيف نحن الآن مسخران لغيرنا. كيف دست قلبي وعواطفي وخرجت من بيت واصف بك وابنه على فراش الموت ولا امل ان اراه بعد الآن وبهية تبكي وتنوح ويكاد قلبها ينفطر حزناً عليه. تصوري نفسك مكانها وان مركبة الترامواي داستني فقتلتني او كادت ولك حبيب او صديق لابد له من ان يتركك في تلك الساعة تصوري نفسك مكانها

فاغرورقت عينا دورا بالدموع وقالت له اني اعرف ما يختلج في فؤادك وأؤكد لك ياهنري اني احب هذه الفتاة كما تحبها انت واني آسفة جداً لفراقها على هذه الصورة ويكاد قلبي ينفطر عليها وعلى امها ولكن الواجب أولى بالاتباع ونحن مرتبطان بهذا السفر ولا مناص لنا منه واذا بقينا في مصر لا نقدم ولا نؤخر ويقيني ان امين بك يقوم من هذه السقطة واظن اننا نجد تلغرافاً منهم في السويس يطمئنا عنه والا فلا بد لنا من ان نرسل تلغرافاً نسأل به عن صحته (فتاة مصر وجه ٥٢ — ٥٣)

اقرأ ايضاً وجه ٥٧ و٥٨ الى آخر السطر الثامن منه . ووجه ٦٦ و٦٧ الى آخر السطر السابع منه . ووجه ٧٠ الى السطر الخامس قبل الاخير . ووجه ١١٤ الى آخر كلام لادي برون وجه ١١٦

ولو اردت ان اشير الى كل كلام انيق معجب لبلاغته او للحكمة المودعة فيه او للحقائق العمرانية الواقعة فعلا ونحن في غفلة عنها لأشرت الى اكثر من ثلثي هذه الرواية البديعة ولا اراني مبالغاً

(ثالثاً الانتقاد اللغوي)

وكثيرون من منتقدينا يأتون في هذا النوع من الانتقاد بالمبكيات المضحكات ولا احاشي جلة من اكابر علمائنا وكتابنا معاً . والغريب ان بعضهم يكاد ينكر القياس فلا يجيز في الاستعمال الا ما نص عليه في كتب امهات اللغة فان لم ينص الصحاح او الفيروز ابادي او لسان العرب على احتار مثلا يؤاخذون من يستعملها ولو تابع في استعمالها كثيرين من اكابر الشعراء والفقهاء . وكاد العلامة السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار المشهورة يهوي في مهواة هؤلاء الاقوام فانه على سعة علمه لم يرقه على ما يظهر استعمال بعضهم « احتار » مع معرفته ان قد استعملها قبله الامام ابن الفارض المشهور . وبعض غيره من اكابر الفقهاء كصاحب الكتاب المسمى برد المحتار على الدر المختار . وكنت أعجب من تضييق هاته الفئة كل هذا التضييق وما الذي يعتمدونه في الاخذ بهذه الخطة التي اخذت بخناق الكتبة والمؤلفين وخالفت مبدأ لغة هي من اشهر لغات العالم باعتمادها على القياس وبمناسبة اوضاعها له في هذه الحركات والسكنات الاعرابية الى ان وقفت على ما كتبه العلامة

الفيلسوف الامام الغزالي في الرد على المشبّهة والحشوية في كتابهِ إلجام العوام فترجح لي ان كلام الامام هناك استهوى القوم فقاسوا عليه لكن حيث لا يصح القياس لوجود الفارق فأدى قياسهم لسوءِ الطالع الى ما كاد يبطل القياس في الفاظ اللغة حيث تمس الحاجة الى القياس وحيث لا مانع يمنع منهُ عقلا او نقلا وبيان ذلك

انهُ ورد في الكتاب والسنة الفاظ في حق الباري سبحانه وتعالى توهم الجسمية كاليد والعين والاستواء والنزول وغير ذلك مما اخذها الحشوية دليلا على التجسيم واستغووا بها العامة وبعض الخاصة بزعمهم ان ذلك مذهب السلف فتصدى الامام للرد عليهم واليك بعض كلامهِ قال : وحقيقة مذهب السلف ان كل من بلغه حديث من هذه الاحاديث من عوام الخلق يجب عليه فيهِ سبعة امور (١) التقديس (٢) التصديق (٣) الاعتراف بالعجز (٤) السكوت (٥) الامساك (٦) الكف (٧) التسليم . ثم فسر الامساك بما نصه بالحرف الواحد قال :واما الامساك فان لا يتصرف في تلك الالفاظ بالتصريف والتبديل بلغة أخرى والزيادة فيهِ والنقصان منهُ والجمع والتفريق بل لا ينطق الا بذلك اللفظ وعلى ذلك الوجه من الايراد والاعراب والتصريف والصيغة

ثم افاض الامام في هذا الموضوع بما هو غاية في بابه وحري بكل عالم من علماء الكلام عند المسلمين وبكل عالم من علماء اللاهوت عند المسيحيين ان يقف عليه فانهُ مما تتطاول اليه الاعناق وتطمح الى مثله الابصار في كل زمان ومكان . ولا يبعد عندي ان علو طبقة كلام الامام الغزالي في هذا المقام الكلامي التنزيهي هو الذي استهوى اهل هذه الفئة التي اشرنا اليها فعمّموا الامساك في كل الفاظ اللغة مع ان الامام خصه ببعض الفاظ منها وردت في القرآن وفي بعض الاحاديث مما يوهم التجسيم وبذلك حظروا على الكتبة والمتكلمين استعمال القياس حيث لا محظور من استعماله فابطلوا القياس بالقياس فيا للغرابة ويا للفهم والنظر الصحيحين

والغريب ان بعضاً من اهل هذه الفئة يتسامحون في القياس الا انهم يتأبّون كل لفظ قاستهُ العامة او استعملتهُ على سبيل الكناية او المجاز مع ان مسوغ القياس والمجاز هو من الظهور حتى لم يخفَ على هؤلاءِ وربما استعملوا بدلاً من ذلك اللفظ لفظاً آخر هو في الاصل قياس او مجاز من ذلك خابرهُ في مسألة كذا او تخابروا فانهم لا يسوّغون استعمال هذه اللفظة ويعدلون عنها الى نابأهُ في مسألة كذا وتنابأوا مع ان هذه الاخيرة مأخوذة من النبإِ والاولى من الخبر . والنبأ والخبر بمعنى واحد الاَّ انَّ الخبر اعرف واعم واشهر . وكذلك يأبون استعمال تكاتفوا على كذا من الكتف ولا يرون انها كتظاهروا من الظهر

على حين ان وضعَ الكتف للكتف في التعاون اقرب للفهم لانهُ اكثر مشاهدة من وضع الظهر للظهر . وبعضهم يرون استعمال التوفير من الكبائر ليس الاَّ لانَّ العامَّة تستعملهُ بالمعنى الذي يراد استعماله او وضعهُ له . وبعضهم يشدّد النكير على عائلة الرجل بالمعنى الذي تستعمله العامَّة مع انها « كعاقلة الرجل »من عال عيالهُ كفاهم معاشهم ومأنهم او من عال الشيء فلاناً اهمَّهُ ومفادها بالقياس على عاقلة الرجل انهم الجماعة الذين يهمُّونهُ ولا اوضح من الكناية بها على نفس المعنى الذى يراد في الاستعمال الدارج . ومثل ذلك تشديدهم على الدارج . والخارج . والخارق . اذا استعملت بالمعاني التي تستعمل لها في الدارج . كل هذا غفلة عن النظر الصحيح وقد جرَّاليهِ ماسهوى القوم من القواعد الموضوعة لتنزيه الباري تعالى عن الجسميَّة على ما المعنا اليهِ . فيا لله . متى نعْدل عن هذا التحرُّج الذي يقضي العقل والنقل بتركهِ

و لايسعني المقام الآ ن ان اخوض في هذا البحث الى نهايتهِ وربما عدت اليهِ في وقت آخر اذا فسح لي المقتطف الاغرّ مجالاً بين صفحاتهِ (١) ولنرجع الى فتاة مصر فاقول ان الكاتب قال في صفحة ٧١ آخر الوجه — ولكن الرجل الغنيّ المطموع فيهِ يتناتشهُ الناس من كل جهة ـ فان كان مبدأ الفئة التي اشرنا اليها صحيحاً كانت لفظة ـ يتناتشهُ ـ فيها شيء من العاميَّة وعندي ان هذه العاميَّة هي في منتهى الفصاحة ويا ليت الكاتب جاء في روايتهِ بمئات من امثال هذه اللفظة فانها لم تخرج عن القياس الواضح الذي لم يتغيَّب حتى عن العامَّة

(رابعاً الانتقاد على الرواية)

كأن يستشهد الكاتب ببيت من المنظوم او بفقرة من المنثور فينسبها الى غير قائلها او يورد فيها روايةً اخرى غير المشهور فيتذرَّع المنتقد بما ورد من الخطاء الظاهر او الحقيقي الى التنقُّص من الكاتب والتهويل بما ارتكبهُ من الخطاء . وقد يكون كل ذلك مما لا طائل تحتهُ بالنظر الى غرض الكاتب . وقد ورد من هذا القبيل في فتاة مصر وجه ١٧٦

فقد تقلب الايام حالاتُ اهلها ... وتعدو على اسد الرجال الثعالبُ

وفى البيت رواية اخرى وهي (٢) ... وتعدو على اسد الدحال الثعالب

---

(١) (المقتطف) على الرحب والسعة فان المبتدئين بالكتابة لعلى غاية الاحتياج الى من يشدد عزائمهم ويسهل عليهم السير في سبيل القياس

(٢) المقتطف. ما ذكرناه ليس رواية اخرى بل تصحيف في الطبع لم ينتبه له وقت تصحيح المسودات فنشكر فضل المنتقد على تنبيهنا اليه

وارجح انها الرواية الصحيحة ولكني لا ارى هذا التصحيح يزيدني فضلا او علماً كما انه لا ينقص كذلك من قيمة الرواية او من علم الكاتب وفضله

وبالاجمال ان كلا من الانتقادين في اللغة وفي الرواية ولاسيما الاول قد يكون تافهاً وقد يكون معتبراً . اما المعتبر فهو الانتقاد على الالفاظ القلقة في مواضعها وهناك الفاظ ارسخ منها واشد استحكاماً في مواضعها يمكن ان توضع بدلا منها.اوتكون الفاظاً مترادفة لا يعرف الكاتب الفرق بينها في اصل الوضع فيظن ان المجاز المستعمل في الواحدة منها يصح في صاحبتها فيخطىء الغرض ويفوته بذلك طلاوة الكلام وحسن وقعه في النفس واما هذا الانتقاد على الالفاظ لانها مقاسة مع ظهور دلالتها على معناها ولا ظهور الصباح او لانها مما تستعملها العامة مع انها في مواضعها مما لا تقوم لفظة مقامها وهي مع ذلك جارية على مجاري القياس في الاشتقاق والمجاز لا خلل فيها من هذا القبيل الا انها غير واردة في امهات اللغة المتداولة فمن الانتقاد الجدير بنا الاقلاع عنه وان اسفَّ اليه قوم لهم شأن ومكانة في عالم اللغة والادب

(خامساً الانتقاد المعنوي او الحقيقي)

وهو الانتقاد المعول عليه وبه يتنافس العلماء والفضلاء . والمقصود منه تجريح ما في الكتاب المنتقد وبيان مواضع الخطاء فيه ان وجدت والا فبيان محاسنه ومافيه من المواضيع المهمة النافعة للقراء . ومدار هذا النقد على موضوع الكتاب فان كان كتاباً تاريخياً مثلا فتجريح النقول فيه وبيان ما اذا كانت مما يعول او مما لا يعول عليها من جهة وما اذا كانت مستوفاة من جهة اخرى . ثم بيان ما اذا كان المستنتج من هذه النقول جارياً على مقتضى الاستنتاج العقلي الصحيح او ملويًّا به عنه

وهكذا يقال في ما اذا كان موضوعه ادبياً او عقلياً او علمياً او سياسياً فانه ينظر اولا الى تمحيص الحقائق والمبادىء ثم ينظر ثانياً في تمحيص المستنتجات من تلك الحقائق وقد لا تقل احياناً فائدة هذا الانتقاد اذا كان مستوفى عن فائدة الكتاب المنتقد ويظهر فيه مقدار علم الكاتبين المنقد والمُنْتَقِد عليه وفضلهما . ولا تكون نتيجة مثل هذا الانتقاد الا تنوير البصائر وتوسيع نطاق الحقائق ومايترتَّب على ذلك من الفائدة علماً وعملا

موضوع فتاة مصر وابحاثها

موضوعها او الغاية منها فكاهي تهذيبي وابحاثها اجتماعية عمرانية.أما الفكاهة فيها فاحكم ان الكاتب وفاها حقها من تشوق القراء الى الرواية وحديثهم فيها والذى اعرفه في هذا

الصدد انما اعرفه من نفسي واهل بيتي وبعض اصدقائي الذين يقرأون المقتطف وهؤلاء كلهم كانوا اذا تأخر عنهم المقتطف يوماً خالوه اسبوعاً ومعظمهم على ما اعلم كانوا يبادرون حين وصوله اليهم قراءة فتاة مصر. وقد لحظت ممن اشرت اليهم جميعهم ان غضبهم على عزرا كان شديداً وبلغ استياؤهم مبلغهُ عند ما قرأوا الفصل الثامن والعشرين والثلاثين الاول في التهييج والثاني في المرافعة واشتمُّوا منهما نجاة عزرا من الحكم عليه فلما ظهرت الحقيقة سري عنهم وبدت عليهم امارات الرضى والابتهاج

واما الغاية التهذيبية ففي وصف امرأة الخواجه لاڤي وامرأة واصف بك وابنتهما وحليمة ودورا ما يفي بها. فان كل ما وصف به هؤلاء السيدات او اسند اليهن من الاقوال والافعال كان غاية في بابه في انه يرفع النفس في النساء الفتيات وربات البيوت ويحبب اليهن الفضيلة والتعقل والطهارة وسلامة النية المقرونة بالفهم وصحة النظر ورغبتهن في كل ذلك وكل ما قيل عن امين بك وما اصابه واصاب اهله واصحابهم من الغم والحزن هو مما يكره بالبورصة وامثالها من المضاربات التي استغوت كهولنا وشباننا . وهنا اذكر اني بعثت بهذه الرواية الى ابني في مدرسة الشوير فقرأها ولما رأيته في مسامحة عيد الفصح رأيت انه اثر فيه جداً ما قيل عن امين مما كره اليه البورصة وبدا لي منه ما يشف عن شدة احتقاره لها ولمن يتطوع جهلا في اشغالها مع انه لا يتم الثانية عشر من عمره قبل يونيو القادم . ولا اقول واقل ما استفاده (وهو من اعظم الفائدة) انه تولد فيه مَقت ونفور شديد من هذه المغواة الجهنمية التي ذهبت باموال الكثير من تجارنا وابناء الاغنياء والكبراء منا

وكل ما قيل عن هنري برون هو في بابه خير للشبان والطلبة من عشرين خطاباً موضوعها في الجد وعلو الهمة والتجافي عن البذخ والاسراف وانصراف النفس الى المعالي وبذلها في الواجب وخدمة البلاد والامة والحكومة

واما بقية الاغراض العمرانية من قوة المال والماليين واسباب الثورة الروسية فيكفي الفهيم اللبيب ما اودعه الكاتب فيها من الحقائق والمباحث الدقيقة مما هو غاية في بابه. وليس لي شيء اقوله في انتقاد هذا الموضوع الا تحفظ الكاتب وهو ما يتطلبه العلم وحنكة السن وخير للكاتب ان يعرف القارئ ما يريد ان يقوله من غير ان يقوله. الا اني لا انكر ميلي الى تجريح ما جاء به الكاتب في صدد الكلام عن مبدإ تنازع البقاء وبقاء الانسب الا اني بعد طول الفكرة وجدت نفسي لا اقوى بعبارتي على تصحيح ما قيل في هذا الباب الفلسفي الواسع الاطراف وان كنت اشعر بنفسي اني اقوى على ادراك ان هناك خطأ وشيئاً يقتضي التجريح

والخلاصة ان هذه الرواية بديعة في بابها واسلوبها البلاغي وابحاثها والذي اعتقده انه

لم ينسج بعد احسن منها ولا مثلها وقد خلت من كل تضليل تاريخي يمكن ان يقع في الروايات التاريخية ووقع شيء في رواية قلب الاسد وماهو على شاكلتها من الروايات كما انها خلت ايضاً مما قد لا تخلو منه رواية فكاهية مما يحرك النفس الشهوانية اوعاطفة الحب الطبيعي بما يضر الشبان والشابات ويدفعهم الى ما وراء الحد الذي لا يحمد اندفاعهم اليه . وغاية ما اقوله في هذا الصدد اني لا اخشى مغبة من قراءتها على تلميذ او على ابني او ابنتي او او جزى الله مؤلفها خيراً ولا اقول ما اقول تقرباً من كاتبها فانه استاذي بكل ما تحمله هذه اللفظة من المعنى الحقيقي للاستاذ وانا تلميذه بكل ما يجب ان تتضمنه لفظة تلميذ من المحبة والاعتبار . وليس بين الاستاذ والتلميذ اذا كانا على هذه الصورة ما يسوغ ان يتوهم فيه انه من قبيل التقرب ومجرد حب الزلفى بوجه من الوجوه والسلام

مهد الجنس السامي

خطبة تليت في صيدا ٢٨ حزيران (يونيو) ١٩٠٧ في حفلة مدرسة الفنون الاميركانية السنوية لاعطاء شهاداتها لتلامذتها المنتهين

ايها السادة والسيدات الكرام . لا اعتذر في موقفي هـذا عن اني اتخذت هذا الموضوع دون غيره من بقية المواضيع وهي كثيرة لانه موضوع ساقني اليه والى البحث فيه حرفتي الخصوصية فان من درَّس النحو العربي في المدرسة الكلية نحواً من خمس عشرة سنة متواليات واضطر الى قراءة آداب هذه اللغة سنين عديدة قياماً بفروض حرفته وايفاء وظيفته حقها لا بد له اذا خير من ان يختار الكلام في موضوع شبيه بموضوعي او في ما يقاربه. بل اعتقد انني وفقت في انتقاء الموضوع لا احساناً مني بل حسنة كانت من السادة والسيدات الذين يسمعون اراد الله ان يكافئهم عليها من حيث لا يشعرون ليعلموا ان جزاء الحسنة لا يضيع عندهُ تعالى . والاَّ فما كان يمنعني وقد تُرك لي ان انتقي الموضوع لنفسي من اني كنت اخذت علم النحو وفائدتهُ وتاريخهُ وتاريخ الذين اشتغلوا بهِ حتى وصل الى ما وصل اليهِ في حالتهِ الحاضرة او علم البيان ومنافعهُ وتاريخ الذين الَّفوا فيهِ كذلك .ولو فعلت ذلك فكيف كانت حالتكم ايها الكرام في اثناءِ هذه المدة التي لا خيار لكم فيها الاَّ ان تسمعوا وتصغوا احتراماً للموقف العلمي الادبي الذي دعاكم الى احياء هذه الليلة الشائقة — الله اعلم ماذا كانت حالتكم ! اذن اكدوا ايها السادة والسيدات الكرام انكم مجازون عن حسنة او حسناتٍ صدرت منكم فيما سبق وكان الجزاء اني صُرفتُ عن الكلام في اسهل ما يمكنني الكلام فيهِ وفقاً لما تقتضيهِ حرفتي الخصوصية على ما الحت اليهِ

قلت ايها السادة اني اخترت الكلام عن موضوع لهُ مساس بموضوع حرفتي على انهُ مع قربهِ منها بحسب الظاهر فهو بعيد عنها بعد ما بيننا وبين قلب البلاد العربية مأرب اونجران في بلاد اليمن وشباي او ساوي في حضرموت ورياض ارسدوس في نجد اذا قصد الوصول الى هذه الاماكن او بعضها براً عن طريق تيماء والحجاز : واي قرب بين النحو والبيان وما اليهما من العلوم العربية من حيث هي علوم آلية وبين مهد الامم السامية ؟ بل عند التحقيق اكثر مما صورناه بالبعد المكاني المحسوس . ولو علمتم ايها السادة ما عانيتهُ من البحث والتنقيب في الآونة المتأخرة وما بذلته من الفكرة والسهر ليلاً والاستيقاظ باكراً الى متابعة درس هذا الموضوع نهاراً لقلتم جادك الله ولرأيتم اني استحق شيئاً من انتباهكم وتوجه اصغائكم اليَّ من غير ملل الى ان اكون قد فرغت من تلاوة ما كتبتهُ

عليكم . والمرجح عندي اني ساحظى بهذا الفضل والمجاملة منكم

تعلمون ايها السادة ان سوريا وطننا العزيز عموماً وصيدا اقدم مدن هذا الوطن خصوصاً كانت منذ الوف من السنين ولا تزال لحد هذه الساعة تتكلم بفرع من اللغة السيامة وبعبارة اخرى كان يقطنها شعب من الجنس السامي يتكلم باللغة السامية . ومثل صيدا صور وعكا وحيفا ويافا وغزة وعسقلان وبيروت وجبيل وطرابلس وارواد وعكار وحمص ودمشق وسائر مدن سوريا الى ان نصل الفرات ودجلة. بل على شواطىء هذين النهرين العظيمين قامت اشهر ممالك الازمنة الغابرة مملكتي بابل واشور . وكان الشعب السائد والمسلط حينئذ في كل هذه الاقطار سامياً او يتكلم باللغة السامية . ومن سواحل هذه المدينة اعني صيدا العريقة في القدم ومن سواحل صور العظيمة جاءت جاليات استعمرت سواحل هذا البحر العظيم — البحر المتوسط — شمالاً وجنوباً في اوروبا وافريقيا وحملت الى تلك الاصقاع التجارة والصناعة والدين والآداب والعلم وكل ما يحمله الغرب الآن الى قلب افريقيا واستراليا وجزائر الباسيفيك ان لم اقل الى قلب اسيا والاصقاع النائية منها . وكل هذه الجاليات كانت سامية او تتكلم باللغة السامية . فمن اين جاءت هذه الشعوب العظيمة القديمة واين كان مهدها الذي نشأت وترعرعت فيه الى ان شبت وبلغت وهاجرت واستعمرت . وبعبارة اخرى اين كان المهد الذي نشأنا فيه نحن بقية اولئك الشعوب القديمة العريقة في الدين والتمدن والعلوم والصنائع والمهاجرة والاستعمار وما الى ذلك من ظواهر العز والمنعة والتغلب التي هي من دلائل التفوّق والارتقاء في العقل وايضاً في الهمة والاقدام اللذين ما بعدهما همة ولا اقدام

مضى على العالم قبل تاريخنا المسيحي خمسة وعشرون قرناً وصلت الينا اخبارها كتابةً وآثاراً وما سوى ذلك قرون لا يعلم عدتها الاّ الله وليس في العالم المعروف حينئذٍ اعني اوربا وافريقيا والشرق الادنى تجارة الاّ وهي في يد هذا الشعب الذي يتكلم باللغات السامية ولا مهاجرة او استعمار الا والمهاجر والمستعمر جاليات منهُ ولا صناعة ولا زراعة راقية الا ان يكون هو الصانع والزارع بل لم تكن صولة الا صولتهُ ولا تمدن الا تمدنهُ ولا علم ولا آداب الا في شعوبهِ وقبائلهِ كما تشهد آثاره الخالدة الباقية الى الآن وستبقى دليلا على عظمة هذه الامم وشاهداً عدلا ينطق عنها ويشهد بما كان لها من الحيطة والوصاية والولاية على التمدن القديم فضلاً عن التأثير العظيم الذي أثرته فيهِ رأساً ومباشرة ومن بعضهِ ما تركتهُ لنا يد الدهر اثراً بعد اهلهِ في خرائب بابل واشور واليمن وفي مصر ايضاً والشام . واغلبكم ايها السادة والسيدات الذين تسمعون كلماتي هذه الليلة من بقايا اولئك

الاقوام الذين كان من صفتهم ما قد سمعتم ولا يزال فيكم على ما اعتقد عروق تنبض من همتهم واقدامهم وتفوقهم . أفما يهمكم اذن او على الاقل اما يجتذب سمعكم واصغاءكم الـكلام او البحث في المهد الذي نشأ فيهِ آباؤكم الاولون والمواطن الاولى التي تفرقوا منها تجاراً ومستعمرين وغزاةً فاتحين . بلى انهُ يهمكم ذلك والا فانتم براء من اولئك الاقوام وبراء مما كان فيهم من الهمة والاقدام واقل ما يقال فيكم انهُ ينقصكم التشوف الى بلوغ بعض ما كان لهم من التفوق والارتقاء في مراقي العز والشرف . ولـكن يأبى الله والواقع ان يتوجه اليكم شيء من هذه التهمة الشنعاء فاسمعوني اذن سمع الله لـكم وانتهوا الى سلسلة ابحاثي انتبه اليكم طرف الدهر الراقد عنهِ وكرمهِ ان شاء الله

لا يسعني الوقت ان اذكر لـكم المذاهب التي ذهب الى كلٍّ منها فريق من اكابر علماء الآثار في الوقت الحاضر فاني لو فعلت ذلك لاقتضاني الامر ان اخطب فيهِ سبعة ايام متوالية كل يوم نصف ساعة على الاقل وهذا مما لا تقوون على احتمالهِ ولا اقوى انا ايضاً على القيام بهِ فيما لو اردتهُ . المحت سابقاً الى الشعوب التي تركت ما تركت من الآثار العظيمة في ممالك بابل واشور وان هذه الشعوب كانت تتكلم فرعاً من اللغة السامية واقول هنا ايضاً ان الآثار تدل دلالة صريحة أن قد كان في تلك البقعة امم اخرى سبقوهم الى عمارة تلك البلاد منهم أمة السومريين وكانت لغة هـؤلاء الاقوام السابقين لغة اخرى بعيدة كل البعد عن اللغة الساميّـة وكذلك كانت عوائدهم واخلاقهم وآدابهم . وهؤلاء الذين تغلبوا عليهم جاؤوا البلاد فاتحين وبنوا على انقاض تمدنهم ذلك التمدن السامي العظيم الباقية آثارهُ الى اليوم . فمن اين جاء هؤلاء الفاتحون . لا يمكن ان يكونوا قد جاؤوا من شرقي الفرات ودجلة ولا من شرقي خليج فارس ولا من شمالي هذه المواضع لاننا لا نعلم ولا هنالك آثار على الاطلاق تدل انهُ كان في تلك الاصقاع المذكورة شعب سامي بل كانت البلاد ولا تزال يسكنها الماديون القدماء والفرس ومن سواهم من امم الاكراد والتركمان او من قاربهم من فصائلهم وشعوبهم . وعليه فانّ هؤلاء الغزاة الفاتحين الساميين او الذين يتكلمون اللغة السامية لم يأتوا الى بلاد ما بين النهرين من الجهات التي ذكرناها

وكذلك يقال انهم لم يأتوها من اسيا الصغرى وشطوط البحر الاسود ولا من البلاد التي تتاخمهما لان لغات اهل هذه الاصقاع واخلاقهم وعوائدهم وآدابهم وتمدنهم بعيدة كل البعد عن لغة واخلاق وعوائد وآداب وتمدن اهل بابل واشور المتكلمين باللغة السامية والناشرين لواء التمدن السامي واخلاق اهلهِ وعوائدهم وآدابهم وانواع دياناتهم . فلم يبقَ لنا اذن الآن الا القول انهم جاؤوا من جهـة الجنوب اعني البلاد العربيّـة . فالبلاد

العربية هي اذن مواطن الاشوريين والبابليين الاولى والمهد الذي نشأوا فيه قبل ان قدموا غزاة وفاتحين الى بلاد ما بين النهرين وهي البلاد التي تركوا لنا فيها آثارهم الخالدة وآداب لغتهم السامية مكتوبة على اوراق من الاجر . لغة ما زالت لغة التجارة والادب والعلم والدولة في العراقين والشام ومصر اجيالا بعد انقراض دولتهم واستيلاء دولة الفرس الاولى على هذه الاصقاع والممالك بل كانت لغتهم هذه لغة لدولة الفرس الرسمية حتى في آسيا الصغرى حيث كان للغة اليونانية والآداب اليونانية ما كان من النفوذ والانتشار

اذا حولنا نظرنا عن شعوب ما بين النهرين الى الشعوب او الفصائل التي استعمرت بلادنا هذه من شمالها الى جنوبها ومن غربها على ساحل المتوسط الى بادية السماوة والحجاز رأينا لغة تلك الشعوب عن آخرهم لغة سامية بحتة . اما العمالقة في الجنوب ومن على شاكلتهم من الشعوب المتاخمة العربية فقلما يشك في انهم جاؤوا رأساً من البلاد العربية . والعقل هنا يتفق مع النقل فان مؤرخي العرب اجمعوا عن آخرهم ان عمالقة الشام القدماء جاؤوا اليها عن طريق الحجاز . واما العبرانيون واخوتهم الادميون وابناء عمهم العمونيون والموابيون فرحلوا الى سوريا في عصر متأخر مما بين النهرين ومثلهم ارامييو دمشق ايضاً فانهم وان كانوا قد سبقوا العبرانيين الى الرحلة والاستيطان في داخلية البلاد لا يخرجون عن انهم مثلهم اي من قح الساميين ولذلك فمواطن آبائهم الاولى كانت البلاد العربية ومنها رجعوا الى ما بين النهرين وبعد استيطانهم هناك مدة لا نعلم مقدارها عادوا الى الرحلة فانتهت بهم الى سوريا ولا شك انه كان يضاف اليهم من حين الى آخر شراذم من قلب البلاد العربية ومن شماليها يرحلون اما تجاراً او على قصد النجعة اولا فتطيب لهم البلاد ويزمعون على الاقامة فيها . وليس هذا بالامر المستغرب الذي لا يقبله العقل ولا هو بالنادر الذي لم يسمع بمثله او لم يتكرر في الايام بل قد تكرر مراراً . ولنا شواهد كثيرة نبدأ باقربها من زماننا الحاضر . من ذلك ماكان اوائل عهد المسيحية فان الغسانيين هاجروا الى الشام من اليمن وبعد كثير من الحل والترحال القوا عصا الاقامة في الشام وحوران واتصلت مواطنهم من هناك الى الفرات شمالا . وكان رحل من قبلهم ايضاً السليحيون والضجاعمة والتنوخيون والقوا عصا اقامتهم بالشام وفلسطين شرقي البحر الميت وجنوبيه . ومن قبل ذلك ايام عزرا ونحميا كان جشم العربي يناصر طوبيا العموني وسنبلط الحوراني على اليهود في اورشليم . ومن قبل ذلك في اثناء غزوات نبوخذ نصر ملك بابل كان ارميا النبي يتنبأ عن هلاك قيدار وبني المشرق الامة التي لا مصاريع ولا عوارض لها وتسكن وحدها . الامة الكثيرة الجمال والماشية المقصوصة الشعر مستديراً . اوصاف تدل على ان

ارميا النبي كان عارفاً بالعرب كما نعرف نحن الآن اهل اورشليم او اهل السلط ان لم يكن اكثر من ذلك. ومن قبل ارميا باجيال في ايام ايليا النبي اهاج الرب على يهورام ملك يهوذا صهر آخاب ملك اسرائيل روح الفلسطينيين والعرب الذين بجانب الكوشيين فصعدوا الى يهوذا وافتتحوا وسلبوا كل الاموال الموجودة في بيت الملك . وقبل ذلك ايضاً في ايام سليمان كان شعراء اسرائيل يعرفون خيام قيدار ويشبهون بها في اشعارهم . بل في ايام شاول كان العمالقة وبنوا المشرق متاخمين لاسرائيل . واقدم من ذلك بكثير اعني في ايام جدعون كان ذبح وصلمناع وغراب وذئب ملكين من ملوك المديانيين والعمالقة وبني المشرق واميرين من امرائهم . وكان هؤلاء الاقوام يصعدون بمواشيهم وخيامهم ويجيئون كالجراد في الكثرة وليس لهم ولجمالهم عددٌ فيتلفون غلة الارض من حوران فنازلاً كل شرقي الاردن حتى تجيءَ الى غزة

بل مخالطة عرب بلاد العرب لسوريا يتصل عهدها بايام ابراهيم وما قبلهُ ايضاً فان اسمعيل بن ابراهيم سكن بينهم وكذلك اولادهُ من قطورة. وكانت طريق التجارة بين مصر والعراق من ذلك الحين وما قبلهُ في ايديهم. وحويلة التي يذكرها سفر التكوين في الكلام عن مواطن الاسماعيليين لا يبعد على ما ارى ان تكون بلد ابن الرشيد في جبل شمر المعروفة اليوم بحائل ولا تزال المشابهة بين الاسمين الاسم القديم والاسم الحالي واضحة جداً بحيث لا تخفى على متأمل . وقد ذكرت ما ذكرتهُ بياناً لشدَّة ما كان من المخالطة بين سوريا وبلاد العرب من اقدم الازمنة التاريخية لحد هذه الساعة مما يستدل منهُ على ان العربية ما زالت من اقدم الازمنة المعروفة ترمي بتموُّجات من بنيها حيناً بعد آخر على اطراف سوريا وانهُ وان يكن معظم شعوبها من الفرع السامي العراقي فقد كان كثير من بنيها ايضاً في ذلك الزمان من الفرع السامي العربي . ارجح ان الرفائيين في عشتاروث قرنايم والزوزيين في هام والايميين في شوى قريتايم والحوريين في جبلهم سعير الى بطمة فاران التي عند البرية والعمالقة في عين مشفاط التي هي قادش والاموريين في حصُّون تامار والعناقيين في حبرون كل هذه الفصائل كانت من الفرع السامي العربي . ولا يستبعد ذلك فان الدولة التي كانت تستولى على مصر في ايام ابرهيم وتعرف بالملوك الرعاة او الهكسوس كانت من الفرع السامي العربي وجاءت مصر عن طريق بلاد العرب . وهؤلاء القبائل والشعوب الكنعانية كانوا معاصرين لها والارجح انهم جاؤوا معها وحلوا في سوريا في اثناء الزمان الذي حلَّت فيهِ تلك الدولة بلاد وادي النيل ان لم يكن قبل ذلك « بسبع سنين »

ومن اغرب الاتفاقات التي عثرت عليها ان الاحبرون او الخليل اليوم على ما ذكرهُ

الاستاذ العلامة سايس كانت تسمى بلاد خبيري . وابن خلدون يقول نقلاً عن الطبري ما يفهم منهُ ان خبيري هو بطن من بطون عاد وان رئيسهم او احد امرائهم جلهمة ابن خبيري كان في جملة الوفد الذي ارسلهم قوم عاد الى مكة في دولتهم الاولى للاستسقاء لهم وكانوا قد احتبس عنهم المطر ثلاث سنين فجاء الوفد ونزل على معاوية ابن بكر العادي بداعي أن هزيلة اخت معاوية هذا كانت عند نعيم ابن هزال احد الوفد . وبعد ان اقاموا اشهراً في ضيافته انبعثوا ومضوا الى الاستسقاء وتخلف عنهم لقمان ابن عاد ومرثد ابن سعد . فلما رجعوا الى معاوية ابن بكر لقيهم خبر مهلك قومهم ومن جمائهم الخلجان ملكهم هلك بالريح فيمن هلك . قالوا كانت الريح من الشدة بحيث تقلع الشجر وترفع البيوت وكانت تدخل ايضاً تحت الرجل فتحملهُ الى الجبال وما زالت كذلك ثمانية ايام حسوماً حتى تقطع القوم وهلكوا عن آخرهم

واذا عارضنا هذا النقل بما ذكرهُ العلامة سايس ترجح معنا الحكم ان سكان حبرون الخبيريين هم قبيلة من القبائل العربية الجنوبية رحلوا في جملة من رحل للفتح ايام الدولة العادية الاولى واحتلوا حبرون وكانوا فيها معاصرين للملوك الرعاة وقد سبقوهم الى الاستيطان والتجارة في تلك الاصقاع (١)

ومثل ذلك في الغرابة والدلالة ان لم يكن اغرب وادل أن بلد امير هي من بلاد اليمن والمشابهة ظاهرة بين اميريين أي من بلاد اميره وبين الاموريين اشهر قبائل كنعان القديمة الذين اورث الله ديارهم ومساكنهم لبني اسرائيل . وكذلك نقول في حورة مدينة كندة القديمة او الحوار مدينة الاصبحيين من حمير فأن المشابهة تامة بين المنسوبين الى احد هذين البلدين وبين الحوريين سكان ادوم وجبال الشراة قديماً قبل ان نزل عليهم عيسو ابن اسحق بن ابرهيم الخليل * على ان ما ذكرناه في شأن الاموريين والحوريين والخبيريين هو على وضوحهِ مبني على الظن فان تكشّفت لنا بلاد اليمن عن كتاباتها بالخط المسند بما يرجح هذه الظنون او يثبتها فيهِ والاَّ فتبقى اقرب الى القبول من غيرها من الظنون والاقاويل التي عثرنا عليها الى الآن

---

(١) جاء في سفر العدد ان حبرون بنيت قبل صوعن بسبع سنين . فاذا فرضنا وهو المرجح ان قبيلة خبيري العادية كانت من جملة القبائل التي جاءت مع الملوك الرعاة وانها اخذت حبرون داراً لها فتكون حبرون ضرورة اقدم من صوعن لان صوعن عاصمة الرعاة لم يتخذها هؤلاء عاصمة لهم الا بعد حرب سنين لا تقل عن السبع في الراجح اخضعوا في اثنائها سكان البلاد من حبرون وجنوبي حبرون الى صوعن وهذه الاشارة ظاهر دلالتها كل الظهور وتؤيد القول ان الخبيريين سكان حبرون (على ما ذكر العلامة سايس) هم احد قبائل الملوك الرعاة كما ان القول في اصل الخبيريين على ما مر فيه تعليل ظاهر وبرهان واضح على صحة هذه الاشارة التاريخية

لم يبق علينا من شعوب كنعان الفينيقيون اهل التجارة والاستعمار في العصور الاولى قبل التاريخ المسيحي . الشعب الذي لم يقم مثلهُ في همتهِ ونشاطهِ واقدامهِ وميلهِ الى الرحلة والاستعمار في كل من نعرفهم من الشعوب القديمة بل كل منصف يتردد في تفضيل شعب آخر عليهِ الى الآن وان كان شعب بريطانيا العظمى . وعندي ان بني بريطانيا اهل الاستعمار اليوم واهل التجارة والسؤدد انما يحركهم اليهِ من التوسع في التجارة والاستعمار بقايا ما ورثوه من هؤلاء الفينيقيين العظام فانهم اعني الفينيقيين في الراجح استعمروا كثيراً من بلاد الانكليز واختلطوا باهلها قبل العصر المسيحي . اني اقول ما اقولهُ الآن الا كما يقول المؤرخ او الاثري الثقة بل كما يقول الخطيب على سبيل التهويل لكن في تهويلهِ شيئاً من الصحة والحقيقة او شبه منهما

من اين جاء هذا الشعب العظيم الى سواحل سوريا واين كانت المواطن التي توطنها هؤلاء التجار المستعمرون قبل ان بنوا صيدون العظيمة وصور ملكة البحار وتاجرة العالم * انَّ لغتهم من لغة الفرع الارامي اعني لغة الذين شيَّدوا بابل وارك واكد وكلنة . ولكني لا ارجح انهم جاؤوا من بين النهرين من حيث جاء انسباؤهم العبرانيون والعمونيون والموابيون واعني بالنسب هنا النسب في اللغة لا في الآباء . فمن اين جاؤوا اذن . ان اليونان ينقلون عن مواطن الفينيقيين الاولى خبراً لا نعلم ممن اخذوه ولكنهُ جدير بالقبول وهم يقولون انهم جاؤوا من خليج فارس من بلاد البحرين . وبلاد البحرين على ما تعلمون جزءٌ طبيعي من بلاد العرب . هناك اي في بلاد العرب كانوا اولا . وفي بلاد البحرين على شواطىء خليج العجم من القطيف الى شرجة وراس منصدم حيث جزيرتا كشم واورمز كانت مساكنهم الاولى . وارجح انهم ارتحلوا من هناك اولاً الى صور وصيد في عمان واليمن . ولولا مخافة ان يقال اشتط هذا في رأيهِ لقلت ان القوم غزوا في ارضهم . غزاهم احد الملوك الاقدمين كما غزاهم بختنصر من بعد في بلاد الشام واشتدت عليهم وطأتهُ ووطأة دولتهِ من بعده فهاجروا فرقة بعد اخرى فمنهم من هاجر الى صور في بلاد عمان ومنهم الى صَيْد في جنوبي اليمن بين زبيدة ومخا كما مرَّ ثم من هناك الى الدلتا في مصر اذا صح ما يقال ان في الدلتا آثاراً منهم . ثم من هناك الى شطوط فينيقية . والذي اراهُ بناءً على ما ذكرت ان صيدون تصغير صَيْد باللغة الارامية او نسبة اليها فان كان الاشتقاق من التصغير فهم سمّوا مدينتهم بهذا الاسم اي سموا البلد الذي نزلوهُ اولا باسم البلد الذي كانوا فيهِ وفرَّقوا بينهما بالتصغير طبقاً للواقع لان البلدة التي بنوها كانت اصغر من التي هاجروا منها . وان كان الاسم من النسبة فالتسمية كانت من القوم الذين نزلوا بينهم كما يسمَّى

من هاجر صيدا الى قرية من قرى مرج عيون او لبنان مثلا بالصيداوي وهو معروف شائع من الوف سنين الى الآن . فان قيل لم زعمت انهم هاجروا اولا الى عمان وجنوبي اليمن. قلت لانه في بلاد عمان اسم صور ولا يزال في جنوبي اليمن شمالي باب المندب اسم صيَد لبلدٍ وواد وجبلٍ ونقيلٍ (اي طريق عسر تكاد لا تسلكه الدواب) ولا يزال قومٌ يعرفون بالصَيَد اي من اهل صيد متفرقين في غير مكان من بلاد اليمن . وهذه الاسماء عريقة في القدم مثل كل اسماء البلاد العربية ولا يخبرنا التاريخ ولا التقليد ان أهل هذه الاماكن رحلوا اليها من بلاد اخرى بخلاف صور وصيدا في فينيقية فانا نعرف من التقليد المتواتر ان لم نقل من التاريخ ان اهل صور وصيدا جاؤوا اليهما من البلاد العربية . والذي نعرف عن العرب (وعن غيرهم من الامم ايضاً) انهم اذا استجدّوا داراً وعمروا فيها مدناً سموا تلك المدن باسماء مدنهم الاولى التي كانوا فيها . ولا يزال كثيرٌ من مدن اسبانيا التي استجدها العرب شاهداً على ما ذُكر فانهم سموها باسماء مدن الشام التي كانوا فيها اولا

فان قيل ان لغة الفينيقيين هي من الفرع الآرامي فكيف مع هذا رجحت انهم جاؤوا من بلاد العرب . قلت ان مواطنهم الاولى كانت في البحرين على الخليج الفارسي. وهذه المواطن ابداً يتنازعها الفرعان الساميّان العربي الى الجنوب والغرب والآرامي الى الشمال واكثر ما كان النفوذ الغالب فيها النفوذ الآرامي . ومن المتواتر على لسان العرب ان اهل البحرين نبط استعربوا . ويؤخذ من هذا انهم كانوا يعلمون ان النبطية اي الآرامية كانت الغالبة في الازمنة الاولى على ارض البحرين . وفي هذا تعليل مقبول على ان اهل صور وصيدا هاجروا من بلاد العرب وكانت مع ذلك لغتهم من الفرع الآرامي

بقي علينا الاحباش على العدوة الثانية من البحر الاحمر فان فريقاً منهم يتكلمون لغة هي اقرب اللهجات السامية الى اللهجة العربية وهم الغالا (على ما ارجح) وفريق آخر وهم الامهريون يتكلمون لغة تداخلت فيها اللغة السامية ولكن كثرتها لغة الاقوام الاصليين وهي لغة حامية محضة حتى غلبت عليها فلا يظهر فيها العرق السامي الا بعد الروية وامعان النظر . واذا نظرنا الى اولئك الذين يتكلمون الحبشية العربية رأيناهم قلائل عدداً بالنسبة الى الامهريين وبالنسبة ايضاً الى بقية امم الحبشة وافريقيا الذين هم من اصل حامي . ولا يعلل ذلك تعليلا يقبله العقل الاّ بان العرب في زمن بعيدٍ جداً نزحت منهم نازحة كثيرة العدد فحفظت لذلك لغتها عن ان تتغلب عليها لغة الحاميين الافريقية . لكن نشط من هذه النازحة ناشط او جاء هذا الناشط من البلاد العربية رأساً فسكن بلاد

الآماهرة وكان له عليهم الغلبة والسودد لارتقائه في سلّم المدنية ثم امتزج مع الاهلين على عادة الساميين. ولقلة عدده كثرة القوم فغرقت لذلك لغته وملامحه في لغة الاماهرة وملامحهم حتى لا يكاد يبين. ومثل ذلك يقال في لغة مصر القديمة فان اهل الثقة من علماء اللغات يرون في لغة وادي النيل عروقاً او تكييفات احدثتها مقاناة او ممازجة من اللغة السامية فيها ولا يعلل ذلك الا بان هذا الجنس ممثل المدنية الاولى في العالم كانت له غلبة يوماً على مصر وهذه الغلبة في الراجح اقدم من غلبة دولة الرعاة بكثير . ثم تلا هذه الغلبة غلبات . منها غلبة الهكسوس المعروفة في التاريخ والناطقة بها آثار مصر. ومؤرخو العرب مع اختلاط اخبارهم وكثرة التشويش فيها يشف كلامهم ونقولهم عن غير غلبة للعرب على بلاد الفراعنة. من ذلك غلبة او غلبات في ايام الدولة العادية وغلبة في ايام الدولة الحميرية او السبائية او النوبية

وخلاصة القول ان اللغة السامية المنتشرة كانت بلاد العرب مهدها الاول الذي نشأت فيه قبل الفتح الاسلامي بين الفراتين وخليج العجم شرقاً وشمالاً والنيل والبحر المتوسط غرباً وبحر العرب جنوباً مع ما يلحق بذلك من شواطىء شمالي افريقية . فبلاد العرب هي اذن مهد الجنس السامي ومنشأ المدنية الاولى ولا يزال فيها على رغم ظواهر الانحطاط والتأخر البادية عليها كل مقومات تلك المدنية ولا يمنع من ظهورها الا ضغط عليها من الخارج لا يلبث ان يزول عنها حتى تسطع شعلتها المرة الثالثة كما سطعت المرة الثانية ايام الفتوحات الاسلامية

اصل النبط في البتراء

بين البحر الميت (بحيرة لوط) وخليج ايلة (العقبة) منخفض من الارض يبلغ طوله نحواً من مئة ميل : وهذا المنخفض يعرف بالغور وقد يطلق عليه وادي العربة بال او بدونها. وعرض هذا الوادي بين اربعة اميال واربعة عشر ميلاً : وهو قفر بلقع قليل النبات شديد الحر . والى شرقيه سلسلة جبال ادوم المعروفة قديماً بجبل سعير وتعرف اليوم بجبال الشراة وجبال الشوبك

في هذه الجبال في منتصف المسافة تقريباً بين البحر الميت وبين خليج العقبة موقع مدينة بترا (البترا) وهي مدينة سالع القديمة عاصمة الادوميين قبل ايام نبوخذ نصّر وتعرف خرائبها اليوم باسم وادي موسى

ان المسافر من الشام الى العربيَّة جنوباً يصل الى هذه المدينة ولا يراها بل لا يرى الاَّ الجبال المحيطة بها . وفيما هو لا يرى الا تلالاً تجيء وتلالاً تذهب يقع بينها — وكانما بغتة على مطمئن من الارض اذا بلغ منتهاهُ غرباً وقع على سلع او شق او شج بين هذه الجبال وهذا السلع تعلوهُ الصخور عن جانبيه كالجدار الى ما يبلغ نحواً من ثلاثمئة قدم او يزيد احياناً . وعرضهُ لا يتجاوز في كثير منهُ بضعة امتار وطولهُ نحو من الفي متر الى الفين وخمسمئة فاذا انتهى المسافر الى آخر هذا السلع انكشف امامهُ مطمئن او قاع من الارض تعلوهُ الجبال من جميع جهاته . واتساع هذا القاع شرقاً بغرب ينحرف الى الشمال نحو من ثلثي ميل وشمالاً بجنوب ينحرف الى الغرب نحو من ميل ونصف الميل . في هذا القاع كانت سالع الادومية او بتراء النبطية مدينة الغنى والتجارة مئات من السنين

لمن كانت هذه المدينة اولا

قلنا انَّ موقع المدينة في منبسط من جبال الشراة وهي الجبال المعروفة في التوراة بجبل سعير . وكان يسكنها قديماً قوم يعرفون بالحوريين والظاهر ان سعير كان اميراً على اولئك الاقوام وبه سمي الجبل جبل سعير . اما من كان هؤلاء الحوريين ومن اين جاؤوا فارى انهم من القبائل العربيَّة الجنوبيين اهل اليمن وحضرموت وقد جاؤُا البلاد غازين مع من جاء من القبائل العديدة التي غلبت على سوريا ومصر وكان منها الدولة المعروفة بدولة الرعاة او دولة الهكسوس في بلاد مصر . فان هذه القبائل تغلبت كما ارى على معظم سوريا لذلك الحين كما تغلبت على مصر واقتسمت البلاد فنزلت كل قبيلة منها في ناحية كان لها السيادة

عليها على شاكلة ما كان في ايام الفتوحات العربية الاسلامية وارى ايضاً انّ اصل الحوريين من اليمن او من حضرموت من قرية او مدينة من مدن تلك البلاد فنسبوا اليها تمييزاً لهم عن غيرهم من بقية قبائل اليمن وحضرموت

وبعد ان استوطن الحوريون البلاد والامارة فيهم لآل سعير ولبثوا فيها حتى سميت الجبال باسمهم وعرفت البلاد انها بلادهم جاءت القبيلة العبرانية الشهيرة اعني قبيلة ابراهيم الخليل ونزلت البلاد غربيّ الاردن وكانت تتردّد فيها من شكيم في الشمال الى بير سبع في الجنوب

ولما كانت هذه القبيلة العبرانية دخيلة على من سبقها الى البلاد من القبائل العربيّة الجنوبية كان لا بدّ لها بحكم الضرورة والعادة من ان تحالف من كانت تنزل في جواره من الامراء والرؤساء وهكذا جاء النصّ صريحاً في سفر التكوين ان ابراهيم الخليل حالف عانر واشكول وممرا في حبرون وابيمالك ملك الفاسطينيين في جرار على مقربة من بير سبع. وجاء ايضاً في السفر نفسه انهُ اي ابراهيم اعطى عشراً من كل شيء لملك صادق ملك شاليم بعد ان رجع من محاربة كدرلعومر ملك عيلام. وبالاجمال كانت القبيلة في اول امرها كما يقول الكتاب غرباء ونزلاء لا يملكون في البلاد شبراً من الارض ولعلّ حقل المكفيلة في حبرون كان اول قطعة من الارض تملكوها بجوار المدن او القرى الكبيرة اشتراها ابراهيم من عفرون بن صوحر الحثيّ باربعمئة شاقل من الفضة مدفناً ليدفن فيهِ سارة زوجتهُ

الاّ ان القبيلة لم تلبث كثيراً في البلاد حتى انقسمت الى قسمين انحاز احدهما الى لوط (ابن اخي ابراهيم) وبقي الآخر وهو اكبر القسمين في الراجح مع ابراهيم وتحت رئاستهِ فهدّ ذلك من ابراهيم وفتّ في ساعده حتى همّ ان يعود الى مصر مخافة ان تتخطفهُ امراء البلاد الكثيرون ولم تطمئنّ نفسهُ الاّ بعد ان ظهر لهُ الله وطيب خاطرهُ بان وعدهُ ان يعطيهُ البلاد لهُ ولنسلهِ من بعده. ومع ذلك ترك البلاد في جهات نابلس حيث كان وارتحل الى الجنوب واقام عند بلوطات ممرا وربما كان ذلك بعد ان استوثق من عانر واخويهِ اشكول وممرا وهم امراء الديرة في حبرون وجوارها بحلف عقدهُ معهم. وارجّح ان ابراهيم فضّل الاقامة بين حبرون وبير سبع بعد انفصال ابن اخيهِ عنهُ لما آنس في نفسهِ من الضعف بعد ذلك الانقسام ولان البلاد في جهات نابلس كانت اكثر ساكناً وامراء نخاف من ثمّ كثرة التقاضي على المرعى والجوار بكثرة الامراء بخلاف البلاد بين حبرون وبيرسبع فانها كانت اقلّ ساكناً وامراء فضلاً عن انها اقرب الى البرية حصن اهل الخيام الذي يدفع عنهم تعدّي اهل المدن واطماعهم

والظاهر من سفر التكوين (وهو في رأيي تاريخ لامراء هذه القبيلة ابراهيم واسحق

ويعقوب قصداً ومن كان له علاقة بهم كلوط وعيسو عرضاً كتبه يوسف بعدان صار وزيراً لفرعون ومسلطاً على ارض مصر) ان لوطاً لما لم يبق له مطمع بالاستقلال مع الكنعانيين ورأى نفسه مكثوراً منهم مغلوباً لعصبيتهم سواء سكن المدن او الخيام اخلد الى الحضارة ووطن نفسه على مخالطة القوم والسكنى بينهم مقهوراً فسكن من ثمّ في سدوم مستضعفاً لايقوى على حماية ضيفه من تعدّي السفهاء ولا ان يدفع عنهم سفالة الغوغاء

واما ابراهيم فكان اشدّ شكيمة من ابن أخيه واكثر مالاً وتابعاً منه فلم يرمارآه ولا انكسر انكساره ففضّل من ثمّ سكنى الخيام على سكنى المدينة وبقي يتنقل في البلاد تارةً ينزل في جهات حبرون واخرى في جهات بير سبع

وطالت غربته في كنعان وامتدت به الايام ولم يتغير عن عزمه الاول في ارادة الاستقلال عن اهل البلاد وترك مخالطتهم ولعل السبب في ذلك انه كان اعرق في البداوة من اولئك الكنعانيين فكان من ثمّ لا تعجبه اطوارهم ويأنف من كثير من آدابهم وعوائدهم وفقاً لما نراه حتى الساعة من تجافي امراء البادية عن المدن وانفتهم من كثير مما فيها وفي اهلها. ولعله فضلاً عن منصبه الديني كان يرى بيته وان كان نزيلاً على الكنعانيين اكرم محتداً واعلى شرفاً من بيوتاتهم . وما زال هذا الفكر شديداً في نفسه الى ان ماتت سارة اميرة قومها وسيدة عقيلات القبيلة عن آخرهن

فبعد موتها اغضى شيئاً عن انفته السابقة وانكسرت حدة ما كان يراه من التفاوت بينه وبين الكنعانيين بدليل انه مال الى مصاهرتهم واخذ قطورا احدى بناتهم زوجة له. على انه وان يكن قد رضي ان يأخذ لنفسه زوجة من بنات كنعان لم يرض ان يأخذ منهم لابنه اسحق لانه كان يراه الوارث الشرعي لامارة القبيلة وفيه عزها وبقاء ميزها الان سيادتها كانت تحيط به من جانبيه دون بقية اخوته ولذلك ارسل الى عشيرته والى بيت ابيه فخطب له من هناك اميرة من بنات عمه رفقة ابنة بتوئيل بن ناحور اخي ابراهيم

وكبر بيت ابراهيم وكان له غير اسمعيل واسحق اولاد كثيرون من قطورا ومن حجين او رعوة على قول بعض المؤرخين (انظر ابن خلدون جزء ٣ وجه ٣٨ و٣٩). وحدث فيه من الفرقة ما يحدث عادة في امثاله من بيوت رؤساء القبائل الشرقية فذهب اسمعيل في جهة ومعه قسم من القبيلة في الراجح وابناء قطورا في جهة اخرى ومعهم قسم آخر وكذلك ابناء رعوة او حجين. الا ان معظم القبيلة بقي مع اسحق في جهات بير سبع فأنه كان يفضل الاقامة هناك في جوار الفلسطينيين كما كان ابوه يفضل حبرون وجوار بني حث . وعقد

اسحق حلفاً مع ابيمالك ملك جرار وكان ابراهيم ابوه من قبل قد عقد حلفاً مع ابي ابيمالك هذا على الارجح

قلنا ان ابراهيم كان يرى في اسحق الوارث الشرعي لرئاسة قبيلته وانه كان يربأ بنفسه عن مخالطة الكنعانيين ومصاهراتهم فارسل من ثم عبده الى بيت أبيه في ارام النهرين وخطب له ابنة عمه رفقة فولد له منها ولدان توأمان هما عيسو ويعقوب ولما كبر الولدان وقعت المغايرة والمنافسة بينهما على رئاسة القبيلة . وكانت الرئاسة لعيسو لانه البكر وكان اسحق ابوه يحبه ايضاً ويفضله على اخيه الا ان رفقة كان هواها مع يعقوب فعملت معه على كيد عيسو وبحيلتها صرفت عنه بركة ابيه فحز ذلك في نفسه واشتد الخلاف بينه وبين اخيه . وكان عيسو على ما ارى محبباً الى القبيلة وهواها معه فلما عظم الخلاف بينه وبين اخيه كما اشرنا اليه وبلغ الامر غايته تخوف يعقوب على نفسه وعلم ان لا بقاء له مع اخيه ورأت رفقة امه ايضاً حرج حالته فارسلته الى فدّان ارام الى بيت خاله لابان

وبعد ان هرب يعقوب الى فدان ارام انفرد عيسو برئاسة القبيلة وكانت بير سبع حيث يقيم هو وقبيلته قريبة من جبل سعير (جبال الشراة) فتعرف عيسو بامرائها من آل سعير وخطب منهم احدى بناتهم واسمها اهوليبامة فزوجوه وحالفوه فترك بير سبع ونزل عليهم في ديارهم فاشتملوا عليه واختلطت القبيلتان ومع الايام كثر آل عيسو آل سعير وغلبوا عليهم حتى تنوسي امر الحوريين واصبحت البلاد خالصة للادوميين وتسمت باسمهم ايضاً ولم يبق من اثر لامراء آل سعير الحوري الا الجبل ما زال يعرف باسم امرائه الاولين مئات من السنين بعد انقراضهم ولا يزال علماء الكتاب والتاريخ يعرفونه بهذا الاسم وهو اشهر عندهم من الشراة لحد هذه الساعة

ظهر لنا مما مر ان البلاد كانت اولاً للعرب الجنوبيين المعروفين باسم الحوريين وانهم كانوا من جملة القبائل التي غزت سوريا ومصر في ايام دولة الرعاة المشهورة في مصر ثم غلبهم عليها الادوميون نحو ١٥٠٠ قبل المسيح . والادوميون هم ابناء عم اليهود كالعرب الاسماعيليين الا انهم اقرب اليهم من هؤلاء فانهم اخوتهم من اسحق ابن ابراهيم من سارة والاسماعيليون ابناء عمهم اسمعيل ابن ابراهيم من هاجر جارية سارة كما هو المتعارف والمشهور

كم من الزمان بقيت جبال سعير ومدينتها الحصينة سالع (البترا) في يد الادوميين

بعد ان خرج الاسرائيليون من مصر وبقوا المدة المشهورة في التيه جاؤا اخيراً الى قادش فارسل موسى من هناك رسلاً الى ملك ادوم يقول فيها

« هكذا يقول اخوك اسرائيل قد عرفت كل المشقة التي اصابتنا . ان آباءنا انحدروا الى مصر واقمنا في مصر اياماً كثيرة واساء المصريون الينا والى آبائنا فصرخنا الى الرب فسمع صوتنا وارسل ملاكاً واخرجنا من مصر وها نحن في قادش مدينة في طرف تخومك دعنا نمر في ارضك » الخ

وظاهر جلياً من هذه الرسالة ان الادوميين كانوا لذلك الحين قد استولوا على البلاد ولم يبق معهم اسم للحوريين ولا ذكر لامرائهم من آل سعير واصبحت البتراء (سالع) قرية من قراهم او مدينة من مدنهم لكن لم يتم هذا الاستيلاء للادوميين الا بعد ان جرت بينهم وبين اخوانهم حروب شديدة كانت الدائرة فيها اخيراً على آل سعير فانجلوا عن البلاد وغادروها ملكاً لآل عيسو يتولاها ملك منهم يرجع اليه امر بقية الامراء والرؤساء ويدينون له بالطاعة . كل ذلك تم وابناء عمهم آل يعقوب كانوا لا يزالون في مصر (انظر سفر التثنية ص ٢ : ٢١ و ٢٢)

وخرج الاسرائيليون من مصر وجاؤا بلاد كنعان فحاربوا الاموريين وغيرهم من القبائل الكنعانية شرقي الاردن وغربيه ولم يتعرضوا اولاً لانسبائهم من القبائل العبرانية اعني الادوميين والموابيين والعمونيين وكانوا لذلك الحين قد رسخت قدمهم في البلاد واقتطعوا لهم نصيباً معيناً فيها

والذي اراه ان هذه القبائل التي ذكرناها كان ضلعها مع الاسرائيليين لما يعرفونه لهم من القرابة في النسب ولما كان بينهم وبين جيرانهم القبائل الكنعانية من الحروب والعداوات (راجع تثنية ص ٢) . واستمر الادوميون في بلادهم لا ينازعهم منازع في ارضهم ولا يطمع في اخضاعهم احد من جيرانهم الموابيين والاسرائيليين الى ايام شاول اول من ملك على بني اسرائيل . فلما ملك وانضوى اليه الاسباط الاثنا عشر — وكانوا من قبل قد تفرقت كلمتهم وانخضدت شوكتهم — أدى ذلك الى التحكك بالقبائل المجاورة ومن جملتهم الادوميون (انظر صموئيل الاول ص ١٤ : ٤٧) فجرت مناوشات بينه وبينهم ولا يبعد ان يكون سبب ذلك ان الادوميين انتصروا للعمالقة على شاول او انهم تعدوا على حدود الاسرائيليين الجنوبية حيث تماس تخوم سبطي يهوذا وشمعون بتخوم الادوميين ومهما يكن من سبب تلك المناوشات التي اجراها شاول فالمرجح انها كانت من قبيل الدفاع عن التخوم دفعاً لعادية الادوميين لا من قبيل الطمع في اخضاعهم فانقضى من ثم ملك شاول ولم يكن كبير امر بين اسرائيل وادوم

فلما ملك داود واجتمعت اليه كلمة الاسباط الاثني عشر واخذ اورشليم عنوة من

اليبوسيين وجعلها داراً لملكه راع ذلك الامم المجاورة ولا سيما الفلسطينيين وتخوفوا عاقبته عليهم فناصبوه العداوة وفتحوا عليه ابواب حرب شديدة الا انها لم تغلق الا بعد ان ذلوا وتركوا له ما كانوا استولوا عليه من بلاد اسرائيل في ايام شاول وما قبله ايضاً

وكان الادوميون من جملة الامم الذين حاربوا داود ولا نعلم ماذا كان سبب تلك الحروب الا ان يكون المزاحمات التجارية والظاهر ان الادوميين ضايقوا داود اولاً بدليل ما ورد من الاشارات في منظوماته ومن تلك الاشارات ما جاء في المزمور ١٠٨ فانه يقول فيه من يقودني الى المدينة المحصنة من يهديني الى ادوم اليس انت يا الله الذي رفضتنا ولا تخرج يا الله مع جيوشنا اعطنا عوناً في الضيق فباطل هو خلاص الانسان . بالله نصنع بباس وهو يدوس اعداءنا »

ولاشك انه يشير بالمدينة المحصنة الى سالع (البتراء) وهي من احصن مدن البلاد وقل ان تكون مدينة احصن منها — كما يتبين من الصحة التي وصفنا بها موقعها في أول مقالتنا هذه — الا ان الغلبة كانت اخيراً لداود فأنه التقى بالادوميين في وادي الملح الى جنوبي بحيرة لوط وقد جمعوا له قواتهم عن آخرها فسير اليهم ابشاي بن صروية اخته وكان من نخبة قواده ونشبت بينه وبينهم معركة من اعظم المعارك واشدها هولاً فأسفرت عن ثمانية عشر الفاً قتلى من الادوميين وهذه المعركة هي المعركة الوحيدة التي في تاريخ داود انه نصب لها تذكاراً وكان من نتيجتها ان الادوميين ذلوا لداود واستعبدوا له فوضع له محافظين في ادوم كلها وضرب عليهم جزية ما زالوا يؤدونها له ولاعقابه الى ان قام يهورام ابن يهوشافاط فانهم عصوا يهوذا في ايام هذا الملك ورجع اليهم استقلالهم مدة الى ان اخضعهم امصيا احد ملوك يهوذا الا انهم عادوا الى استقلالهم وما زالوا على ذلك الى ايام نبوخذ نصر ملك بابل الذي افتتح اورشليم وسبى معظم اهلها الى عاصمة بلاده في اوائل القرن السادس قبل المسيح

وخلاصة ما ذكرناه ان سالع (البتراء) بقيت في حوزة الادوميين مدة تزيد عن الالف سنة قام في اثنائها ملوك كثيرون على ادوم وكثيرون من هؤلاء ملكوا في ادوم قبل ان يملك ملك على بني اسرائيل . وامتد نفوذ الادوميين في اول امرها وفي آخره قبل غزوة نبوخذ نصر الى يهوذا وفلسطين فبلغ الحجاز ونجداً شرقي المدينة (يثرب) وشمالها وكانت طريق القوافل تمر عليها من العربية السعيدة جنوباً وخليج فارس شرقاً فكثر بذلك غنى اهلها وعظم جاههم فاشتدت كبرياؤهم ولا سيما على اليهود جيرانهم وابناء عمهم في اورشليم واليهودية فخز ذلك حتى في نفوذ الانبياء منهم وانذروهم بسوء المصير . قال ارميا النبي

يخاطب الادوميين . قد غرك تخويفك كبرياء قلبك ياساكن في محاجيء الصخر الماسك مرتفع الاكمة . وان رفعت كنسر عشك فمن هناك احدرك يقول الرب وتصير ادوم عجباً كل مار بها يتعجب ويصفر بسبب كل ضرباتها (ارميا ص ٤٩)

وقال حزقيال — هكذا قال السيد الرب من اجل ان ادوم قد عمل بالانتقام على بيت يهوذا واساء اساءة وانتقم منه لذلك هكذا قال السيد الرب وامد يدي على ادوم واقطع منها الانسان والحيوان واصيرها خراباً من التيمن والى ددان يسقطون بالسيف (حزقيال ص ٢٥ : ١٢ و١٣)

وقال حزقيال ايضاً — هكذا قال السيد الرب هانذا عليك يا جبل سعير وامد يدي عليك واجعلك خراباً مقفراً .اجعل مدنك خربة وتكون انت مقفراً وتعلم اني انا الرب لانه كانت لك بغضة ابدية ودفعت بني اسرائيل الى يد السيف في وقت مصيبتهم وقت اثم النهاية لذلك حي انا يقول السيد الرب اني أهيئك للدم والدم يتبعك . اذا لم تكره الدم فالدم يتبعك فاجعل جبل سعير خراباً ومقفراً واستأصل منه الذاهب والآئب (حزقيال ص ٣٥)

وفيما نقلته شاهد لا يرد على ان الادوميين كانوا سكان جبل سعير الى ايام حزقيال وارميا وان ذلك الجبل كان فيه غير مدينة من جملتها سالع (البترا) وان الادوميين كانوا متبسطين فيها وراء جبل سعير وان البلاد من تيمان الى ددان كانت خاضعة لهم او على الاقل كانت تمر بها قوافلهم وتجاراتهم لا يعارضها اهل البلاد من العرب اما لحلف كان لهم معهم او رهبة من سطوتهم وخيفة من انتقامهم

اما تيمان المشار اليها في حزقيال فواقعة الى الجنوبي الشرقي من البتراء ولعلها هي تيماء الحالية الى شمالي مدائن صالح .واما ددان فارجح انها دد التي يشير اليها الشاعر العربي بقوله

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصب من دد

ودد موضع بسيف كاظمة من ارض البحرين والالف والنون فيها مزيدتان للنسبة كما في عبادان ومهلبان وجبيران ومحمدان وزيادان وعميران وخالدان وعبد الرحمانان نسبة الى عباد ومهلب وجبير ومحمد وزياد وعمير وخالد وعبد الرحمان على طريقة البصرة

بقي علينا في مقالتنا الحاضرة سؤال نسأله ونجيب عليه تأسيساً لما يبنى عليه كلامنا في المقالة التالية التي نأتي فيها على ذكر الانباط واصلهم تتمة للبحث الذي نحن فيه والسؤال هو من هي القبائل او الامم التي كانت تسكن سوريا وجبال الشراة في ايام نبوخذ نصر. والجواب ما يأتي

(١) الاراميون في دمشق وتوابعها وفي أيلة على البحر الاحمر
(٢) اليهود اعني سبطي يهوذا وبنيامين ومن بقي في البلاد من بقايا الاسباط العشرة
(٣) السمرة في نابلس وجوارها
(٤) العمونيون
(٥) الموابيون
(٦) الادوميون
(٧) الفينيقيون اهل صور وصيداء والملحقات بهما
(٨) الفلسطينيون في غزة وعسقلان واشدود
(٩) العرب
(١٠) اخلاط من الكنعانيين على اختلاف قبائلهم

هذه هي الشعوب التي كانت في البلاد عند ما غزا نبوخذ نصر سوريا او ارض كنعان وافتتح اورشليم . وسنرى في المقالة التالية اسم الانباط والنبطيين زيد على هذه الاسماء المارة وعرف في ايام خلفاء الاسكندر ونذكر اذ ذاك ما يتعلق باصلهم والبلاد التي جاؤوا منها

قامت الدولة الأشورية الثانية وغلبت على البلاد البابلية كما غلبت عليها الدولة الاولى من قبل فصارت بابل مدينة ولاية لا عاصمة مملكة وحاولت غير مرة أن تسترد استقلالها فلم تفلح . وقسا عليها ملوك اشور سرجون وسنحاريب واشور بانيبال ولاسيما سنحاريب فانه دكّ اسوارها الى اساساتها وهدم قلاعها واحرق المدينة بالنار لم يشفق على شيء ولا رعى حرمة شيء وان كان مقدساً بل حرق وهدم حتى المعابد والهيا كل فلم يبق ولم يذر . ومع ذلك أعيد بناؤها في ايامه فعادت إلى العظمة التي كانت لها بعد زمن قصير . ثم اخذت الدولة الاشورية تضعف واسباب ضعفها معلومة فانها الظلم والعنف ولهو الامراء والكبراء وانهما كهم في المعاصي والشهوات ودوسهم الشرائع وكل ما هو مقدس تحت اقدامهم . فبشر الظالمين العتاة الباغين ان استدراجهم لا يدوم ولا بد أن يبلغ الكتاب أجله

كان نبو بلاسر والياً على بابل من قبل ملوك نينوى ورأى ماصاروا اليه من الانهماك في المعاصي والشهوات كما رأى ذلك امراء مادي وفارس فعقد معهم حلفاً على اكتساح الممالك الاشورية فشقوا عصا الطاعة وزحفت جنود البلادين على نينوى ومازالوا على حصارها حتى افتتحوها عنوة وعادوا عنها وقد فلحوها وزرعوها ملحاً واقتسموا ملحقاتها فوقعت البلاد غربي الفرات للبابليين

إلا ان شعوب سوريا وفلسطين كانت تطمع في عود استقلالها اليها او شيء منه وكانت

مصر أيضاً قد انتبهت من خمولها وقام عليها ملوك فيهم همة ولهم مطامع ومنهم فرعون نخو فطمع هذا في استرداد ما كان للفراعنة من النفوذ في بلاد الشام واقتطاع قسم كركميش على الفرات . والظاهر ان شعوب سوريا وفلسطين من ادوميين ومواببين وعمونيين وارامبين انحازوا اليه إلا يوشيا ملك يهوذا فانه بقي على ولائه للاشوريين فتصدى لمعارضة نخو إلا انه قتل في مجدو في جهات الجليل . وعاد نخو من ارض ربلة في حماه فمر على اورشليم وعزل يهواحاز الذي كان قد ملك مكان أبيه وارسل به اسيراً إلى مصر فمات هناك وملك اخاه يهوياقيم بدلاً منه وغرم الارض بمئة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب

ولما رأى نبو بلاسر ما رأى من تحالف ممالك الشام وانحيازهم الى جانب الفراعنة عقد اللواء لابنه نبوخذنصر وجعله قائداً اكبر للجنود البابلية فسار نبوخذ نصر حتى جاء الى كركميش حيث كانت جنود المصريين فانتشبت بينه وبينهم معركة هائلة فاز فيها نبوخذ نصر فوزاً مبيناً وارتد نخو منهزماً لا يلوي على شيء فوضع نبوخذ نصر يده على كركميش وجعل فيها حامية من قبله ثم تعقب المنهزمين الى سوريا وفلسطين

والظاهر ان اغلب شعوب هاتين البلادين انخلعت قلوبهم بعد واقعة كركميش فاذعنوا بالطاعة لنبوخذ نصر لم يبدوا اكبر مقاومة الا صور لشدة ما كان بينها يومئذ وبين المصريين من استحكام علائق المودة والمصافاة . فان فرعون نخو هذا على ما يذكرون قرب الصوريين اليه وجعل منهم رؤساء لعمارة له طافوا فيها حوالي افريقيا فمرّوا برأس الرجا الصالح ثم داروا من هناك شمالا حتى وصلوا بوغاز جبل طارق ومنه الى السويس . وفوق ذلك كان هذا الملك وصل بترعة بين السويس والبحر المتوسط وحول الى السويس تجارة الهند واليمن وشواطىء افريقيا على البحر الاحمر وكل شواطىء الزنج من باب المندب الى الموزمبيق فماتت بهذا التحويل تجارة ايلة وعاش السويس فانحصرت من ثمَّ ارباح هذه التجارة الواسعة بين المصريين والصوريين ولذلك يهمهم ان تكون الغلبة لمصر او اقله يبقون على استقلالهم وتبقى علائقهم مع المصريين على ما كانت عليه

وجاءت جنود نبوخذ نصر اول مرة الى اورشليم فتلقاهم اليهود بالطاعة والاذعان ونبذوا عنهم ولاء المصريين إلا انهم بعد ارتداد الجيوش الكلدانية الى بابل واشتغال نبوخذ نصر عن الشام باطفاء بعض الثورات الداخلية عادوا الى ولاء مصر وطمعوا بنصرتها فانتقضوا على نبوخذ نصر فبعث هذا غزاة من الكلدانيين انضاف اليهم غزاة من الموابيين والعمونيين والادوميين والاراميين فضايقوا اليهود . ومات في تلك الاثناء ملكهم يهوياقيم وملك ابنه يهوياكين مكانه فلم يلبث إلا ثلاثة اشهر ثم استسلم هو وامه

وعبيده ورؤساؤه وخصيانه لنبوخذنصر . وسبى نبوخذ نصر كل اورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس وجميع الصناع والاقيان لم يبق إلا مساكين شعب الارض وملك عليهم صدقيا عم يهوياكين

وعاد نحو في ايام صدقيا الى مراسلة اليهود واغرائهم بالعصيان وان يكونوا يداً واحدة على ملك بابل ومال الى جانب المصريين اكثر الامم المجاورة اليهود ايضاً . وكان في اليهودية حزبان احدهما لنبوخذ نصر واشهر رجاله ارميا النبي وحزب آخر للمصريين كان فيه اكثر العظماء والرؤساء فغلبوا على الملك صدقيا فلم يقو على مخالفتهم فيما لو اراد واشتدت الفتنة في السنة التاسعة للملك وجهروا بالعصيان فعاود نبوخذ نصر الكرة عليهم ونزلت جيوشه على اورشليم وشددوا عليها الحصار . وكان الملك وحزبه ينتظرون من حين الى آخر قدوم المصريين لمساعدتهم فخابت آمالهم وعضهم ناب الجوع والفشل فلم تبق فيهم قوة للمدافعة واخذ كثيرون يتسللون الى الكلدانيين

وعلى مايظهر لي من مراجعة سفر ارمياص٣٨و٣٩ومن مراجعة خبر حصاراورشليم وافتتاحها في سفر الملوك الثاني ان حزب ارميا النبي قوي في آخر مدة الحصار حتى ان صدقيا الملك كان يحدث نفسه بالانضمام اليهم ولكنه كان ضعيف الهمة متردداً لا عزيمة له وما زال يسوف الامر حتى خرج من يده وغلب حزب ارميا وفتحوا المدينة للكلدانيين فلم يشعر صدقيا إلا ورؤساء ملك بابل في المدينة في الباب الاوسط فلما رآهم صدقيا هو وكل رجال الحرب هربوا وخرجوا ليلا من المدينة في طريق جنة الملك من الباب بين السورين وخرج هو في طريق العربة ولكنه أدرك في عربات أريحا واخذ من هناك الى ربلة في ارض حماة حيث كان نبوخذنصر فحاكموه امامه وحكموا عليه ان يقتل بنوه على مرأى منه ثم تفقأ عيناه ويقيد بسلسلتين ويرسل الى بابل

والظاهر ان حزب ارميا كان يطمع بنجاة المدينة اذا هم سلموها للكلدانيين فتسلم من الحريق والتخريب اقله بيوتهم واموالهم ولكن بدا لنبوخذ نصر فامر بدك اسوار المدينة وهدم هيكلها ومافيها من القصور والبيوت وتحريقها بالنار وارسل من قبله نبوزرادان رئيس الشرط لينفذ فيها امره فجاء هذا الى اورشليم في الشهر الخامس في سابع الشهر — وكانت المدينة اخذت في الشهر الرابع في تاسع الشهر — فاحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار وجميع أسوار المدينة مستديراً هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور سباهم نبوزرادان رئيس الشرط ولكنه ابقى

من مساكين الارض كرامين وفلاحين (أنظر الملوك الثاني ص ٢٥)

وأوصى نبوخذنصر ملك بابل على ارميا نبوزارادان رئيس الشرط قائلا خذه وضع عينيك عليه ولا تفعل به شيئاً رديئاً بل كما يكلمك هكذا افعل معه . فارسل نبوزرادان رئيس الشرط ونبوشزبان رئيس الخصيان ونرجل شراصر رئيس المجوس وكل رؤساء ملك بابل ارسلوا فاخذوا ارميا من دار السجن واسلموه لجدليا بن اخيقام بن شافان فسكن بين الشعب (انظر ارميا ص ٣٩)

وعد رؤساء الجيش الذين كانوا من حزب ارميا ممن سلموا المدينة ان ما فعله نبوخذنصر من احراق المدينة وبيوتهم في جملتها غدراً واخلافاً فضعفت ثقتهم بارميا وبالكلدانيين ولذلك لما قام بعضهم وهو اسمعيل ابن نثنيا من النسل الملوكي وقتل جدليا بن اخيقام الذي ولاه نبوخذ نصر على بقية الشعب لثلاثة أشهر من ولايته تنكر الباقون وتخوفوا ان يتهموا بممالأة اسمعيل على قتله ويؤخذوا بتبعة فعلته فحولوا وجوههم وجهة مصر ولكنهم أرادوا ظاهراً أن يستشيروا ارميا قبل ان يمضوا لما قصدوا اليه واليك ماجاء في سفره في شأن هذه الاستشارة قال :

فتقدم كل رؤساء الجيوش ويوحانان بن قاريح ويزنيا بن هوشعيا وكل الشعب من الصغير الى الكبير وقالوا لارميا ليت تضرعنا يقع امامك فتصلي لاجلنا الى الرب الهك لاجل كل هذه البقية — فيخبرنا الرب الهك عن الطريق الذى نسير فيه والامر الذي نفعله — وقالوا لارميا ليكن الرب بيننا شاهداً صادقاً وأميناً اننا نفعل حسب كل أمر يرسلك به الرب الهك الينا — وكان بعد عشرة أيام إن كلمة الرب صارت إلى أرميا فدعا يوحانان بن قاريح وكل رؤساء الجيوش الذين معه وكل الشعب من الصغير إلى الكبير وقال لهم : — ماخلاصته البقاء في البلاد على ولاء الكلدان

ولما فرغ ارميا من خطابه لجميع الشعب ـ قال عزريا بن هوشعيا ويوحانان بن قاريح وجميع الرجال العتاة لارميا انك متكلم بالكذب والرب الهنا لم يرسلك قائلا لا تنطلقوا الى مصر لتتغربوا هناك بل باروخ بن نيريا مهيجك علينا لتدفعنا ليد الكلدانيين ليقتلونا وليسبونا الى بابل الخ (انظر ارميا ص ٤٣)

وظاهر من جوابهم هذا حقدهم على الكلدانيين وتخوفهم من غدرهم وظاهر ايضاً ان ثقتهم بارميا وصلت الى منتهى الضعف حتى اتهموه بالكذب في وجهه وانه آلة في يد باروخ بن نيريا . ولعلهم في تلك الاثناء وصلتهم رسائل من مصر او من احلافهم في صور فردتهم الى رأيهم القديم من المحازبة والولاء للمصريين ومن ثم قاموا وذهبوا الى مصر

وأخذوا ارميا معهم بالرغم عنه ولم يسمعوا لصوته. وفي التقاليد اليهودية انهم قتلوه في مصر. ولعلهم لما اكثر هناك من ملامتهم وقرفهم بمعاصيهم وما كانت تأتيه نساؤهم من النذور والتقتير وسكب السكائب لملكة السماء اجترأوا عليه فانكروا نبوته واستخفوا بكهنوته واتهموه كما اتهمه شمعيا النحلامي من قبل انه مجنون متنبيء وداعي فتنة وسجس فشكوه إلى فرعون او أحد عماله بالخيانة والتحزب للبابليين فامرهم به فقتلوه

انا لا نعلم تفاصيل اخبار نبوخذ نصر واعظم ما حفظ لنا منها انما هو المذكور في سفر ارميا وفيه يظهر ان الرسل كانت تتردد بين صدقيا ملك يهوذا وبين الملوك المجاورين اعني الادوميين والمؤابيين والعمونيين وملك صور وملك صيدا وكذلك كانت تتردد الرسل والمراسلات بين الذين كانوا سبوا الى بابل من يهوياكين وبين الذين بقوا في اورشليم وغاية كل هذا التراسل انما هو الفتنة وحمل اليهود على العصيان. والظاهر من رسائل ارميا الى المسبيين أن كان انبياؤهم يمنونهم بقرب العودة من السبي. واليك صورة رسالة منه الى المسبيين ارسلها قال فيها: هكذا قال رب الجنود اله اسرائيل لكل السبي الذي سبيته من اورشليم الى بابل ابنوا بيوتاً واسكنوها واغرسوا جنات وكلوا ثمرها خذوا نساء ولدوا بنين وبنات وخذوا لبنيكم نساء واعطوا بناتكم لرجال فيلدن بنين وبنات واكثروا ولا تقلوا واطلبوا سلامة المدينة التي سبيتكم اليها وصلوا لاجلها إلى الرب لانه بسلامها يكون لكم سلام لانه هكذا قال رب الجنود إله اسرائيل لا تغشكم انبياؤكم الذين في وسطكم وعرافوكم ولا تسمعوا لاحلامكم التي تتحلمونها لانهم انما يتنبأون لكم باسمي بالكذب انا لم ارسلهم يقول الرب (ارميا ص ٢٩)

واعجب من ذلك ان حننيا بن عزور النبي (او المتنبي) يكلم ارميا في بيت الرب امام الكهنة وكل الشعب بما يأتي: — هكذا تكلم رب الجنود اله اسرائيل قائلاً قد كسرت نير ملك بابل في سنتين من الزمان ارد الى هذا الموضع كل آنية بيت الرب التي اخذها نبوخذ نصر ملك بابل من هذا الموضع وذهب بها الى بابل وارد الى هذا الموضع يكنيا بن يهوياقيم ملك يهوذا وكل سبي يهوذا الذين ذهبوا الى بابل يقول الرب لاني اكسر نير ملك بابل — وقال ارميا النبي امين هكذا ليصنع الرب. ارميا ص ٢٨

والذي أراه من تكرار عصيان اليهود ان أقوال هؤلاء الانبياء المشار اليهم والاماني التي كانوا يمنون بها الشعب لم تكن عن مجرد هوس وتكهن لاسند له بل لابد لذلك من سبب ولعل السبب كان اشتباك نبوخذ نصر بحروب العيلاميين والعرب وتغلغله في صحراء العربية القليلة المياه وجبالها العسرة المسالك فكانوا يظنون ان الدائرة ستدور عليه هنالك

فيتغير الملك وتتغير السياسة بتغيره . وفيما جاء في آخر سفر ارميا وآخر سفر الملوك الثاني مايستدل به على ان كان موالاة وتحالف بين اويل مرودخ بكر نبوخذ نصر وبين يهوياكين ملك يهوذا فان اويل هذا ـ وكان قد سجن في ايام أبيه حيث كان يهوياكين مسجوناً ـ لما تولى منصة الملك بعد أبيه رفع رأس يهوياكين وأخرجه من السجن وجعل كرسيه فوق كراسي الملوك الذين معه في بابل وكان دائماً يأكل الخبز أمامه كل أيام حياته. فلا يبعد ان تكون هذه الموالاة هي الاس الذي بني عليه حننيا بن عزور نبوته التي نقلناها آنفاً

دعنا نسأل هنا لماذا سجن اويل مرودخ وهو بكر نبوخذنصر . انه لا يعال عن سبب سجنه تعليلا اقرب الى القبول وينطبق على ماصنعه ليهوياكين حال تسنمه اريكة الملك وفي الوقت نفسه يوافق ايضاً آمال اليهود المشار اليها في سفر ارميا إلا ان اويل مرودخ (وكان سفيهاً غراً على ما نقل من اخباره) أغري بخلع أبيه والاستيلاء على عرش المملكة دونه أثناء غيابه في غزواته وان يهوياكين وامراء يهوذا المسبيين كانوا ممن دخل معه في هذه المؤامرة ان لم يكونوا هم الذين حملوه عليها وحسنوها له ومنوه بانحياز أمتهم وأحلافها الى جانبه فوعدهم انه اذا تم له الامر يردهم الى بلادهم ويكونون من جملة أوليائه وأعوانه في غربي الفرات . واتصل طنين هذا الوعد بهؤلاء المتنبئين فهتفوا به إلى اخوانهم في اليهودية وحركوهم الى الفتنة والعصيان ووافق ذلك غرض المصريين وأشياعهم ملوك صور وصيداء وادوم ومواب وبني عمون فتغلب حزب الفتنة على حزب ارميا حزب السلام والخضوع للبابليين

ولا يبعد ان حزب نبوخذ نصر كتبوا اليه بحركة الافكار هذه واطلعوه على مايدور من التراسل بين المسبيين واخوانهم في اليهودية وبين هؤلاء وبين المصريين وأحزابهم أيضاً وان نبوخذ نصر بحث فوجد مجالا للظن في ابنه فسجنه ومازال في السجن الى أن توفي ابوه ثم وجه نبوخذ نصر بأسه على اليهودية ومدن فينيقية اما اورشليم فاستمرت سنتين تحت الحصار واما صور العظيمة فقالوا انها لم تؤخذ إلا بعد حصار ثلاث عشرة سنة وبسقوطها دانت له البلاد غربي الفرات من كركميش الى العريش وأصبحت كلها ولايات كلدانية ليس فيها لأمة ولا لمدينة استقلال أصلا ولا شبه استقلال

ويهمني في مقالتي هذا ان أسأل لماذا ياترى تشدد نبوخذ نصر كل هذا التشدد على صور حتى بقي على حصارها ثلاث عشرة سنة ألمجرد الطمع بما كان فيها من الغنى والنفائس ما اظن . فان نبوخذ نصر كان يعلم مابين صور وقرطاجنة من أواصر القربى والعلائق الخاصة وكان يعلم ان الصوريين لايسلمون اليه مدينتهم قبل أن تنقل مراكبهم كل مافيها

من أموالهم ونفائسهم الى قرطاجنة حيث لا تصل يده الى شيء منها . وكانوا مع ذلك لا يترددون ان يفتدوا منه مدينتهم بالاموال الطائلة فيما لو أراد بشرط ان يتركهم على ما كانوا عليه من استقلالهم في مدينتهم وتجاراتهم فتشدده في الحصار وتشددهم في الدفاع كان اذن لغير مجرد النهب والسلب على ما قد يزعم وان كان يصح ان يكون من جملة الاسباب ايضاً

والسبب الرئيسي على ما أرى هو ان نبوخذ نصر كان ملك مدينة تجارية وشعب اشتهروا بالتجارة من قديم الزمان وزاحموا فيها غيرهم من الأمم فلذلك لم يرض من الصوريين أن يفتدوا منه مدينتهم بالمال والجزية السنوية وتبقى مدينتهم سيدة التجارة تفتح أبوابها لمن تشاء وتغلقها في وجه من تشاء على عادتها بل أراد أن تكون بابل هي سيدة التجارة ومركزها وان تكون صور ميناء لها لا تعارض تجارتها ولا تجارها على ما هي عليه كانتون والاسكندرية وغيرها من مدن التجارة في الشرق بالنظر الى مدن اوروبا التجارية في الوقت الحاضر وهذا ما كان يأباه الصوريون ويرونه موتاً لتجارتهم الواسعة وبالتالي موتاً لعظمتهم وغناهم ولذلك اشتد دفاعهم وطالت مدته كما ألمعنا واشتد صبر نبوخذ نصر وعزيمته حتى كان له الفوز اخيراً . فتمّ له ما أراد واصبحت صور فرضةً لبابل ولتجار بابل يحملون اليها ومنها تجاراتهم غير معارضين

عند متقارب نهر الفرات والدجلة على بضع ساعاتٍ الى الجنوب من مدينة بغداد الحالية على عدوة الفرات كان موقع مدينة بابل عاصمة شنعار او بلاد الكلدان . وهي بلاد جيدة الهواء والماء والتربة وتكاد تكون من اخصب بقاع الدنيا فان غلة المد المزروع من الحنطة لا تنقص عن مئة ضعف وقد تبلغ الاربعماية . ومساحتها لا تقل عن اربعين الف ميل مربع كان الفرات والدجلة يسقيان كل شبرٍ من الارض فيها . والى الشمال الغربي من شنعار ارض الجزيرة وهي اكبر منها مساحة وفيها بقاع لا تقل عنها خصباً والى شرقيها مملكة ايران الحالية والى غربيها صحراء السماوة حتى تبلغ سوريا وشطوط المتوسط

والناظر الى الخارطة يرى الفرات والدجلة اقرب طريقينٍ واسهلها للتجارة يصلانها أي بابل بالبلدان المجاورة الى مسافة مئات من الاميال شمالاً وشمالاً غربياً واما الى الجنوب فيصلانها بخليج فارس فخليج عمان فبحر الهند والعرب ثم باب المندب والبحر الاحمر والمتأمل ايضاً يرى كل طرق البلاد الى الشرق والغرب والشمال والجنوب تنصب اليها او تتفرع منها . وبالاجمال يقال ان موقعها كان في قلب الممالك القديمة ونقطتها من احسن النقط التجارية في ذلك الحين . وقيل ان الذين أسسوها انما اسسوها ابتداء للتجارة فلم تلبث ان صارت اعظم مدن الكلدان ومركزاً للدين والادب ايضاً شأن كل المراكز

التجارية المهمة في الاعصر الخالية . ومضى على تأسيسها نحو من ثلاثة آلاف سنة وهي مركز دين وأدب وتجارة لا يضاهيها في ذلك مدينة من جميع مدن آسيا من المتوسط إلى اطراف خراسان وبلاد السند غرباً وشرقا ومن البحر الاسود الى سواحل حضرموت شمالا وجنوباً . وقد اشتهر أهلها بالصناعة والتجارة شهرة لا تقل عن شهرة الصوريين والصيدونيين وغيرهم من الامم الفينيقية المعروفة والمشهورة

لما قام نبوخذ نصر الكبير وكان يعلم مالمدينته من حسن الموقع التجاري ويعلم ايضاً ما للتجارة من الدخل في عظمة الملوك والممالك توجهت خواطره لجعلها مركز تجارة العالم. وكان فرعون نخو معاصره قد حول طريق تجارة الهند والبلاد العربية من ايلة الى السويس فأراد هو ان يصرف هذا الطريق الى بابل . ولما رأى ان ذلك لا يتم له على ما يريد إلا باخضاع العربية واقامة المستعمرات التجارية الكلدانية فيها وجه غزواته الى ارض البحرين وعمان فاخضعها لسلطته وأقام فيهما المستعمرات التجارية لقومه وهم المعروفون بالنبط فغصت البلدان بأهل سواد العراق ومازالوا هم الغالبون على ارض البحرين ومعظم أهله منهم الى بدء التاريخ المسيحي

ووجه ايضاً غاراته الى نجد والحجاز وممالك حاصور فاخضع جميع البلاد لسطوته من الابلة شرقاً الى ايلة غرباً ومن ايلة شمالا الى المهجم جنوباً والمهجم مدينة على وادي مردد غربي صنعاء عاصمة اليمن واحتل النقط التجارية على البحر الاحمر مابين هاتين المدينتين اعني ايلة والمهجم فتوارد اليها تجار بلاده الانباط وانتشروا في البلاد وسكنوا هناك واختلطوا بتجار العرب وبقي لهم بينهم النفوذ الاول الى ماقبل أيام بمبيوس القائد الروماني الشهير بعقد او بعض عقود من السنين

ولنرجع الآن الى الادوميين فانهم كانوا في اول ماغزا نبوخذ نصر اليهودية يملكون طريق التجارة من ايلة الى الخليج الفارسي فلما غزا ابناء عمهم وافتتح عاصمتهم وخرب بلادهم وسبى عظماءهم وقتل مقاتلتهم ولم يترك في البلاد إلا المستضعفين والمساكين من اهل الفلاحة والزراعة شمتوا بعصبيتهم وحدثوا أنفسهم بضم اليهودية الى املاكهم ولم يعلموا ماكانت الايام وتدابير نبوخذ نصر تعده لهم . وفيما هم في شماتتهم وأحلامهم بضم بلاد اليهودية الى بلادهم اذا بجنود الكلدان واعلامهم تزحف على العربية جنوباً وغرباً فدوخوا نجد والحجاز واستلحموا بني عدنان حتى كادوا يفنونهم فتهاربوا منهم في جميع الجهات الى حضوراء وتهامه وجنوبي اليمن واتبعهم الكلدانيون وغطت خيولهم ورجالهم البلاد من الابلة الى ايلة . فاين ذهب الادوميون؟ لاشك انهم تهاربوا من امام الكلدانيين

الى جهات عاصمتهم سالع او البتراء فلما نزلت جنود الكلدان عليها أصابهم ما أصاب اليهود اي هرب اهل القرى والمزارع وكثيرون من اللاجئين من الاطراف الى الامم المجاورة وبقي من بقي في المدينة تحت الحصار وصبروا على شدته مدة ثم لما لم يروا بداً من التسليم سلموا للمنتصر فقتل من قتل وسبي من سبي وابقى من ابقى اما المدينة فلم يفعل بها ما فعله بأورشليم من الهدم والتحريق بل ابقى عليها وجعلها محطة لقوافل عاصمته فانتقل اليها كثير من التجار ان لم يكن هو نقلهم وجعل على المدينة والياً من قبله فصارت مدينة بابلية أي النفوذ والسيادة فيها للانباط وان كان أهلها خليطاً من الفريقين اعني الادوميين والبابليين ومازالت كذلك كل أيام نبوخذ نصر وأيام خلفائه من ملوك بابل الى ان قامت الدولة الفارسية وورثت ممالك الكلدان ومدن تجارتهم فكانت من جملتها مدينة سالع ولم يتعرض الفرس لهم بشيء وتركوهم على لغتهم وتجارتهم واكتفوا منهم بالخضوع والجزية ولضعف العدنانيين وممالك حاصور بما قتل منهم نبوخذ نصر اصبحت البلاد المجاورة لسالع تبعاً لها ومازالت تتقوى سنة بعد سنة لما لها من المنعة الطبيعية وبما كان يتدفق اليها من غنى التجارة كل ايام دولة الفرس الى ان قامت دولة اليونان فاذا بها مدينة قوية غنية ذات نفوذ في الحجاز ونجد الى خليج فارس ومن ايله الى جنوبي جدة على ساحل البحر الاحمر وبعبارة اخرى اذا بها مدينة نبطية يلتف حولها كل النقط التجارية في الحجاز وتهامة ونجد والبلاد التي كان دوخها نبوخذ نصر تأميناً للتجارة بين عاصمته وبين شواطيء البحر المتوسط والبحر الاحمر عن طريق شمالي العربية . فهذا هو أصل النبطيين في البتراء وايلة الذين ذكرهم لنا التاريخ عند اول قيام الدولة اليونانية . وقد اعتمدت على الاختصار والاجمال في حروب نبوخذ نصر مع العرب لان الكلام طال عن حروبه في اليهودية

كنت أقدر أني أنهي هذه المقالة في العدد الماضي من المقتطف ولكن الكلام تغلغل بي الى اكثر ماقصدت اولا فاستهوتني حروب نبوخذ نصر في اليهودية الى ذكر مسائل كثيرة رأيتها تستنتج من كتابات ارميا النبي التي راجعتها في اثناء كتابتي القطعة المارة . وقد راجعتها لا لأنها كتابات مقدسة فقط بل لأنها ايضاً كتابات رجل معاصر فينبغي الاعتماد عليها والوثوق بها كما يعتمد على الآثار المخطوطة في الاجر البابلي بل هي من بعض الوجوه احرى بالوثوق من كتابات الاجر التي سطرها ملك بابل عن نفسه او سطرها له قوم من مؤرخيه لان هؤلاء كانوا يتزلفون الى مرضاته باعظام شأنه والاطراء له على ما أتى به سواء كان ما أتى به يستحق الاطراء او لا يستحقه على حين ان النبي ارميا لم يدفعه الى

كتابة ما كتبه من اخبار الملك شيء من هذا ولذلك هي كافلنا احرى بالوثوق من كتابات المعاصرين من اهل بابل أيًّا كانوا ومهما كانت صفتهم

كانت بابل في أيام عظمتها الاولى متقدمة على نينوى فلما تقدمتها نينوى عظم عليها ذلك وحاول ملوكها أو ولاتها او اهلها مراراً ان يرجعوا بها الى سابق عهدها من العظمة والسودد فلم يفلحوا الى ان قام نبوبلاسر فاستغنم فرصة انحطاط الاشوريين وحالف الماديين عليهم على ان يكون هو وارث عز اشور وولاياتها في الجزيرة العراقية وجميع البلاد غربي الفرات بل في مصر و بلاد العرب ايضاً فترجع بذلك بابل الى عزها ومكانتها الاولى قبل ان بلغت نينوى ما بلغته في ايام ملوكها العظام الذين كانوا من كبار قادة العصور الخالية

فلما كانت موقعة كركميش وانتصر نبوخذ نصر ذلك الانتصار العظيم على فرعون نخو وجيوشه رأى في انتصاره ماتحقق له تلك الاماني التي كانت تجول في خاطر ابيه فشمر لتحقيقها وما زال يحارب حتى رأى عاصمته مدينة العلم والغنى والدين والسلطة وبعبارة اخرى اعظم مدينة في تلك الايام فانه اخضع لسطوتها الجزيرة العراقية والديار الشامية من كركميش الى غزة بما فيه بادية الشام من الابلة الى ايلة وجعلها كلها ولايات بابلية تدين بطاعته وتؤدي اليه الجزية

وحارب العرب ايضاً في بلادهم فوطىء نجداً والحجاز واستباح اهلها من العرب العدنانيين ودوخ تهامة واليمن وجعلها من ولاياته واسكن قومه من تجار البابليين والكلدان فى قلب اليمن في مخلاف جهران وحقل قتاب وفي اكثر الفرض البحرية من المهجم الى ايلة فضلا عن انه اخضع عمان وارض البحرين . وكانت آخر بلاد حاربها مصر فتغلب على اهلها واذلهم لسطوته ورجع من هناك بالاسلاب والغنائم الكثيرة

ومما هو محقق لا يرتاب فيه انه حارب الادوميين وخرب جبلهم سعير . وقد مرَّ بنا اشارة النبيين ارميا وحزقيال الى الادوميين وما توعداهم به من الخراب والدمار عن يد نبوخذ نصر . فتم هذا الوعيد وكانت جبال عيسو خراباً وميراثه لذئاب البرية في ايام ملاخي (انظر هذا السفر الاصحاح الاول)

لم تطل ايام نبوخذ نصر بعد ان دوخ مصر حتى مضى في سبيله ولكن لم يقم بعده مثله على بابل وربما لم يقم قبله من هو اعظم منه إلا ان يكون الملك حمورابي

وكذلك لم تطل مدة الدولة البابلية بعد وفاته إلا نحواً من ثلاثين سنة . غزا الفرس بعدها بابل تحت قيادة كورش فافتتحوا المدينة وافتتحوا بافتتاحها كل الولايات البابلية التي كانت لنبوخذ نصر لان هذه جميعها خضعت للفرس من غير ان يرمي عليهم سهم واحد في

كل عبر النهر حتى الصوريون كانوا يأتون بخشب الارز من لبنان حسب إذن كورش ملك فارس لهم (انظر سفر عزرا الاصحاح الثالث)

وبقيت لغة الدواوين في الدولة الفارسية على عهدها في ايام نبوخذنصر أي اللغة الارامية فكانت القيود والسجلات والمعاريض تكتب فيها وتترجم اليها ايضاً. وقدذكرنا ماذكرناه توطئة للقول ان هيئة البلاد في فلسطين وشمالي العربية لم تتغير في ايام الدولة الفارسية عما كانت عليه في ايام نبوخذ نصر بل بقيت على حالها نسخة واحدة الى ان قامت دولة اليونان

ولما قام الاسكندر الكبير وغزا مملكة فارس خضعت له امم سوريا وفلسطين التي كانت خاضعة للفرس لم تقم امة منها في وجهه إلا الصوريون ثم مات الاسكندر واقتسم قواده البلاد . وكان من جملتهم انتيغونوس وابنه ديمتريوس وعلى عهد هذين نحو ٣١٦ ق. م ذكرت مدينة البتراء وكانت حينئذ مدينة قوية ذات غنى وتجارة تتجاسر دون غيرها من المدن على مقاومة ديمتريوس بن انتيغونوس وكان اهلوها يعرفون بالنبطيين وكانوا متميزين عمن سواهم من بقية الامم اعني الادوميين والموابيين والعمونيين والعرب واليهود. وواضح مما ذكرناه سابقاً انهم أي النبطيين لم يكونوا في البلاد ايام الفتح البابلي ولا استجدوا فيها على عهد الدولة الفارسية فلم يبق لنا إلا القول انهم نزلوا البتراء في أيام نبوخذنصر وانهم جاءوا من بابل وجوارها لان لغتهم كانت اللغة الارامية

ولننظر الآن فيما يؤيد هذا المدعي ولابد في تأييده من الاستناد على سند تاريخي وهذا السند لانعدمه في اسفار المكابيين فان السفر الاول من هذه الاسفار يذكر لنا الانباط في ايام يهوذا الميكابي واليك ماجاء لصاحب هذا السفر

قال في الاصحاح الخامس والعدد ٢٤ و ٢٥ مانصه

واما يهوذا المكابي ويوناثان اخوه فعبرا الاردن وسارا مسيرة ثلاثة ايام في البرية فصادفا النبطيين (النباطيين) فتلقوهما بسلام وقصوا عليهما كل ما اصاب اخوتهما في ارض جلعاد وان كثيرين منهم قد حصروا في بصرة وباصر وعليم وكسفور ومكيد وقرنايم وكلها مدن حصينة عظيمة وانهم ايضاً محصورون في سائر مدن ارض جلعاد والقوم مستعدون لمحاصرتهم غداً في الحصون والقبض عليهم وابادتهم جميعاً في يوم واحد — الى ان يقول فارسل يهوذا رجالا يكشفون امر الجيش فاخبروه قائلين ان جميع الامم التي حولنا قد انضمت اليهم وهم جيش عظيم جداً وقد استأجروا العرب يظاهرونهم ونزلوا في عبر الوادي

وجاء أيضاً في الاصحاح ٩ والعدد ٣٣ — ٣٥ وبلغ ذلك يوناتان وسمعان اخاه وجميع من معه فهربوا الى برية تقوع ونزلوا على ماء جب اسفار وارسل يوناتان يوحنا أخاه

بجماعة تحت قيادته يسأل النبطيين اولياءه ان يعيروهم عدتهم الوافرة

والذي يظهر من الاعداد التي ذكرناها . اولا ان النبطيين كانوا اولياء ليهوذا المكابي واخوته . ثانياً انهم أمة غير العرب وغير الموابيين والعمونيين والادوميين . ثالثاً ان مركزهم كان يبعد ثلاثة ايام في البرية شرقي الاردن من حيث عبر المكابي بقرب اريحا. رابعاً ان قد كان عندهم عدة وافرة يمكنهم الاستغناء عنها واعارتها . وكل ذلك يشير الى انهم كانوا في البتراء قرب بصرة او باصر لان هذه المسافة أي ثلاثة أيام لا تنطبق على مدينة غير البتراء ويشير ايضاً الى انهم كانوا تجاراً لان عندهم كثيراً من الاسلحة يستطيعون ان يعيروها

ومن يراجع سفر المكابيين في الاصحاح الخامس يرى ان اول مدينة وصلها يهوذا واخوه بعد ان تركها اصحابهم النبطيون كانت مدينة باصر او بصرة ثم انصرفا من هناك الى المصفاة وهذا لا يدع مجالا للشك ان النبطيين كانوا في البتراء لان باصر او بصرة اقرب مدينة اليها اذا توجه اليها جهة البرية

ثم يظهر لنا من مراجعة تاريخ يوسيفوس انه كان يعتمد على سفر المكابيين وقد تابعه حرفاً بحرف ومآل هذه المتابعة انه كان يعرف النبطيين المشار اليهم وانهم قوم متميزون عن الادوميين والعرب والعمونيين وكتاباته صريحة ان البتراء كانت مدينتهم وانهم مازالوا على استقلالهم عن العرب الى ايام اسكندر جانيوس بن ارستو بولوس بن يوحنا هركانوس ابن سمعان اخي يوناتان ويهوذا المكابي فانه بعد وفاة هذا الملك اليهودي ورد اول ذكر يفهم منه ان الانباط او النبطيين في البتراء خضعوا للعرب وكان لارمياس ملكهم قصر فيها أي في البتراء . ومن ذلك الحين فما بعده اخذ ملوك العرب الاريتاسيون (أي الذين اسماء ملوكهم اغلبها اريتاس او حارثة) يلقبون ملوك النبط ويطلق عليهم تارة لقب ملك العرب وأخرى ملك النبط ومع ذلك كان ظاهراً جلياً ان الجنسية مختلفة بين العرب والنبط وان كان الملك واحداً . وما زال الامر كذلك الى ان انقرض ملك هؤلاء عن البتراء وجعلت ولاية رومانية سنة ١٠٥ بعد المسيح

ماذا يعرف مؤرخو العرب عن النبط

يعرف العرب ومؤرخو العرب ان النبط غير العرب وانهم كانوا يسكنون أرض البحرين وسواد العراق وأن كان منهم قوم يعرفون بانباط الشام وانهم كانوا في عمان ايضاً وفي قلب البلاد اليمنية في حقل قتاب واعالي جهران اما في عمان فاستعربوا وأما في أرض البحرين فمع ان العرب أزالوهم من هناك وسكنوا مكانهم في هجر البحرين وذلك في بدء التاريخ المسيحي

او قبله بمدة غير معروفة إلا انها ليست طويلة عاد الانباط فكثروا في أرض البحرين حتى غلبت نبطيتهم على عروبية العرب وعليه المثل المشهور المتواتر عند العرب اهل عمان نبط استعربوا وأهل البحرين عرب استنبطوا . وفي اول الفتوحات الاسلامية كانوا يسمون الموالي ايضاً وكانوا في سواد العراق من البصرة الى الكوفة

وكان اكثر اصحاب المصانع وارباب التجارة هناك منهم واشتهر بعضهم بالبخل وقرض الاموال بالرباء لرؤساء القبائل العربية واشتغل بعضهم بالعلم والفقه وكان منهم كثيرون من علماء النحو واللغة واستقضى منهم جماعة منهم نوح بن دراج . وكانوا يعيرون بجهل انسابهم وعليه يروى الحديث عن الامام عمر بن الخطاب لاتكونوا كنبط السواد اذا سئل احدهم عن نسبه قال انا من بلد كذا. وبالاجمال نقول ان العرب يعرفون الانباط معرفة تامة لا اشتباه فيها منذ اوائل التاريخ المسيحي الى اليوم وليس منهم يشتبه عليه الفرق بينهم وبين العرب . لكن ليس من ينكر ايضاً ان الانباط هم والعرب من الفصيلة السامية فان العرب يرجعون الى سام عن طريق يقطان بن عابر بن شالح بن ارفكشاد والنبط يرجعون اليه رأساً فانهم اولاد أرام بن سام وقد اختلط هؤلاء الاراميون من عهد بعيد جداً بالعرب وامتزجوا بهم في الديار البابلية فانقلب العرب هناك انباطاً وانقلب النبط في شبه جزيرة العرب عرباً . قيل ويرجح هذا القول ان الكلدان في عهد نبوخذنصر كانوا عرباً سكنوا بلاد بابل ويظن البعض ان لفظ الكلدان محرف عن بني خالد قبيلة لاتزال عرباً الى حد هذه الساعة في تلك الجهات قرب الحفير وما يجاوره

عود على بدء

قام نبوخذ نصر على عرش بابل نحو سنة ٦٠٧ قبل المسيح فوجه غزواته الى الحجاز ونجد واستلحم المدنانيين هناك حتى كادوا يفنون وضرب الادوميين وخرب جبلهم سعير واخذ منهم مراكزهم التجارية التي كانوا اقاموها بين ايلة وخليج فارس وكان قبل ذلك حارب ابناء عمهم في اليهودية وأجلا قسماً كبيراً منهم الى بلاد بابل وهرب كثيرون ممن بقي الى ارض مصر فقل الساكن في بلادهم وكانت أخصب بالطبع من اكثر أراضي ادوم فانتقل كثيرون من الادوميين وسكنوا في جنوبي يهوذا الى مدينة حبرون المعروفة اليوم بالخليل ولما اشتد عليهم نبوخذ نصر وأخذ مدينتهم سالع (البتراء) وما سواها من المراكز التجارية في تيماء والحجر تهارب كثيرون من وجهه وسكنوا في اليهودية ايضاً وخلت بلادهم من كثيرين منهم . وقد ألمحنا ان نبوخذ نصر كان تاجراً وملك قوم تجار وانه قصد

ان يحول وحول طريق التجارة عن ايلة والسويس الى عاصمة بلاده . فمن المستحيل اذن ان يخرب المراكز التجارية بين خليج فارس وشواطىء المتوسط فلابد إذن من ان يكون بعد حروبه في شمالي العربية قد اسكن هذه المراكز اقواماً لا يخاف عاديتهم ومن غير العرب الذين حاربهم ايضاً وكاد يفنيهم وليس من يقوم بهذه المهمة قياماً احسن من قومه التجار من بابل وجوارها فجاءوا واستوطنوا تلك الجهات ومن جملتها الحجر وتيماء والبتراء وغير هذه من المراكز التجارية البرية وعلى سواحل البحر الاحمر وخالطهم في جميع هذه المراكز ضعفاء الادوميين اصحابها الاولين وبعض العرب ولعل الادوميين كانوا اكثر عدداً أو يماثلون النبط إلا ان العز والصولة كانا للنبط لان الدولة منهم والتجارة في ايديهم . وما زالوا كذلك كل ايام نبوخذ نصر وأيام خلفائه الى ان قامت الدولة الفارسية فلم تتعرض لهم وتركتهم وشأنهم وحكمهم حكم غيرهم من الامم الخاضعة لهم . بل كان الفرس من جهة خيراً لهؤلاء المستعمرة من النبط من نفس دولتهم البابلية لان الفرس لم يكونوا تجاراً فلم يزاحموهم على تجارتهم وضعفت تجارة بابل بما كان من انتقال دار الملك عنها فقلت مزاحمة اهلها لهم واصبح قسم عظيم من التجارة ينقل رأساً الى محطاتهم التجارية من غير ان يمر على بابل اي رأساً من خليج فارس فكثر غناهم مع الايام وعلى نسبة ذلك زاد من قوتهم واصبح العرب حملة لتجارتهم ومصرفين بأمرهم . وانتقل اليهم عز الادوميين وسلطتهم واصبح كثير من قبائل العرب ينفرون على صراخهم اذا استصرخوهم وبقوا على ذلك نحواً من ٢٠٠ سنة ولما احتك بهم القائد اليوناني انتيغونوس وابنه ديمتريوس بعد موت الاسكندر وجدهم على ماوجدهم عليه من القوة ووجد ألوفاً من قبائل العرب حواليهم ينفرون معهم اذا استنفروهم وبقوا على عزهم هذا حقبة من الدهر إلا ان الايام لا تدوم على حالة واحدة فان البطالسة قاموا في مصر واصبحت تراثاً لهم فوجهوا عنايتهم الى البلاد فازدادت سكاناً وازدادت علماً وصناعة وتجارة فاصبح كثير من مواني البحر الاحمر في ايديهم وغيروا خطة التجارة شيئاً عما كانت عليه فتحول قسم كبير من التجارة عن البتراء وكذلك اضطربت الاحوال في بابل والجزيرة وخليج فارس وكثرت الحروب والمخاصمات هناك وقامت سلوقية تزاحم بابل على التجارة فضعف شأنها نوعاً عما كان عليه قبلا . وفوق ذلك انشأ ملوك سوريا في انطاكية خطاً تجارياً من العراق الى مدينتهم فقلل هذا شيئاً من اهمية البتراء وقل غناها على نسبة ذلك فقلت قوتها . وعادت العرب فكثرت في البلاد حولها في بلاد مواب وبني عمون وما بين غزة وجبال الشراة والظاهر ان كثيرين من عرب اليمن وحضرموت من قبائل قضاعة هاجروا في بداية المئة الاخيرة قبل المسيح الى جهات

فلسطين وسوريا فاصبح لهم شأن وشوكة واجتمعت حولهم كلمة العرب لما اعتاده العدنانيون من الانقياد اليهم فاضعف ذلك من سطوة البتراء ونفوذ تجارها ورؤسائها وخالط رؤساء العرب هؤلاء اهل البتراء لانهم اهل حضارة مثلهم وعمروا قصورهم في مدينتهم فكانوا يقوون سنة بعد سنة ويكثرون واولئك باقون على ماكانوا عليه إن لم نقل انهم كانوا يضعفون وما زالوا كذلك حتى كثر العرب النبط واصبحوا ذوي السؤدد والرئاسة دونهم وانتقل اليهم الامر فاصبحوا ملوكاً عرفوا بملوك النبطيين في البتراء ولا يبعد انهم كان لهم ملك خاص قبل ان استولوا على البتراء وجعلوها عاصمة لهم في ايام اريتاس معاصر بمبيوس القائد الروماني المشهور بل لا يبعد انهم استولوا على هذه المدينة قبل زمن بمبيوس فكان لهم رئاسة وسؤدد فيها ولكن لم يكن لهم ملك على شاكلة ماكان لهم في ايام اريتاس هذا ومن جاء بعده الى ان انقرض ملكهم في سنة ١٠٥ قبل المسيح كما المعنا

وخلاصة مانختم به بحثنا هذا ان الانباط خليط من الادوميين وتجار من الكلدانيين والبابليين الذين جاءوا الى البتراء في ايام نبوخذنصر وانضم اليهم من حين الى آخر من تحضر حواليهم من العرب العدنانيين اولاد اسماعيل ثم انضاف الى هؤلاء كثيرون من مشايخ ورؤساء القحطانيين من بني قضاعة الذين هاجروا من اليمن وحضرموت في اول المئة الاولى قبل المسيح او ماقبل ذلك بمدة قصيرة . ولا يبعد ان يكون انضم اليها ايضاً كثيرون من اليهود كانوا يسقطون عليهم من حين الى آخر للتجارة تارة وللاحتماء بهم تارة اخرى فان الذين سكنوا المدينة وجهات خيبر وكثروا هناك لايستبعد عليهم ان يسكنوا في البتراء ايضاً فامتزجت كل هذه القبائل معاً في مدينة البتراء وعرفوا بالنبط إلا اني ارجح مما مر ان الدم الغالب فيهم هو دم العشيرة الارامية عشيرة ابراهيم الخليل. ومن البتراء انتقلوا الى مكة والطائف ومنهم نشأت بيوت من اعظم بيوتات العالم كما سنبين ذلك في المستقبل ان شاء الله

قيدار وممالك حاصور

استلفات نظر اصحاب الانسكلو بيديات ومعاجم الكتاب

في اثناء بحثي عن اصل الانباط في البتراء راجعت ما كتب في سفر ارميا النبي عن غزوات نبوخذنصر (او بختنصر) وهي كتابة يعتمد عليها لان النبي كان من معاصري نبوخذنصر ومن ثم فالوارد عنه في سفره هو من اصح واثبت ما جاء عن هذا الملك لا يدانيه في الصحة شيء الا ما ورد في الآجر البابلي مما كتبه بختنصر نفسه او احد معاصريه فوجدت ان من جملة الامم التي حاربها بختنصر القيداريين وممالك حاصور . اما القيداريون فمن وصفهم لا يشك محقق انه يعني بهم العرب المدنانيون في الحجاز وشمالي العربية . واما ممالك حاصور فلا يزال فيها رأي لباحث

راجعت الانسكلو بيديا البريطانية فلم أر فيها أدنى اشارة الى هذه الممالك ومثلها الانسكلو بيديا الاميركانية فقلت دعني انظر في تفسير الكتاب للعلامة بوتلر وهو من احدث كتب التفاسير ومن اشهرها فنظرت فلم اجد فيه ما يشفي فانقلبت الى معاجم الكتاب فراجعت احدثها عهداً واشهرها فلم أر فيها ما يزيد عما في غيرها مما اطلعت عليه . الا ان العلامة هيستن في معجمه الشهير المطبوع سنة ١٨٩٨ — ١٩٠٢ اشار الى رأي العلامة كونور فقال في آخر ما ذكره عن لفظ حاصور نقلا عن العلامة المومإ اليه انها مكان غير معروف في بلاد العرب يذكر مع قيدار وان نبوخذنصر حارب اهله . والاشارة في غاية الاختصار لا تزيد عن السطرين وقد ذكرت معناها على ما بقي في ذهني لا ترجمتها الحرفية فمن شاء فليراجع معجم هذا العلامة في باب حاصور

كان في ذهني من قبل ان بلاد اليمن من جملة البلدان التي حاربها نبوخذ نصر فحدست ان ممالك حاصور هذه هي بلاد اليمن او قسم منها لان اشارة ارميا النبي — اهربوا انهزموا جداً تعمقوا في السكن يا سكان حاصور الخ — لا تنطبق على حاصور مدينة يابين بقرب بحيرة الحولة فانقلبت الى كتب التاريخ العربية ابحث عما يقوم دليلا على صحة ما حدسته فراجعت العلامة ابن خلدون والمسعودي فرأيتهما في حروب نبوخذ نصر في بلاد العرب يقرنان ذكر بني حضورا بالعرب العدنانيين كما يقرن ارميا النبي ممالك حاصور بالقيداريين والمستنتج من ذلك لا يكاد يُشكُّ به على ما ارى اي ان بني حضورا وممالك حاصور هما اسمان لمسمى واحد كما ان قيدار والعرب العدنانيين اسمان ايضاً والمسمى واحد ولاسيما اذا

فلسطين وسوريا فاصبح لهم شأن وشوكة واجتمعت حولهم كلمة العرب لما اعتاده العدنانيون من الانقياد اليهم فاضعف ذلك من سطوة البتراء ونفوذ تجارها ورؤسائها وخالط رؤساء العرب هؤلاء اهل البتراء لانهم اهل حضارة مثلهم وعمروا قصورهم في مدينتهم فكانوا يقوون سنة بعد سنة ويكثرون واولئك باقون على ما كانوا عليه إن لم نقل انهم كانوا يضعفون وما زالوا كذلك حتى كثر العرب النبط واصبحوا ذوي السؤدد والرئاسة دونهم وانتقل اليهم الامر فاصبحوا ملوكاً عرفوا بملوك النبطيين في البتراء ولا يبعد انهم كان لهم ملك خاص قبل ان استولوا على البتراء وجعلوها عاصمة لهم في ايام اريتاس معاصر بمبيوس القائد الروماني المشهور بل لا يبعد انهم استولوا على هذه المدينة قبل زمن بمبيوس فكان لهم رئاسة وسؤدد فيها ولكن لم يكن لهم ملك على شاكلة ما كان لهم في ايام اريتاس هذا ومن جاء بعده الى ان انقرض ملكهم في سنة ١٠٥ قبل المسيح كما المعنا

وخلاصة ما نختم به بحثنا هذا ان الانباط خليط من الادوميين وتجار من الكلدانيين والبابليين الذين جاءوا الى البتراء في ايام نبوخذنصر وانضم اليهم من حين الى آخر من تحضر حواليهم من العرب العدنانيين اولاد اسماعيل ثم انضاف الى هؤلاء كثيرون من مشايخ ورؤساء القحطانيين من بني قضاعة الذين هاجروا من اليمن وحضرموت في اول المئة الاولى قبل المسيح او ما قبل ذلك بمدة قصيرة . ولا يبعد ان يكون انضم اليها ايضاً كثيرون من اليهود كانوا يسقطون عليهم من حين الى آخر للتجارة تارة وللاحتماء بهم تارة اخرى فان الذين سكنوا المدينة وجهات خيبر وكثروا هناك لا يستبعد عليهم ان يسكنوا في البتراء ايضاً فامتزجت كل هذه القبائل معاً في مدينة البتراء وعرفوا بالنبط إلا اني ارجح مما مر ان الدم الغالب فيهم هو دم العشيرة الآرامية عشيرة ابراهيم الخليل . ومن البتراء انتقلوا الى مكة والطائف ومنهم نشأت بيوت من اعظم بيوتات العالم كما سنبين ذلك في المستقبل ان شاء الله

قيدار وممالك حاصور

استلفات نظر اصحاب الانسكلو بيديات ومعاجم الكتاب

في اثناء بحثي عن اصل الانباط في البتراء راجعت ما كتب في سفر ارميا النبي عن غزوات نبوخذنصر (او بختنصر) وهي كتابة يعتمد عليها لان النبي كان من معاصري نبوخذنصر ومن ثم فالوارد عنه في سفره هو من اصح واثبت ما جاء عن هذا الملك لا يدانيه في الصحة شيء الا ما ورد في الاجرّ البابلي مما كتبه بختنصر نفسه او احد معاصريه فوجدت ان من جملة الامم التي حاربها بختنصر القيداريين وممالك حاصور . اما القيداريون فمن وصفهم لا يشك محقق انه يعني بهم العرب العدنانيون في الحجاز وشمالي العربية . واما ممالك حاصور فلا يزال فيها رأي لباحث

راجعت الانسكلو بيديا البريطانية فلم أر فيها أدنى اشارة الى هذه الممالك ومثلها الانسكلو بيديا الاميركانية فقلت دعني انظر في تفسير الكتاب للعلامة بوتلر وهو من احدث كتب التفاسير ومن اشهرها فنظرت فلم اجد فيه ما يشفي فانقلبت الى معاجم الكتاب فراجعت احدثها عهداً واشهرها فلم أر فيها ما يزيد عما في غيرها مما اطلعت عليه . الا ان العلامة هيستن في معجمه الشهير المطبوع سنة ١٨٩٨ — ١٩٠٢ اشار الى رأي العلامة كونور فقال في آخر ما ذكره عن لفظ حاصور نقلا عن العلامة المومإ اليه انها مكان غير معروف في بلاد العرب يذكر مع قيدار وان نبوخذنصر حارب اهله . والاشارة في غاية الاختصار لا تزيد عن السطرين وقد ذكرت معناها على ما بقي في ذهني لا ترجمتها الحرفية فمن شاء فليراجع معجم هذا العلامة في باب حاصور

كان في ذهني من قبل ان بلاد اليمن من جملة البلدان التي حاربها نبوخذ نصر فحدست ان ممالك حاصور هذه هي بلاد اليمن او قسم منها لان اشارة ارميا النبي — اهربوا انهزموا جداً تعمقوا في السكن يا سكان حاصور الخ — لا تنطبق على حاصور مدينة يابين بقرب بحيرة الحولة فانقلبت الى كتب التاريخ العربية ابحث عما يقوم دليلا على صحة ما حدسته فراجعت العلامة ابن خلدون والمسعودي فرأيتهما في حروب نبوخذ نصر في بلاد العرب يقرنان ذكر بني حضورا بالعرب العدنانيين كما يقرن ارميا النبي ممالك حاصور بالقيداريين والمستنتج من ذلك لا يكاد يُشكُّ به على ما ارى اي ان بني حضورا وممالك حاصور هما اسمان لمسمى واحد كما ان قيدار والعرب العدنانيين اسمان ايضاً والمسمى واحد ولاسيما اذا

أعتبرت المشابهة اللفظية الواضحة بين حاصور وحضور. فبقي عليَّ تحقيق موقع حضور او حضورا في اي نقطة هو من البلاد العربية

فقلت اراجع الهمداني صاحب وصف جزيرة العرب فلعله يذكر شيئاً عن ذلك فراجعته فاذا به يذكرما احببتُ ان يذكره .واليك النقول الآتية عن كل من هؤلاء الائمة الاعلام

عن العلامة ابن خلدون

قال هذا العلامة في الجزء الثاني من تاريخه المشهور طبعة بولاق صفحة ١٦٠ وبختنصر هذا الذي غزا العرب وقاتلهم واستباحهم. قال هشام بن محمد اوحى الله الى ارميا النبي يأمر بختنصر ان يفرّق العرب الذين لا اغلاق لبيوتهم ويستبيحهم بالقتل . قال فوثب بختنصر على من وجده ببلاده من العرب الميرة فحبسهم ونادى بالغزو وجاءت منهم طوائف مستسلمين فقبلهم وانزلهم بالانبار والحيرة. وقال غير هشام ان بختنصر غزا العرب بالجزيرة وما بين ايلة والابلّة وملأها عليهم خيلا ورجالا ولقيه بنو عدنان فهزمهم الى حضورا واستلحمهم اجمعين. وقال وجه ٢٣٧ من الجزء المذكور . يقال في مبدإ كونهم هناك ان بختنصر لما سلطه الله على العرب — قتل اهل الوبر بناحية عدن اليمن نبيهم شعيب بن ذي مهدم — فاوحى الله الى ارميا بن حزقيا وبرخيا ان يسيّرا بختنصر الى العرب الذين لا اغلاق لبيوتهم وان يقتل ولا يستحيي ويستلحمهم اجمعين ولا يبقي منهم اثراً — وسار الى العرب وقد نظم ما بين ايلة والابلّة خيلا ورجلا وتسامع العرب باقطار جزيرتهم واجتمعوا للقائه فهزم عدنان اولاً ثم استلحم الباقين ورجع الى بابل وجمع السبايا فانزلهم بالانبار ثم خالطهم بعد ذلك النبطة

وقال ايضاً وجه ٢٣٩ من الجزء المار ذكره. وغزا بختنصر العرب واستلحمهم وهلك عدنان وبقيت بلاد العرب خراباً. قال السهيلي وكان رجوع معدّ الى الحجاز بعد ما دفع الله بأسه عن العرب ورجعت بقاياهم التي كانت بالشواهق الى مجالاتهم بعد ان دوخ بختنصر بلادهم وخرب معمورهم واستأصل حضورا واهل الرسّ التي كانت سطوة الله بالعرب من اجلهم

وقال وجه ٢٤٣ من الجزء المذكور . ومن كعب بن زيد الجمهور ويلقب كعب الظلم ابناء سبأ الاصغر بن كعب واليه ينتهي نسب ملوكهم التبابعة ومن زيد الجمهور بنو حضور ابن عدي بن مالك بن زيد وقد مر ذكرهم وتقول اليمن ان منهم كان شعيب بن ذي مهدم النبي الذي قتله قومه فغزاهم بختنصر فقتلهم . وقيل هو حضور بن قحطان الذي اسمه في التوراة يقطان ومنهم ايضاً بنو ميتم وبنو إحالة ابني سعد بن عوف بن عدي بن مالك اخي ذي رُعين . وعوف هذا اخو حضور واخوه أحاظة وميتم بنو حراز بن سعد

عن العلامة المسعودي

وقال العلامة المسعودي في كتابه مروج الذهب الجزء الاول وجه ٢٢٦ وكانت (اي بنو حضورا) امة عظيمة ذات بطش وشدة فغلبت على كثير من الارض والممالك وقد تنازع الناس فيهم فمنهم من الحقهم بمن ذكرنا من العرب البائدة ممن سمينا ومنهم من رأى انهم من ولد يافث بن نوح وقيل في انسابهم غير ما ذكر من الوجوه . وقد كان بعث الله عز وجل اليهم شعيب بن ذي مهدم بن حضورا نبياً ناهياً عما كانوا عليه وهذا غير شعيب بن نوفل ولما بعث الى حضورا واشتد كفرهم جدَّ نبيهم شعيب بن ذي مهدم في دعائهم وخوفهم وتوعدهم فقتلوه فاوحى الله الى نبي كان في عصره وهو برخيا وكان من سبط يهوذا — ان يأتي بختنصر وكان بالشام — فيأمره ان يغزو العرب الذين لا اغلاق لبيوتهم فلما اتى برخيا ذلك الملك قال له الملك صدقت لي سبع ليال أومر في نومي بما ذكرت وانادي بمجيئك الي وأبشّر ويقال لي ما امرتني به وانا انتصر للنبي المقتول المظلوم . فسار اليهم فى جنوده وغشي ديارهم فى عساكره وصاح بهم صائح من السماء وقد استعدوا لحربه من حيث عم الصوت جميعهم . فلما سمعوا ذلك علموا ان الامر قد نزل بهم فانفضّت جنودهم وتفرّقت جموعهم وولّت كتائبهم واخذهم السيف فحصدوا اجمعين

عن العلامة الهمداني

جاء لهذا العلامة فى كتابه وصف جزيرة العرب طبع ليدن سنة ١٨٨٤ وجه ١٠٦ ما نصه قال

مخلاف حضور وهو حضور بن عدي بن مالك من ولده شعيب النبي بن مهدم بن ذي مهدم بن المقدم بن حضور عليه السلام وهو الذي قتله قومه ويقال قتله اهل حضورى وعربايا وكان بُعث اليهم. فسافلة حضور ريناغ وشمّ وماضخ وصابح والاغيوم وبرْيش ومنهم بحزا وعَلْسان فهذه سافلة حضور. وبحضور الصيد وهم يتهمدنون ويقال انهم من حمير وهم غير صيد همدان. وعالية حضور واضع والمَعْلَل وحقل سهمان . انتهى

ترى مما ذكره الهمداني صراحة ان هذا المخلاف هو فى منتصف بلاد اليمن على مقربة من صنعاء وانه نسب الى حضور بن عدي بن مالك وابن خلدون يصرح ان حضور هو من نسل زيد الجمهور الذي ينتهي اليه نسب التبابعة وعليه فبنو حضورا كانوا التبابعة في ايام نبوخذنصر وكان لهم ملك اليمن وتهامة معاً . وهذا مما تناسبه عبارة المسعودي — اي

انهم كانوا امة ذات بطش وشدة وقد غلبت على كثير من الممالك

ثم اذا صدقنا قول اهل اليمن عن انفسهم فى تواريخهم او تقاليدهم علمنا ان شعيب بن ذي مهدم كان من امراء آل حضور فانّ هذه الاضافة — اي ذي مهدم — تشعر بذلك ولها نظائر عندهم كذي الكلاع وذي يزن وذي شعر الخ فانها كلها اسماء امكنة أضيف اليها كما صرح المسعودي بذلك . وشبيه بها عبارة مؤرخي المولدين فى قولهم مثلا صاحب صور وصاحب طرابلس وصاحب الشوبك وصاحب سيجر وامثال ذلك كثيرة ولعلهم اتبعوا اصطلاح من سبقهم انما ابدلوا ذي بمعناها اعني صاحب . وعليه فمهدم اسم البلد التي كان ابوه اميراً عليها . والمهدم ولا شك يراد بها مدينة المهجم الحالية وهي من امهات مدن تهامة اما المشابهة اللفظية فواضحة فان الجيم والدال يقرب لفظ احدها من الآخر بل كثيرون لا يلفظون الجيم الا دالا فاذا قلت لهم قولوا مهجم قالوا مهدم . واما المشابهة في الصفة فابن خلدون يقول كما نقلنا عنه ان اهل الوبر فى ناحية عدن اليمن قتلوا نبيهم شعيب ابن ذي مهدم واهل تهامة كانوا ولا يزالون لحد هذه الساعة اهل وبر والمهجم من امهات مدنهم وربما كانت ايضاً عاصمتهم فى ذلك الحين فالوصف الذي ذكره ابن خلدون منطبق عليها

دعنا الآن نذكر محصّل ماجاء عن نبوخذنصر في سفري ارميا وحزقيال وسفر الملوك الثاني اما النبيان فكانا معاصرين لنبوخذنصر واما صاحب سفر الملوك فكان بعده بقليل وربما عاصره مدة على الراجح . ثم محصل ما جاء عنه فى تواريخ العرب وتقاليدهم على ما رأيت فى النقول التي نقلنا وبعد ذلك ننظر فى مقابلة المحصلين احدها بصاحبه فان في الواحد ما يفسر بعض ما فى الآخر من الابهام كما سترى : —

في اواخر ملك يوشيا ملك يهوذا صعد فرعون نخو بجيوشه يقصد كركميش على الفرات شمالي حلب فاعترضه يوشيا ملك يهوذا في بقعة مجدو فاصابه الرماة بسهم فجرح جرحاً مميتاً ونقله عبيده من المركبة التي كان يحارب فيها متنكراً الى مركبته الثانية ورجعوا به الى اورشليم فمات هناك ودفن فى قبور آبائه وملّك اليهود ابنه يهواحاز بدلا منه . الا ان فرعون نخو عاد من كركميش بعد ثلاثة اشهر ومر باورشليم فعزل يهواحاز واخذه اسيراً الى مصر ونصب مكانه اخاه الياقيم بعد ان ضمن له ما غرم به الارض من وزنات الفضة والذهب وسماه يهوياقيم

وبعد اربع سنوات من موت يوشيا كانت موقعة كركميش التقت فيها جيوش نبوخذنصر بجيوش المصريين فكانت حرباً هائلة دارت فيها الدائرة على جيوش نخو وفاز البابليون على المصريين فوزاً كبيراً فارتد هؤلاء الى بلادهم مهزومين وتعقبهم نبوخذنصر حتى جاء الى اورشليم

فلم يكن من يهوياقيم ادنى مقاومة فقيده نبوخذنصر ليذهب به الى بابل الا انه عاد فاستبقاه عاملا له وما زال يهوياقيم عبداً لنبوخذنصر ثلاث سنوات ثم عصى عليه وعاد الى موالاة المصريين الى ان مات في السنة الحادية عشرة من ملكه وملك ابنه يهوياكين بدلا منه

وفى اواخر ملك يهوياقيم جاءت جيوش البابليين الى اليهودية وبعد ثلاثة اشهر من ملك يهوياكين شدد نبوخذنصر الحصار على اورشليم فلم يعد يهوياكين يقوى على المدافعة فاستسلم هو وأمه وعبيده ورؤساؤه وخصيانه لنبوخذنصر فاخذهم الى بابل وسبى معهم سبعة آلاف من اقوياء الارض واصحاب البأس فيها فضلا عن الابطال اهل الحرب وفضلا عن الصناع من النجارين والحدادين

ولم يذكر في سفر ارميا ولا في سفر حزقيال ولا في سفر الملوك ما السبب في عصيان يهوياقيم على ملك بابل بعد ان استعبد له ثلاث سنوات . على ان ارميا النبي يشير الى اسم القبائل العربية ددان وتيماء وبوز وكل ملوك العرب وكل ملوك اللفيف الساكنين في البرية وكل ملوك زمري وان هذه الامم كلها كانت عند موقعة كركميش او بعدها بقليل حرباً لنبوخذنصر ومن جملتهم قيدار وممالك حاصور وان نبوخذنصر كان يعد لحرب هؤلاء عن آخرهم. وهذه عبارته في شأن ممالك حاصور قال « اهربوا انهزموا جداً تعمقوا في السكن يا سكان حاصور يقول الرب لان نبوخذنصر ملك بابل قد اشار عليكم مشورة وفكر عليكم فكراً »

وجاء في سفر الملوك انه لما عصى يهوياقيم على نبوخذنصر بعد ان استعبد له ثلاث سنين ارسل الرب عليه غزاة الكلدانيين وغزاة الاراميين والعمونيين والموابيين ولم يذكر نبوخذنصر ولا جيوشه حينئذ وانما ذكره في ابتداء ملك يهوياكين فلماذا لم يأت نبوخذنصر او على الاقل لماذا لم يرسل جيوشه لحرب من عصى عليه بعد ان واثقه على الطاعة ولماذا اخر غزوه والاقتصاص منه اربع سنوات تقريباً. ثم لما تحرك نبوخذنصر وسار بجيوشه على اورشليم يقول صاحب سفر الملوك هذه العبارة يعترض بها اعتراضاً — «ولم يعد ملك مصر يخرج من ارضه لان ملك بابل اخذ من نهر مصر الى نهر الفرات كل ما كان لملك مصر» كل هذا مما يحتاج الى تفسير ولا يفسره الا حروب ملك بابل في حاصور على ما ارى فلنتقدم اذن لذكر محصل ما يُفهم من النقول التي نقلناها آنفاً عن ابن خلدون والمسعودي والهمداني

يتحصل منها ان بني حضورا وهم ممالك حاصور كانوا ملوك اليمن في ذلك الحين وان عاصمتهم كانت صنعاء او مدينة أخرى بقرب صنعاء ولعلها مدينة حاز في مخلاف حضور فان الهمداني يذكر انها مدينة قديمة وفيها آثار جاهلية وكانت تهامة تابعة لهم. ويتحصل ايضاً ان

شعيب نبي بني حضورا وابن صاحب المهجم كان من اشياع نبوخذنصر وحكمه في قومه كحكم ارميا في اليهود فلما قتله قومه من اهل الوبر في تهامة استنجد اهله او حزبه بختنصر وكان حينئذ في اليهودية وجهاتها يفكر في غزو العرب وبلاد اليمن ليلتحقها باملاكه كما فعل من سبقه من ملوك اشور وقوادها العظام فسار اليهم ليثأر منهم بدم النبي المقتول. وكان مسيره بعد ان مر باورشليم في الرابعة من ملك يهوياقيم . وهنا نقول انه لاقى من الصعوبات في غزو هذه البلاد اشدّ مما لقيه الرومان في اوائل التاريخ المسيحي في ايام اوكتافيوس قيصر ذلك لان هؤلاء لم يحتاجوا الى قطع الصحراء الشمالية لانهم ساروا بالسفن من مصر حتى بلغوا الحوراء فنزلوا عليها ومن هناك دخلوا تهامة واليمن واما هو فاضطر الى قطع الصحراء ومحاربة العدنانيين او قيدار اولا وبعد ان استباحهم استمر على غزوته خلفهم الى تهامة وحضورا. وعليه فقد لاقى من المشقات اضعاف ما لاقاه الرومان ولا سيما ان المصريين كانوا عليه لا معه ومن اشد خصومه ايضاً ولا يبعد انهم انجدوا اهل حضورا وامدّوهم بالمال والرجال . ولا يبعد ايضاً بل هو مما يجوز لنا ترجيحه ان قد توجهت عليه غلبة او غلبات احياناً فاشيع خبر انغلابه في سوريا وفلسطين اشاع ذلك خصومه المصريون فارتد بذلك كثيرون من الشعوب عن طاعته ومن جملتهم اليهود . وهذا مما يفسر لنا سبب عصيان يهوياقيم على بختنصر بعد ان استعبد له ثلاث سنين على ضعف سياسته وتفرق قلوب اهل مملكته عنه. ويفسر لنا ايضاً ما جاء به صاحب سفر الملوك من انه لما عاد يهوياقيم فتمرد على بختنصر ارسل عليه الرب غزاة الكلدانيين والاراميين ولم يقل جيش الكلدانيين ولا بختنصر ملكهم لانه لم يكن حينئذ يستطيع ان يحضر بنفسه ولا ان يرسل اليهم جانباً كبيراً من جنوده لانه كان منهمكا بحروبه في اليمن وتهامة وكانت الحرب شديدة لا تؤذن له ان يوجه جيشاً كبيراً منظما ليقتص من اليهود فارسل من ثم شراذم غزاة فالتف عليهم قوم من الاراميين والموابيين والعمونيين اعداء اليهود وكان من هم هؤلاء الغزاة مضايقة اليهود واعناتهم بالغزو على اطراف بلادهم وقطع السابلة على تجارهم وقوافلهم الى ان يكون فرغ بختنصر من حرب العرب . ومما يستوجب الفكرة أن لم يكن بين هؤلاء الغزاة على يهوياقيم احد من الادوميين ولعل ضلعهم كان مع اليمنيين على بختنصر كما كان ضلع مَن خلفهم من الانباط مع اهل اليمن على الرومانيين

وقد استمرت هذه الحرب على ما يظهر نحواً من ثلاث سنين خرج منها بختنصر مظفراً غالباً ودانت له عند نهايتها البلاد كلها من نهر مصر الى نهر الفرات وفرغ حينئذ لحرب اليهود فلم يلبث ان استسلم اليه يهوياكين ملكهم بعد ثلاثة اشهر من الحصار كما ذكرنا

هذا ما خطر لي في التحقيق عن ممالك حاصور ولا اشك ان من يقابل كما قابلت ويراجع ما راجعته يتبين له كما تبين لي وخلاصته ان قيدار هم العرب العدنانيون وأن ممالك حاصور هم بنو حضورا تابعة اليمن في ذلك الحين وان حروب بختنصر معهم استمرت نحواً من اربع سنوات من السنة السابعة ليهوياقيم الى السنة الحادية عشرة من ملكه وهي السنة التي مات فيها . ويظهر له ايضاً ان التبابعة بني حضورا كانوا منقسمين الى حزبين حزب مع المصريين وآخر وهو حزب شعيب بن ذي مهدم مع البابليين وان هذا الانقسام والتحزب لنبوخذنصر هو الذي مكن هذا الملك البابلي من اجتياح بلادهم وايقاعه بهم حتى كاد يفنيهم مما لم يسبق الملك قبله ولم يتأت مثله لمن بعده . وقد بقي خبر هـذه الغزوة لشدتها محفوظاً في تقاليد اليمن لحد هذه الساعة دون غيرها من غزوات المصريين والاشوريين والرومانيين. ومما يؤيد صحة هذه الغزوة على ما ذكرنا ايضاً وجود الانباط وهم سكان بابل في حقل جهران وحقل قتاب في قلب اليمن قال الشاعر على لسان احد التبابعة

فسكنت العراق خيار قومي   وسكنت النبيط قرى قتاب

انظر الهمداني وصف جزيرة العرب وجه ١٠٤ . وفوق كل ذي علم عليم

الاحتفال بالدستور

لقد كان لاعلان الدستور في البلاد العثمانية اعظم وقع في نفوس العثمانيين فعقدوا له حفلات باهرة في بلادهم وفي كل البلدان التي هاجروا اليها تلي فيها من الخطب والقصائد ما لو جمع لملأ مجلدات كثيرة . وقد اخترنا من ذلك خطبة وقصيدة رأيناهما من أدل ما انشيء في وصف الحالة الحاضرة . والخطبة وموضوعها « نحن والدستور » لحضرة الاستاذ جبر ضومط من أساتذة المدرسة الكلية الاميركية في بيروت

نحن والدستور

كنا منذ بضعة اسابيع بل منذ اقل من ذلك يناجي احدنا نفسه ولا اقول اصدقاءه بسوء ما صرنا اليه ويخاف على نفسه مغبة تلك المناجاة . يخاف ان يبدو على وجهه شيء من امارات ما يجول في خاطره فيؤخذ بتبعة ذلك الخاطر ويساق الى السجن او المنفى . وان كان ممن يؤبه له فربما سيق الى القتل او الكورك ومن يجسر أن يدفع او يقول رفقاً . وربما كان عقاب الشافع او طالب الرفق اشد من عقاب المتهم

منذ بضعة اسابيع كان كثيرون من اعيان العثمانيين واشدهم محبة واخلاصاً في رفع شأن العثمانية يخاف ان تفلت من صدره زفرة او يباغته تنهد فينقل عنه خبر تلك الزفرة او ذلك التنهد جاسوس عليه من المتظاهرين بصداقته او ممن هم في خدمته بل ربما نقل عنه الخبر احد بنيه او امرأته وهناك الطامة الكبرى والبلية العظمى

منذ بضعة اسابيع ايها السادة كان تألم المتألم منا سراً على ما وصلت اليه العثمانية وعلى ما صار اليه العثمانيون ذنباً من اكبر الذنوب وكان احدنا يخاف ان بعض اهل الشر والنذالة يدس في بيته او بين كتبه كتاباً او بعض وريقات بصورة كتاب الى احدهم او مقالة لجريدة فكان ذلك يكفي لان يحسب من اكبر المجرمين والخونة المارقين ولو كان صدره يغلي بحب العثمانية والعثمانيين

وخلاصة ما يقال انا كنا منذ بضعة اسابيع والظلمة تغشانا والمخاوف تتهدد كل عثماني حر منا نزيه في نفسه صادق في عثمانيته مخلص لامته . واريد بالاخلاص الاخلاص الحقيقي المبني على العلم والحكمة والامانة لا هذا الاخلاص المدعى زوراً المنافق فيه بهتاناً الذي كان كثيرون يضعونه على وجوههم السمجة والسنتهم الكاذبة

كنا منذ بضعة اسابيع والصدور ضائقة بما فيها والنفوس واجمة من هول ما ترى من موقفها والعقلاء النزهاء لا يدرون ماذا يصنعون ولا ماذا يقولون وكأنما اطبقت عليهم السماء وسدت عليهم منها منافذ الرحمة اوضغطت عليهم الارض حتى رضتهم رضًّا فألصقتهم بالتراب اودفعتهم الى مخارم الجبال وبطون الغيران وظلمات الكهوف وقد حصرت صدورهم وساءت او كادت ظنونهم تسيء بالعناية الالهية . بينما نحن في هذه الظلمة المدلهمة وفي حال من اليأس والقنوط ما شهدنا مثلها ولا آباؤنا الاولون سطع علينا بغتة نور القانون الاساسي فاشرقت على آثاره شمس الحرية الشخصية والحرية القومية والحرية الفكرية الادبية

ما بين غفلة عين وانتباهتها   يغير الله من حال الى حال

واذا عظمت النعمة فليس بازائها الا الشكر . فالشكر لله ثم الشكر له . وبعد الشكر لله لا يسعنا الاغضاء عما فعله امراء جنديتنا العثمانية البواسل نيازي وانور والوف امثالهم وكلهم في الشرف والهمة والاستبسال في سبيل العثمانية نيازي وانور

وبعد فموضوعي مؤلف من كلمتين الاولى منهما « نحن » والثانية « الدستور » ولا بد لي من تحديد ما يراد بهاتين اللفظين وابدأ بلفظة الدستور اولاً واعني كل دستور عموماً ودستورنا العثماني خصوصاً

ما هو الدستور ؟ هو القوانين المسنونة وفقاً للاختبار والحكمة ليعامل بموجبها افراد الامة اسعاداً لهم من حيث هم افراد واسعاداً وتعزيزاً لهم من حيث هم امة اي مجموع افراد وللافراد كل الحق والحرية ان يتقاضوا المعاملة بموجب نص تلك القوانين صراحة او ضمناً وللامة ايضاً ملء الحق والحرية ان تحتاط لحفظ هذه القوانين وصيانة حرمتها ممن يتخوف منه الاعتداء عليها او اهمال العمل بها

هذا تحديد شبيه بتحديد المناطقة ولكني لا اضمن انه جامع مانع كما اني لا اضمن ان يكون موافقاً تمام الموافقة لتحديد فلاسفة العمران او المتشرعين ولكني اقول انه تحديد فيه من الصحة القدر الذي اريده لبيان اهمية كل دستور وعظم قيمته الحقيقية

على انه يجوز تعدد التعاريف اذا كان المعرَّف متسعاً كما هي الحال في الدستور لانه يجوز ان يكون الحد او التعريف صفة من صفاته او غاية من غاياته كما يجوز ان يكون بياناً لكيفية حصوله والعوامل التي اثرت في كيانه تدريجاً وما انفق في سبيل ذلك من القوى المعنوية والمادية حتى بلغ ما بلغ اليه

الدستور ايها السادة هو نتيجة محاربات الخير والشر اجيالاً الله يعلم كم هي عدتها وبعبارة اخرى هو مجموع ما استفادته الانسانية من غلبات الخير على الشر في اثناء العراك

الهائل الذي قام بينهما من اول عهد الانسان الى الآن هو نتيجة غلبات العدل على الجور والعقل على الحيوانية والعلم على الجهل في اثناء مئات من الاجيال هو ثمرة عقل كل عاقل في المجتمع الانساني وحكمة كل حكيم واستقامة كل مستقيم وصبر جميع هؤلاء على المجاهدة المستمرة مدى الحياة اثناء الاجيال التي غبرت . هو الغاية ومجموع النتائج التي حصلت من كل سيف استل في نصرة العدل والحق والاستقامة منذ قام عادل وعارف بالحق ومستقيم بين افراد الانسانية لحد هذه الساعة

الدستور العادل المرعي الاجراء عند كل أمة متمدنة هو الغاية ومجموع النتائج التي حصلت من كل لسان تكلم بالحق انتصاراً للعدل واذلالاً للجور كما انه غاية ومجموع نتائج كل ما خطه يراع حكيم عالم وكاتب فاضل انتصاراً للانسانية على الحيوانية والعلم على الجهل وللحكمة على السفاهة ولكل ما هو شريف وعادل على ما هو خسيس وجائر

بل الدستور العادل المرعي الاجراء هو عند التحقيق مظهر لارادة الله في المجتمع العمراني واثر مما علم به وجاهد له الانبياء والمرسلون ومن اقتفى خطواتهم واهتدى بهديهم من العلماء الراسخين والاولياء الصالحين والوعاظ اهل الغيرة المتقين

ايها السادة هذا هو الدستور العادل على الاطلاق ودستورنا العثماني دستور خاص يشتمل على كل ما يشتمل عليه دستور عام ويتناول كل ما قلناه عن الدستور العادل من الصفات والمقومات وزيادة ايضا شأن كل خاص فأنه يشتمل على العام وزيادة . هذه الزيادة هي تعريض نفوس نحو من اربعمئة الف رجل من رجالنا العثمانيين للموت في حرب اهلية طاحنة . ولولا حكمة امراء هذا الجيش ومن نصرهم من خيرة اعيان العثمانيين بالرأي والمال . ولولا اقتناع جلالة مولانا السلطان بان ما عرض من الطلب على جلالته بواسطة جنديتنا الباسلة انما هو صوت الامة — لولا ذلك كله لكانت الدماء الآن تسيل انهاراً والاموال تنفق جزافاً في سبيل الحصول على هذا الدستور

فهذا هو دستورنا العثماني الذي احرزته لنا سيوف اجنادنا العثمانيين بمعاضدة احرارنا المتحدين من امراء ووزراء وقادة جند باسل وعلماء اعلام وفقهاء عظام واهل حل وعقد من اعيان الامة ووجهائها في سائر انحاء المملكة فانهم كلهم رضوا به وحلفوا الايمان الرهيبة على مراعاته والاحتفاظ به كما يحتفظون باموالهم واعراضهم وانفسهم وكلهم امضى على وجوب الطاعة له والعمل به فاصبح من ثم مجد الامة وقوتها وملك كل فرد من افرادها يتمتعون ببركاته في حياتهم ويورثونه لمن يخلفهم من ابنائهم بعد مماتهم . فليحي هذا الدستور مجد الامة وحياتها وعزها وليحي القائمون بنصرته والعاملون به

ترون ايها السادة مما ذكرته في بيان حقيقة الدستور اني لا ارى ان افراحنا به هي صبيانيات تافهة ولا احتفالاتنا ومظاهراتنا الخارجية تكرمة له ولحماته تهوسات ضارة بل هي مهما بلغت مع القصد والحكمة قليلة في جنب اهميته ومقدار قيمته . واي قيمة اعظم من قيمة الحياة حياة الفكر والقول والعمل المشروع للفرد وحياة العزة والقوة والتوازر والاستقلال والاستبسال للامة . فمن اراد الحياة فليقل ليحيي الدستور العثماني والقائمون به ومن اراد الموت موت الذل والصغار والاستعباد فلا رحمه الله وليمت هذا الشخص من بين جماعة العثمانيين الحرة

ايها الكرام فرغت الآن من الكلام على الدستور وهو احد كلمتي موضوعي وبقي عليَّ الكلام على الكلمة الثانية منه وهي كلمة « نحن » فارجو ان تعيروني إصغاءكم في بيان المراد منها وما اليه فان هذا البيان الثاني لا يقل في الاهمية عن البيان الاول ان لم يكن اهم منه

قلت ما محصله ان دستورنا العثماني هو مجسم ارادة الامة العثمانية العادلة الخيرة وهو ملك افرادها اليوم وميراث ابنائها غداً. وقد نعتنا الارادة بالعادلة الخيرة والا فالاستبداد ارادة وحكومة الظلم والجور والبغي ارادة ايضاً. وارادة الامة العثمانية (وكل امة) هي ارادة مجموع افرادها او من ينوب منابهم من المتبوعين واهل الجاه الذين يقولون عن اتباعهم ويقطعون من دون استشارتهم ومراجعتهم

لكن ربما يستنتج من قولنا ان الدستور هو مجسّم ارادة الامة ان قيامه او سقوطه متوقفان على ارادة الامة فاذا ارادت اقامته قام اي روعيت احكامه وعمل بها واذا ارادت اسقاطه سقط اي اهملت احكامه وعمل باحكام مناقضة لها . وظاهر هذا الاستنتاج صحيح ولكنه ظاهر مموه مشوب بكدورة من النظر الفاسد . والحقيقة هي ان قيام الدستور اي مراعاة احكامه والعمل بها دليل على ان في الامة ارادة خيرة عادلة غالبة والدستور هو مجسم تلك الارادة . واما اذا سقط فلا يكون سقوطه دليلا على ان الامة ارادت اسقاطه بل هو دليل على ان الامة ميتة لا إرادة لها كأمة لا كافراد . وبعبارة اخرى لمَّا كانت الامَّة هي مجموع الافراد كان لنا ان نقول ان قيام الدستور واستمراره مرعياً دليل على ان هذا المجموع حي مريد ارادة خيرة عادلة اما سقوطه اي اهمال العمل به فدليل على ان هذا المجموع (لا الجميع) ميت جبناً او جهالة كمجموع لا كافراد اذ لا تخلو الامة من افراد لهم ارادة خيرة تعضد الدستور العادل ولكنهم كثيراً ما يكونون مضعوفين مغلوبين على ارادتهم كما كان الحال عليه بيننا منذ بضع سنين بل منذ بضعة اشهر

ولنرجع الآن بعد هذا الاستطراد الى بيان المراد بكلمة «نحن» فمن نحن ؟ يجوز

لي ان اعمم في الجواب وان اخصص فان عممت قلت نحن من العثمانيين الذين لهم ارادة وارادتهم جزء من ارادة الامة العثمانية . وان خصصت قلت نحن جماعة اكثرهم من اللبنانيين قاموا باحياء هذه الليلة الزاهرة لتحية الدستور والاقرار بالمنة علينا لحماته من امراء جنديتنا البواسل . ومعظم هذه الاكثرية من قضاء الشوف وهم من اعيانه واهل الوجاهة فيهم ممن يجوز ان تمثل ارادتهم ارادة الاهلين كلهم او اكثرهم . لكن يا ترى اذا مثلت ارادة هؤلاء السراة الحاضرين الآن ارادة اكثر اهل قضاء الشوف فهل تمثل ارادة اللبنانيين كلهم . وهب انها مثلت ارادة كل اللبنانيين فهل تنطبق ارادتهم على الدستور العثماني الذي هو مجسم ارادة مجموع الامة العثمانية العادلة المقدسة

جائز ان يكون الجواب من قبيل الجواز او من قبيل القطع بالحكم . اما انا فاقول ان ارادتكم ايها السراة العثمانيون التي تمثل ارادة اهل قضاء الشوف كلهم على الارجحية الغالبية ولعلها ايضاً تمثل ارادة كل اهل لبنان لا تنطبق على ارادة الامة العادلة تمام الانطباق الواجب الا مع الاخلاص . فان كنتم مخلصين في ارادتكم واتفاقكم المتبادل فارادتكم منطبقة على الدستور وهي جزء من ارادة الامة . اما اذا لم يكن اخلاص وكان هناك اهواء واغراض ذاتية خاصة فحسبكم ان مثل هذه الاغراض كانت فيما مضى سبباً لكل الويلات التي مرت بنا . الويلات التي لا نذكرها بل لا تمر في خواطرنا الا وتنقبض صدورنا اشد الانقباض من مجرد ذكرها بل من مجرد مرورها في البال مرور المسرع فانا اتقدم اليكم بالشرف العثماني وبشرف جنديتنا الباسلة ان تراجعوا ضمائركم وتتفطنوا لخفايا النفس وتفتشوا خباياها فلعل هناك هوى يلوّن للارادة حب الذات بلون محبة الامة والشرف ويصور لها الغرض الخاص بصورة الغرض العام والمصلحة الذاتية بصورة المصلحة القومية العمومية

ايها الوجهاء من كان منكم يحب الظهور وبعد الصيت — ولا عار ولا غضاضة على احد بسبب ذلك — فليراجع نفسه وشرفه العثماني قبل ان يجزم ارادته بما هو في سبيله من الوسائل التي تؤدي به الى غايته هذه فان هذه المحبة قد تنقاد للهوى والهوى في جانب الباطل دائماً وعلى عداء مع الدستور المقدس

ان المناصب في خدمة الامة على اختلاف انواعها وتفاوت درجات شرفها واهميتها جائزة لكل عثماني كفء لها ومباح له طلبها والسعي في احرازها بل والتنافس في ذلك ايضاً الا ان الشغف بالتربع في المناصب قد يباينه الاخلاص احياناً كثيرة ويداخله الهوى ولذلك ففيه ما فيه من الخطر الذي قد يسوق صاحبه الى الجري في خطة القوم السالفين

خطة التزلف الى من فى يدهم الامر والنهي والعزل والتنصيب . فمن كان يرغب فى المناصب فليحاسب نفسه وليتق مغبة التزلف الى من انقذوا الامة من الحالة التي كانت فيها قبلا الى الحالة المجيدة الشريفة التى هي عليها الآن . فما اوصلنا الى ما وصلنا اليه سابقاً الا اطماع واغراض وحب وجاهة وتفوق فى غير موضعها او فى غير الحق فجرت كل هذه او بعضها الى التزلف . والمتزلف قل ان يصور الامور الا فى غير صورتها الحقيقية . فالاناة الاناة والاخلاص الاخلاص ايها العثمانيون والا شمت بنا الاعداء وكثير ماهم . أما والذي نفسي فى يده اني لافضل ان تضرب عنقي على ان آتي ما فيه معرة او غض من شرف عثمانيتنا الجديدة فانها تجلت للملأ اجمع للصديق والعدو نقية من كل دنس ومن ثم فأقل هفوة منا نحن مريديها تظهر على بياضها النقي لطخة سوداء شائنة يتألم لها قلب المحب وتصغر نفسه ويطير لها فرحاً قلب العدو وتندفع نفسه الخبيثة للتشنيع والمذمة ويطل رأسه كبراً بعد ان كان اخنسه صغاراً وجبناً — ومع اني اشعر هذا الشعور وانا صادق فيه لظير كل واحد منكم — مع ذلك لا آمن من بدوات النفس واهوائها الخفية المنحرفة ان تفسد اخلاصي ان لم اكن على أشد الحذر منها والانتباه لها — اخاف هذا مع بعدي عن التدخل بما يسمونه سياسة او حزباً وانصراف نفسي عن الوظائف جملة بما انا راض به تمام الرضى من خدمة العلم والمتعلمين

على ان الاخلاص وهو من مقومات العثمانية وأهم اركان هذا البنيان الجديد الشريف الذي شرع فيه احرار العثمانيين لا يكفي وحده ان لم يصحبه العلم والخبرة فكم من هبة جهل وتسرع من اخلص المخلصين افسدت رأياً كان فيه مجد العثمانية وقوتها وحياتها لم يكن يطمع في افساده اعدى اعدائها . والعلم نتيجة الفكرة والتروي والتدبر فلا بد لنا اذن من كل هذه قبل العمل. وربما الحق بنا المخلص المتسرع من الضرر في ساعة اضعاف ما يلحقه بنا المنافق في ساعات بل في اشهر

تعلمون ايها السادة ان يومنا الذي نحن فيه يوم تأسيس لا تزيين وهو يوم له ما بعده فان كان الاساس من ثم راسخاً ثابتاً فكلما يبنى عليه فيما بعد يكون شبيهاً به ويكون لنا ايضاً والا فانتم ادرى مني بمصير بنيان تُسُرِّعَ فى تأسيسه . وعليه فنحن اليوم احوج الى التروي والفكرة من كل الايام التي مرّت بنا ومن كل الايام التي ستمر بنا بعد ان تستتب امورنا ويرسخ اساس عثمانيتنا الجديدة الحرة

فيا ايها الذين تتسرعون في آرائكم ولا تفكرون في عواقب ما ترتأون ولا في مغبة اعمال لم توفق الى الرأي الصائب دعوا التسرع جانباً فان تسرعكم لا يفيدنا الان وان كنتم

اخلص المخلصين واغير اهل الغيرة الحقة على شرف العثمانية ومصلحة العثمانيين . إنا في حاجة الى المخلصين اصحاب العلم والخبرة الذين قبل ان يقولوا يفكرون ويتروون وبعد ان يقولوا يفعلون كما يقولون مثل هؤلاء تطمئن اليهم نفوسنا ونسلم اليهم قيادنا وتدبيرنا

ولا اعني باصحاب العلم والخبرة الثرثارين المكثرين من فضول الكلام كما اني لا اعني بهم من يستظهرون آداباً ويكتبون اقوالا ويحملون في ذاكرتهم اسفاراً او ينظمون وينثرون مدحاً وهجاء بل اعني باصحاب العلم الذين نحتاج اليهم اليوم اصحاب الرأي الاصيل والتدبير المحكم الذين يعرفون اهواء الامة ويعرفون امراضها ومواضع الخلل فيها ثم هم يعرفون كيف يصرّفون تلك الاهواء على مقتضى العقل والحكمة وكيف يداوون تلك الامراض ويسدون ذلك الخلل ولا بد ان يكون واحدهم عارفاً ايضاً بمجمل احوال الامة العثمانية وما بينها وبين بقية الدول من المعاهدات والمتاجرات ويعرف ايضاً ما لتلك الدول من الخطط والتقليدات

هؤلاء هم الرجال الذين نريدهم في الوقت الحاضر وهم من المرادين بقولنا «نحن» في موضوعي «نحن والدستور» ثم لا بد ان يكون لهؤلاء الرجال من مساعدين على شاكلتهم في الاخلاص والنزاهة والعلم والخبرة . واما الرجال الذين نريدهم مع الايام فلا مجال الآن لذكرهم وتعريفهم وما نطلبه من كل واحد منهم . وآخر ما اختم به مقالي أنا نريد بلفظة «نحن» العثمانيين المخلصين النزهاء اهل العلم والخبرة اهل الحكمة والتدبير الذين يقولون قليلا ويفعلون كثيراً . نريد بلفظة « نحن » المخلصين من اهل النجدة والفتوة كهؤلاء البواسل الذين يبذلون نفوسهم دون الامة ودون انفاذ مآل دستورها او قانونها الاساسي العادل ويجعلون سيوفهم رهناً لاشارة اهل العلم والرأي والحكمة والتدبير من غير لغط ولا قلقلة ولا دعوى . بمثل هؤلاء يحيا الدستور ويعظم شأن الامة فليحيوا وليحي الدستور الذي هو مجسم ارادة الامة ارادتها العادلة الخيرة ولتحي الامة وليحي ابناؤها هؤلاء الاجناد البواسل وكل اصحاب الارادة الحرة والاخلاق الشريفة الفاضلة وليحي ايضاً رأس الامة العثمانية المجيدة الذي اصبح يرى ويحسب نفسه اباً وافراد امته اولاداً والسلام

البلدان العربية

واهمية اللغة العربية فيها

اعني بالبلدان العربية في المملكة العثمانية الولايات والمتصرفات التي يتكلم اهلها اللغة العربية فقط او يتكلمونها مع لغة أخرى ولكنها اي العربية هي اللغة المعول عليها في كتابات الاهلين ومخاطباتهم ومعاملاتهم على سبيل الاجمال ثم هي فوق ذلك لا تنازعنا فيها السلطة دولة أخرى اجنبية بسبب من الاسباب او لا يحق لها ذلك . فيخرج بالشرط الاخير كل البلدان العربية في القارة الافريقية (عدا طرابلس الغرب) وبعض البلاد في شبه جزيرة العرب ويبقى لنا الولايات والمتصرفيات الآتي ذكرها

(١) ولايتا بيروت وسوريا ويلحق بهما متصرفيتا لبنان والقدس
(٢) ولاية حلب
(٣) متصرفية الزور
(٤) ولاية الموصل وقسم كبير من ولاية ديار بكر
(٥) ولاية بغداد
(٦) ولاية البصرة ويلحق بها الكويت والاحساء
(٧) شمر والقصيم
(٨) الحجاز
(٩) عسير
(١٠) اليمن وتهامة

وهي بلاد كبيرة واسعة الاكناف ويقال عنها اجمالا انها (ما عدا الحجاز) من اخصب بلدان الدنيا على اعتدال في هوائها وطباع اهلها فضلا عن انها كلها في وسط المعمور تقريباً وعلى طريق التجارة بين الشرق والغرب. وكانت قديماً ويمكن ان تكون في ما يأتي من الزمن بلاد الزراعة والصناعة والتجارة ومركزاً للعلم والادب ايضاً. اما عدد سكانها ففيها على سبيل التقريب اثنا عشر مليوناً من النفوس على التعديل المتوسط وربما بلغوا الخمسة عشر مليوناً او ما يقارب ذلك بحسب تعديل بعضهم. واكثر هذا العدد من الحضر سكان المدن والقرى وفيهم الاعراب سكان الخيام الذين يسرحون بانعامهم وماشيتهم من مرعى الى آخر ولكن عددهم لا يتجاوز الثلاثة ملايين في الارجح وعلى اعلى تعديل ايضاً

اما ولايات سوريا وبيروت وحلب ومتصرفيتا القدس ولبنان فمعروفات عند جمهور القراء. واما الموصل وديار بكر ومتصرفية الزور فانها وان تكن من البلدان العربية الا انها متنحيات نوعاً عن أم البلدان العربية أعني جزيرة العرب ومتاخمات الفرس والارمن والاكراد والاتراك ولاسيما ولاية ديار بكر وعليها بعض الصبغة من هذه الامم ولا يفهم من قولي هذا ان هذه البلدان تنزع في اميالها ومشاربها واغراضها وتقاليدها الى الاتراك او الاكراد او الارمن اكثر مما تنزع الى العرب ولا اظن ايضاً ان في الواقع شيئاً من هذا فان الذين يتكلمون لغة من اللغات تكون نزعاتهم في اميالهم ومشاربهم وتقاليدهم واغراضهم السياسية والاجتماعية الى جانب اهل لغتهم وان بعدوا عنهم اكثر مما هي الى جانب اهل لغة أخرى وان هم قربوا منهم في الجوار حتى وفي الجنسية البعيدة ايضاً

على ان بعد هذه البلدان الثلاث وتنحيها عن صميم البلاد العربية ووجود بعض الصبغة في سكانها ممن جاورهم من الاجناس الاخرى كل ذلك ماكان ليمنعني من التكلم عنها فيما لو كنت استطيع ان افيد القراء فائدة تذكر ولهذا تركت القول هنا كما تركته في اهل الولايات الاول

ولايتا بغداد والبصرة

وهما من أمهات الديار العربية قبل الاسلام وبعده اما قبل الاسلام فلأن الحلة كانت داراً لملوك العرب من ايام جذيمة الابرش الى آخر من ملك من المناذرة . واما في الاسلام فاختطت البصرة والكوفة في ايام عمر بن الخطاب وما زالتا مدينتي العرب اجيالا ولما قام المنصور العباسي اختط بغداد وبقيت داراً للخلافة الاسلامية العربية الى ان قدم هلاكو اليها سنة ٦٥٦ هجرية وقتل الخليفة المستعصم بالله واستباح المدينة اربعين يوماً قيل فبلغ القتلى اكثر من مليون نفس ولم يسلم الا من اختفى في بير او قناة

اما عدد السكان في هاتين الولايتين فيبلغ على ما جاء في الاحصاءات الحديثة نحواً من مليونين وهو عدد كادت تبلغه مدينة بغداد وحدها في ابان عزها. والبلاد لا ينقصها خصب ولعلها من اخصب بلدان الدنيا ولاسيما بقعة مدينة بغداد وما حواليها فانها تصلح للزرع والضرع وقد جاء في الانسكلوبيديا البريطانية انها قد تغل اربعمئة ضعف. وربما بلغ طول ساق النخلة في بساتين بغداد والبصرة نحواً من ثمانين قدماً وطول سعوفها اثنتي عشرة قدماً ويقول زويمر صاحب كتاب مهد الاسلام ان احد كبار التجار الانكليز في البصرة يقدر غلة التمر سنوياً بنحو من مئة وخمسين الف طن او ستمئة الف قنطار شامي ولا يبعد ان هذه

الغلة قد تضاعفت من عشرين سنة الى الآن . والعارف بالبلاد وبنسبة بساتين التمر الموجودة الآن الى ما يمكن ان يكون منها لا يشك ان غلة التمر يمكن ان تتضاعف الى عشرة امثال ما ذكره زويمر في خلال عشرين سنة من الآن اذا وجد الأمن المطلوب وأمن الفلاح الظلم والاعنات

وأهل البلاد خبيرون بتربية النخل منذ القدم ولا يزالون الى اليوم وهو من المواد الاولية في معاشهم وليس في شجرته شيء الا وله منفعة واستعمال عندهم. والشائع على الالسنة ان لشجرة النخل الف منفعة ومنفعة ويكفي من منافعه ان المرأة على ما يقولون تطعم اهل بيتها كل يوم لوناً من التمر غير الذي اطعمتهم اياه بالامس على مدى ثلاثين يوماً

والبلاد ايضاً كما هي بلاد نخيل هي كذلك بلاد حبوب وقطاني وبلاد صوف وقطن وصمغ ورب السوس . ذكر زويمر ان معدل اثمان صادرات الصوف من ولايتي بغداد والبصرة بلغ سنة ١٨٩٧ نيفاً ونصف مليون من الجنيهات الانكليزية

ولقد كانت بغداد والبصرة من اكبر المراكز التجارية في العالم في ايام زهو العباسيين فانصبت اليهما تجارة الشرق كله براً وبحراً فكانت القوافل تأتي بغداد من اقصى الشرق والشمال والمراكب تأتي البصرة من كل الفرض التجارية في افريقيا والهند وسيلان وبحر الصين. وفي هذه البقعة كانت أشهر المدن التجارية قديماً فبابل وسلوقية واكتزيفون كانت في هذه البقعة وقد فاقت عليها كلها بغداد وكذلك كانت اور والاسار وأرك وكلنة وفاقت عليها كلها البصرة. وشوشن القصر وهي عاصمة الدولة الفارسية في ايام داريوس الكبير ومن خلفه هي في مركزها التجاري على حسنه دون مركز البصرة او بغداد الآن

بغداد اخصب بقعة في العراق. دجلة والفرات طريقان مائيان عظيمان ينصبان اليها من الشمال الاول رأساً والثاني بما يوصل من الترع بينه وبين دجلة . ودجلة يوصلها بالبصرة اتصالا لا ينقطع ثم البصرة توصلها بخليج فارس فخليج عمان فباقي البحار الكبيرة . فاي مركز اذن يفضل مركزها ليتأمل متأمل موقعها الجغرافي ثم ليحكم بنفسه لنفسه

قبل أن اترك هاتين الولايتين لا بد لي من ان اذكر ما ذكره زويمر في كتابه مهد الاسلام «انه في سنة ١٨٩٧ خرج من مينا البصرة اربعمئة وواحد وعشرون مركباً شراعياً وخمس وتسعون باخرة محمولها ١٣١٨٤٦ طناً ومن الخمس والتسعين باخرة احدى وتسعون لبريطانيا العظمى». ولا يجهل عثماني عرف بغداد من موظف وتاجر ما لقنصلاتو بريطانيا من الاهمية في بغداد . الاهمية التجارية والسياسية . وكلنا لم ننس بعد الازمة السياسية في وزارتنا العثمانية التي احدثتها شركة لنش الانكليزية هناك في بدء السنة الرومية الحالية

تابع ولاية البصرة

قلنا ان الكويت والاحساء تابعتان لولاية البصرة ونقول ان المرحوم مدحت باشا قدم اليه ايام كان والياً هناك عبد الله بن سعود يستنصره على اخيه سعود واجلت سياسته حينئذ عن ان ألحق الكويت والاحساء بولاية البصرة وشكل منهما متصرفية سميت بمتصرفية نجد. اما الكويت فعلى ان يكون عبد الله المذكور قائمقاماً عليها كل ايامه تحت حماية العثمانيين فدخلت الكويت والاحساء تحت حمايتنا من نحو ثلاثين سنة ولم ينازع منازع في ذلك وتشكلت متصرفية الاحساء كما قلنا ولا تزال الى الآن يعين لها المتصرفون من قبلنا ومعهم من الجند والضابطة ما تقتضيه الحاجة السياسية والمدنية . ولا شك ان الجزيرة المعروفة بالبحرين كان ينبغي ان تكون تابعة للمتصرفية ولكن الاهمال من جهة وبعد الشقة من جهة اخرى والجهل باهمية موقع الكويت وموقع الجزيرة معاً كل ذلك جعل المتصرفين يغضون النظر عن الكويت والجزيرة ويتركون لرؤساء القبائل فيهما ان يتصرفوا بالبلاد والعباد كما يشاؤون كانما هم مستقلون في المكانين المذكورين

موقع الكويت والاحساء

الى الجنوب بميلة الى الغرب من مصب الفرات ودجلة في خليج العجم على جون كبير واسع يضرب في رمال جزيرة العرب على بقعة من صميم تلك الجزيرة هناك مدينة الكويت الحالية وهي مدينة نظيفة بالنسبة الى البصرة او غيرها . ويبلغ عدد سكانها اثني عشر الفاً او يزيد وميناها واسع امين من احسن مرافىء شرقي جزيرة العرب بل احسنها . ويقال انها ستنتهي فيها السكة الحديدية البغدادية فاذا تم لها ذلك اصبحت محطة من اكبر واقرب محطات الهند والشرق الاقصى

والكويت في فلاة قاحلة ليس لها ما تعتمد عليه الا التجارة . وتجارتها متسعة مع شمر ونجد والحجاز ومنها ترسل الخيول الى البنادر الهندية وهي اذا ما اتجهت منها جنوباً ما زلت في رمال قاحلة لا ماء ولا مرعى الى ان تصل القطيف فاذا وصلت القطيف وصلت واحة من اخصب الواحات في بلاد العرب وتستمر هذه الواحة جنوباً حتى تبلغ قطر وهي أي قطر شبه جزيرة كثيرة الرمال قليلة النبات قل ان ترى فيها شيئاً اخضر وهي تابعة لمتصرفية نجد أيضا

والبلاد بين قطر والقطيف تعرف قديماً بارض البحرين وتعرف اليوم بالحسا او الاحساء

وربما أطلق هذا الاسم في الخارطات على كل البلاد من قطر الى البصرة. وبين شبه جزيرة قطر والقطيف جزيرة البحرين ومياهها كثيرة عذبة وبعضها ينبع في البحر وعدد سكانها نحو ستين الفاً. وهذه البقعة اي بين رأس قطر والقطيف مغاص من أحسن مغاوص اللؤلؤ في العالم كانت ولا تزال الى اليوم . وسكان قطر وجزيرة البحرين كلهم يشتغلون بالغوص مدة خمسة أشهر كل سنة من حزيران الى تشرين الاول

قلنا ان البلاد من البصرة الى شبه جزيرة قطر تشكلت متصرفية من نحو اربعين سنة وتشتمل على ثلاثة اقضية قضاء قطر وقضاء القطيف وقضاء نجد وعدد سكان هذه المتصرفية يبلغ مئتين وخمسين الفاً. ومن مدنها بدعة وهي مدينة قطر والعقير وهي ميناء هناك والحسا وتسمى الحفوف ايضاً وهي هجر القديمة المعروفة بكثرة تمرها. والمبرز. والقطيف وهي مينا ايضاً. وأهمية هذه المتصرفية انما هي لانها مفتاح العربية من جهة الشرق وطريق تجارتها مع الهند وبلاد فارس وفوق ذلك فالحسا هي المحطة الاولى على طريق القافلة من خليج فارس الى مكة وجدة والمدينة

وقبل ان انتقل من هذه المتصرفية لا بد لي من القول ان البحرين وهي جزيرة اللؤلؤ هي الآن تحت حماية الدولة البريطانية وقد تداخلت في نصب حاكم لها منذ سنة ١٨٦٧ فانها في تلك السنة نصبت عيسى بن علي حاكماً أو سلطاناً على الجزيرة بعد ان عزلت اباه عن كرسي الحكم. ومنذ بضع سنين اصبحت تدعي ان لها حق الحماية او الوصاية على الكويت ولها فوق ذلك من النفوذ في كل خليج فارس ما لا يسع احداً من ساسة العثمانيين ان يجهله فانها هي المسيطرة معنوياً على كل الحركات التي تجري على شواطىء هذا الخليج الغربية والشرقية في بلاد فارس وفي بلاد العرب وفي يدها متى شاءت ان تثير الخواطر او تسكنها فان عمالها هناك اهل ادراك ويقظة لا تفوتهم حركة ولا سكنة تنتفع بها امتهم او يزاد بها نفوذ دولتهم بوجه من الوجوه . اما معنى الحماية البريطانية فمنع معاوقة تجارتهم ومنع بيع الرقيق علناً حيث لهم معتمد خصوصي ثم ترك الحكام وشأنهم والقضاة وشأنهم يظلمون او يعدلون ويرتشون أو يعفُّون فاذا تجاوزوا ذلك الى مخابرة سياسية او اظهروا شيئاً من الاستقلال في تصرفاتهم مع دولة أخرى فحينئذ تظهر الحماية البريطانية ويظهر أثرها بالمنع وفي ما عدا ذلك لا أثر لها الا ان يكون ذلك مرتباً سنوياً تدفعه الدولة البريطانية للشيخ او الامير عن حماية التجارة او منع بيع الرقيق او تألفاً له

شمّر والقصيم

شمر بلاد او واحة واقعة بين اجا وسلمى جبلي طيء وعاصمتها حائل وهي مدينة ابن الرشيد وكرسي امارته والى جنوبيها القصيم القصيم العليا والقصيم السفلى وفيهما عنقيز وبريدة مدينتا نجد (نجد الحجاز). وشمر والقصيم بلاد طيبة الهواء جيدة التربة. وبلغريف يقول ان حائل لا أثر فيها للبعوض والذبان ولا للقمل والبراغيث. ويقول ايضاً ان الجزرة لا رائحة لها واللحم لا يختر هناك. وسماؤها غاية في الصفاء ونسمات اسحارها لا اعل ولا انعش منها حتى نسمات اعالي لبنان فانها تقرب منها ولا تماثلها . وقد تغيرت الشؤون على حائل من ايام بلغريف الى الآن فكانت في ايامه تابعة لرياض تعترف بسيادتها عليها

فلما وقع الخلاف بين ابني فيصل الوهابي سعود وعبد الله ودارت الدائرة على عبد الله حتى لجأ اخيراً الى مدحت باشا ضعف شأن رياض . وعندها استقلت حائل وما زالت بعدها تنازع رياض السيادة فتارة لها وتارة عليها. وكان ضلع ولاتنا في بغداد والبصرة مع حائل وكثيراً ما جعل بعض امراء بيت الرشيد حماة لطريق الحج من قبل العثمانيين ومن ثم فهم يعترفون بسيادتنا عليهم ان لم يكن فعلاً فاسماً وأقل ما للعثمانيين من الحقوق على حائل بل ورياض ايضاً الحماية التي هي أشبه بالحماية البريطانية على كثير من اجزاء الجزيرة العربية في جهات اليمن والشحر او في جهات الخليج الفارسي

وهذا الحق يتصل اوله باستفحال امر الوهابية في رياض وامتداد سلطتهم وما ترتّب على ذلك من الفتوحات المصرية العثمانية تحت امرة محمد علي باشا وابنه ابرهيم باشا فان كل الولايات السعودية الوهابية وتشمل نجد واليمامة والعارض ووشم والسدير والقصيم وشمر وعسير اليمانية كل هذه دخلت حينئذ في حوزة العثمانيين واصبحت تابعة لهم من ذلك الحين واكّد هذه التابعية سنة ١٨٧١ التجاء عبد الله بن فيصل الى العثمانيين واعتراف امراء حائل لهم بالسيادة العامة ومثلهم امراء رياض من بيت سعود اثناء المنازعات التي وقعت بين امراء هذين البيتين من حوالي اربعين سنة الى الآن

اما رياض والبلاد النجدية التابعة لها ففيها واحات كثيرة وكبيرة ايضاً وهي أخصب تربة وأطيب هواء وأجمل مناظر من بلاد شمر ولعلها على ما يقول بلغريف من اجمل بقاع الدنيا وأعدلها هواء ينسى عندها جمال لبنان وتتضاءل مناظر ايطاليا لدى محاسنها المتنوعة. وعلى ذكر نجد اقول ان نجد هي قلب البلاد العربية ومحتد العرب العدنانية وكانت ولا تزال متغزّلاً لشعرائهم واليها منزع افئدتهم وقلوبهم فاذا أبعدت النجعة اعرابها عنها لا يزالون

في شوق وحنين الى ان يرجعوا اليها واشعارهم فيها غاية في الرقة وجمال الوصف. ويحضرني منها قول بعضهم

اقول لصاحبي والعيس تهوي بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد وريا روضه بعد القطار
واهلك اذ يحل الحي نجداً وانت على زمانك غير زاري
شهور ينقضين وما شعرنا بأنصاف لهن ولا سرار

وقال آخر وهو الصمة بن عبد الله بن طفيل

قفا ودّعا نجداً ومن حل بالحمى وقلّ لنجد عندنا أن يودعا
بنفسي تلك الارض ما اطيب الربا وما أحسن المصطاف والمتربعا
وليست عشيات الحمى برواجع عليك ولكن خل عينيك تدمعا
ولما رأيت البشر اعرض دوننا وحالت بنات الشوق يحنّ نزعا
بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم اسبلتا معا
تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الاصغاء ليتاً وأخدعا
واذكر ايام الحمى ثم انثني على كبدي من خشية ان تصدعا

ونجد تجمع القصيم والوشم والعارض واليمامة وفالج وربما بلغ عدد سكانها اليوم ما يزيد عن المليونين من النفوس وفيها من المراعي في الجبال والنجود والاراضي الخصبة الزراعية في الشعاب والاودية ما يماثل مراعي سوريا واراضيها الزراعية من جنوبي فلسطين الى ما وراء انطاكية شمالا ومن البحر المتوسط غرباً الى البادية بادية سوريا وفلسطين شرقاً. ونجد كثيرة الآبار وقد لا يكون اعمقها اكثر من خمس عشرة قدماً والمرجح ان فيها ايضاً معادن غنية من الذهب والفضة والنحاس والحديد على انه ان لم تكن غنية في المعادن فهي غنية بطيب الهواء وجمال المناظر وكثرة الزرع والضرع واذا اجتمعت كلها الى كلة العثمانيين واصبح يخفق فوقها العلم العثماني الدستوري كما هو يخفق الآن على ربوع الشام كان في ذلك من القوة للعثمانيين ما لا توازيه كل قوة ولاياتنا الاوربية في الراجح ولا يضرنا فقد الهرسك والبوسنه ومثلها من الاملاك الاوربية اذا انضمت الينا نجد وجعلت نصيبها مع نصيبنا كما سنبين ذلك ان شاء الله

ولاية الحجاز

الحجاز ولاية كبيرة شاسعة الاطراف طولها من الشمال الى الجنوب نيف وخمسمئة ميل وعرضها يتراوح بين الستين والمئة وخمسين ميلا ويمر فيها من الشمال الى الجنوب طريق الحاج الشامي والمصري وليس فيها اثر للعمارة حتى تصل الى العلا. ويقال بالاجمال ان الحجاز بلاد شظف وسوء عيش في اكثر اقسامه إلاّ ما كان من جبل قرى الى الجنوب الشرقي من الحرم فان البلاد هناك ذات زرع وضرع وفيها المياه الجارية عداً لا تنقطع وتربتها خصبة وهواؤها طيب معتدل ويقدر عدد الاهلين في هذه الولاية بين المليونين والثلاث ملايين

وشهرة الحجاز اليوم ان فيها مدينتي الاسلام مكة والمدينة وهذا وحده مما يجعل الحجاز اهم ولاياتنا العثمانية واسباب ذلك لا تخفى على احد فان حماية الحرمين وحماية الطريق الموصل الى مكة وتسهيل فريضة الحج على المسلمين ينظر اليها امراء المسلمين في كل الاقطار الاسلامية من اقرب القربات الى الله وللسلطان المتولي ذلك المقام الاول والمنزلة الاولى بين سلاطين المسلمين ومهما عظم ملك غيره وكثر جنده وتوفر غناه فهو بمرتبة دون مرتبة من وكل اليه حماية الحرمين

واما شهرة الحجاز قبل الاسلام فكانت من حيث هو طريق التجارة بين مصر والعراق وبين الشام واليمن . وكانت مدينته العظمى مكة حجاً للعرب ومركزاً لتجارتهم ولا سيما الاعراب منهم قبل الاسلام بمئات من السنين. ويتلوها في الاهمية المدينة واسمها القديم يثرب

قلت ان عرض الحجاز شرقاً بغرب يتراوح بين الستين والمئة والخمسين ميلا وارجح انهم قالوا ذلك لانهم جعلوا حد الحجاز شرقاً النفود. على ان النفود الكبير الشمالي الذي فيه تيماء والجاه والجوف اولى ان يكون من الحجاز . والحجاز كثير الحرار كحرة المواهب وحرة خيبر وحرة بني سليم والحرة الدنيا والحرة الرجلاء والحرة القصوى وحرة ليلى وحرة النار وغيرها من الحرار . والحرة هضبة بركانية ذات حجارة سود نخرة وربما علت الحرة مئات من الاقدام على ما يجاورها من الارضين . وهواء الحرار اجمالا طيب للغاية يقوي الاجسام ويشدّها صيفاً وشتاء

على ان القائم في الاذهان هو ان هواء الحجاز شديد الحر شديد الوبالة ايضاً ولا يصح هذا الحكم الا على بعض اقسام الحجاز وبيانه ان الحجاز منه غور ومنه نجد ومنه اودية الى البحر تتسلط عليه رياح الغرب ومنه اودية الى الشرق وتتسلط عليه ريح الصبا الشرقية

فالغور وما قابل البحر من الاودية واسناد الجبال كل ذلك يكثر فيه الحر والرطوبة ومناخه كمناخ جدة او سواكن وغيرهما من مرافىء البحر الاحمر المعروفة واما غيره ففي هوائه من الطيب والاعتدال ما يحببه الى اهله . واليك ماجاء في كتاب وصف جزيرة العرب للهمداني المشهور طبع ليدن بمطبعة بريل سنة ١٨٨٤ وجه ٤٨ قال ما نصه. ان جبل السراة وهو اعظم جبال العرب واذكرها اقبل من قعرة اليمن حتى بلغ اطراف بوادي الشـام فسمته العرب حجازاً لانه حجز بين الغور وهو هابط وبين نجد وهو ظاهر فصار ماخلف ذلك الجبل في غربيه الى أسياف البحر من بلاد الاشعريين وعك وحكم وكنانة وغيرها ودونها الى ذات عرق والجُحفة وماصاقبها وغار من أرضها الغور غور تهامة وتهامة تجمع ذلك كله وصار مادون ذلك الجبل من شرقيه من صحاري نجد الى أطراف العراق والسماوة وما يليها نجداً ونجد تجمع ذلك كله وصار الجبل نفسه سراته وهو الحجاز وصار ما احتجز به في شرقيه من الجبال وانحدر الى ناحية فيد وجبلي طيء الى المدينة وراجعاً الى ارض مدحج من تثليث وما دونها الى ناحية فيد حجازاً فالعرب تسميه نجداً وجلسا وحجازاً والحجاز يجمع ذلك كله . انتهى عن الهمداني

اذا تأمل متأمل وجد ان جبل السراة يمتد من اليمن جنوباً الى الشام شمالا وبينه وبين البحر غور يعرف ما صالى منه الحجاز بغور الحجاز او تهامة الحجاز او تهائم الحجاز وكله حجاز ثم ان السراة اذا وصل الطائف مال شرقاً كانما في زاوية وترك مكة (وهي مدينة الحجاز) بينه وبين البحر فاصبحت البلاد من جدة الى مكة الى ذات عرق كلها غورية او تهامية وتهامة كلها شديدة الحر رطبة الهواء واما ظهر السراة وهو حجاز وما امتد منه شرقاً وعلا وكله حجاز كما رأيت ومن ولاية الحجاز ايضاً فهواءه اوطباعه معتدل كنجد ولاهله حنين وشوق اليه كالنجديين الى نجد وهم يفضلونه على العراق وعلى اطيب بقاعه اعني بغداد واليك من اقوالهم ما يشف عما ذكرنا قال بعض الاعراب:

تطاول ليلي بالعراق ولم يكن ... عليَّ باكناف الحجـاز يطول
فهل لي الى ارض الحجاز ومن به ... بعاقبة قبـل الفوات سبيل
اذا لم يكن بيني وبينك مرسل ... فريح الصبا مني اليك رسول

وقال آخر

سرى البرق من ارض الحجاز فشاقني ... وكل حجازي له البرق شائق
فواكبدي مما الاقي من الهوى ... اذا حن الف او تألق بارق

وقال آخر

كفى حزناً أنّي ببغداد نازل ... وقلبي باكناف الحجاز رهين
اذا عنَّ ذكر للحجاز استفزني ... الى من باكناف الحجاز حنين
فوالله ما فارقتهم قالياً لهم ... ولكن مايقضى فسوف يكون

وقال بعض شعراء الاندلس

وما وجد اعرابية بان اهلها ... فحنت الى بان الحجاز ورنده
اذا ابصرت ركباً تكفل شوقها ... بنار قراه والدموع بورده
وان اوقدوا المصباح ظنته بارقاً ... يحيي فهشت للسلام ورده
باعظم من وجدي بموسى وانما ... يرى انني اذنبت ذنباً بوده

وغير ذلك من اشعارهم كثير مما يدلك على ان ليس كل الحجاز جدة ومكة في شدة حرها ولا كله قفار ورمال كمعظم طريق الحج حتى تصل مدائن صالح او قرية العلاء بل فيه من المرتفعات والنجود والاودية الخصيبة ما لا يقصر عن نجد في طيب الهواء وجمال المناظر وارتقاء العمران واغلب الذين زاروا الحجاز وخبروا جهاته يعرفون الطائف وجبل قرى وما في البلاد هناك من الجمال والاعتدال في الاهوية والاخلاق

والذي اريد ان يبقى في الاذهان وتتوجه اليه خواطر من يهمهم الامر ان الحجاز (والمحافظة عليه وامتلاك قلوب اهله) ضروري لعظمتنا العثمانية لا يعادله من هذا القبيل ولاية ولا ولايتان حتى ولا ثلاث ولايات ايضاً ولو كنَّ من اهم ولايات الدولة ومن اكثرها ساكناً وغنى واوسعهنَّ تجارة

متصرفيّة عسير

بلاد بين اليمن جنوباً وأرض الحرمين شمالاً وهي جبال وسهول امّا الجبال فطيّبة الهواء كثيرة المياه ولكنها عسرة المسالك وامّا السهول فخصبة جيدة المراعي جيدة التربة ينبت فيها كل انواع الحبوب والقطاني . وسهول بيشة الى جهة الشرق قد تستغني بمحصولاتها الطبيعيّة عمّا يرد الى الحجاز من الطعام عن طريق جدّة والقنفدة على شطوط البحر الاحمر او عن طريق الحسا والكويت على شطوط الخليج الفارسي . والعرب يخصّونها باسم الحجاز فاذا اطلقوا التسمية فهموا منها هذا القسم جنوبي الطائف حتى تصل ولاية اليمن (انظر بركهارت ـ البدو والوهابيون الجزء الثاني طبع لندن وجه ١٣٢) وهو ما يراد بمتصرفية عسير الآن

وعليهِ فولاية الحجاز تشتمل على ثلاثة اقسام القسم الاول الشمالي ويشمل البلاد الواقع فيها طريق الحج حتى تصل وادي القرى بقرب المدينة . والقسم الثاني المتوسط ويشمل البلاد بين مكة والمدينة ويعرف بأرض الحرمين أو بلاد الحرمين والثالث الجنوبي ويشمل البلاد بين ارض الحرمين وبين اليمن وهو متصرفيَّة عسير

في هذا القسم اعني متصرفية عسير قبائل كبيرة كثيرة اشهرها بنو غامد وظهران وبنو سالم وبنو عسير وأشهر هذه الثلاث بنو عسير وبلادهم جبليَّة متوعرة وبهم سمّيت المتصرفية الآن وهؤلاء العسيريون فيهم ما يزيد على الاثني عشر بل والخمسة عشر الف محارب على ما ارجّح . وكان ابو نقطة من شيوخهم المشهورين في ايام محمد علي باشا الكبير ثم كان بعدهُ طعمة وهذا كان من كبار رؤساء الوهابيين من اعلاهم همَّة وأكثرهم رجالاً في موقعة كُلاخ أو بيصال وهي الموقعة التي انتصر فيها محمد علي باشا سنة ١٨١٥ على الوهابيين وفلّ جموعهم وكانوا ما يزيد على الخمسة والعشرين الفاً ثلثهم من العسيريين . ثم تابع انتصارهُ هذا فتتبّعهم الى ترابة وبيشة ومن بيشة توجّه غرباً فاخترق جبال العسيريين واستولى على قلعتهم المعروفة بقلعة طور بعد معركة شديدة وما زال حتى بلغ شطوط البحر الاحمر قرب قنفذة ثم رجع من هناك الى مكة . ولما كانت البلاد جبلية طيبة الهواء كان اهلها اشدَّاء ذوي بأس ونجدة فقد حكى بوركهارت انهم وجدوا في موقعة بيصال كثيرين من قتلى العسيريين وقد ربط كلٌّ منهم رجلهُ الى رجل صاحبهِ كي لا يفرُّوا وكانوا قد تعاقدوا على ذلك وحلفوا عليهِ بالطلاق فلم يحنثوا . ورُوِيَ عن اسلافهم مثل ذلك اثناء الحملة الرومانية التي وجّهها الامبراطور طرايانس الروماني حوالي سنة ١٠٥ بعد المسيح لفتح البلاد العربية

وبالاجمال يقال ان هذا القسم من الحجاز ولا سيما بلاد عسير يشبه بلاد اليمن الجبليَّة في تربتهِ وهوائهِ ومائهِ وشدَّة شكيمة اهلهِ ولا يبعد انهُ يشبهها في طبقات ارضهِ وما يحتويه من معادن الذهب والفضَّة والنحاس والحديد . ومتصرفية عسير كانت ولا تزال تابعة لولاية الحجاز ومن املاكنا العثمانية التي لا ينازعنا فيها منازع ومن الضروري ان يحرص عليها ولاتنا وقواد جيوشنا فانها كاهل الحجاز وحصنهُ المنيع . الا ان الثورة الاخيرة قد فتحت فيها ثلمة ولا يستبعد مع الاهمال وترك اليقظة ان يدخل منها داخل على حين غفلة فيدَّعي بعدها بحقوق الحماية او مدَّعي آخر يشوّش علينا فيها سلامنا وحسن جوارنا

ولاية اليمن

اليمن — وقد سماها اليونان والرومان قديماً العربية السعيدة — هي مهد الجنس السامي

في الراجح ومركز تمدنهم القديم ومنشأ الدول العربية العظيمة قبل الاسلام وقد شفّت الآثار مؤخراً عما وجه خواطر كثيرين من اهل البحث ومن جملتهم الاستاذ سايس الى القول بأن اليمن سابقة في تمدنها على مصر وبابل وأنها هي بلاد بُنْت او فوط التي هاجر منها الى مصر اسلاف الفراعنة العظام وحملوا معهم اليها العلم والحكمة والزراعة والصناعة والتجارة . ومنها ايضاً في الراجح كان اسلاف البابليين والاشوريين الذين حملوا في مهاجراتهم الى تلك البلاد ما حملوه الى مصر من العلم والصناعة كما أنّ منها او مما جاورها من بلدان الجزيرة كان معظم الجاليات التي استعمرت شواطىء البحر المتوسط في سوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان وايطاليا وفرنسا وشطوط افريقيا مما يقابل جبل طارق حتى تصل الى مصر والسويس. وبالاجمال لا يستبعد ان تكون شبه جزيرة العرب وبالاخص العربية السعيدة اي اليمن ام التمدن القديم في كل آسيا الغربية وأوروبا وأفريقيا

هذه البلاد هي الآن جزء من مملكتنا العثمانية وكان ممكناً ان تكون من اهم اجزائها وأفضلها وأغناها لأنها تجمع الى طيب الهواء وجودة التربة وكثرة المعادن والحجارة الكريمة اجمل المناظر الطبيعية وأفخمها . جبالٌ شاهقة من افخم الجبال وأغربها اشكالا وهيئاتٍ لا ينقص ارتفاع بعضها عن الاربعة عشر الف قدم فوق سطح البحر وأودية عميقة ولا اعمق منها. ولا اغرب وأعجب مما يجري فيها من المظاهر الجوية فانك ربما تنظر الى بعضها وأنت على اسناد جبالها فتراها مملوءة سحباً وترى البروق تتمعج تحت نظرك بين هذه السحب وتسمع قصيف الرعد ثم لا تلبث الغيوم ان تنقشع عن تلك الاودية فتراها تسيل مياهاً يحمل تيارها الشجر والحجر ايضاً ولعل القائل اشار بقوله

كأني حيث ينشا الدَّجن تحتي فما انا لا أطَلُّ ولا أجادُ

الى مثل هذه الظاهرة اليمنية الغريبة والجميلة ايضاً

ليس جمال المناظر الطبيعية وان بلغ مهما بلغ ولا ارتفاع الجبال وان زادت على ارتفاع حملايا ولا عمق الاودية وان بلغ قرارة الهاوية — ليس شيء من كل ذلك بالامر الكبير لولا ان غنى البلاد الطبيعي في معادنها وزرعها وضرعها ونشاط اهاليها ايضاً يناسب ما المعنا اليه من فخامة جبالها وجمال اوديتها وروعة جلالها

مساحة اليمن وأقسامها

لا تقل مساحة اليمن بما فيه تهامة فما أرجح عن المئة وعشرين الف ميل مربع ولا يزيد في ما أظن عن المئة والخمسين الفاً منها بلاد جبال وخصب وهواء طيب ما يزيد عن

الثمانين الف ميل مربع في أقل تقدير والبقية بلاد رمال وحر شديد ووبالة الا بعض الواحات على جوانب أوديتها العظام مور وسردد وسهام ورمع وزبيد والموشج والموزع وعديم وعلصان ورغادة ومنيف والصهيب ويافع وهي أودية تسيل ماءً غزير أزمان المطر الا ان معظمها تتشربه رمال تهامة قبل أن يصل الى البحر . وتقسم اليمن اجمالاً الى قسمين كبيرين تهامة والجبال . وتهامة تهامتان تهامة الغربية وتهامة الجنوبية اما تهامة الغربية فتمتد على موازاة شطوط البحر الاحمر بينه وبين الجبال وعرضها في الاكثر لا يزيد عن الثلاثين ميلا ويتسع أحياناً فيبلغ الخمسين والستين وقد يبلغ ما فوق ذلك وهو نادر. ومن موانئ تهامة هذه لحيًّا والحديدة ومخا وأشهر مدنها زبيد على متوسط المسافة بين البحر والجبال وربما سميت باسم الوادي المبنية الى جانبه ومياهه عِدٌّ لا تنقطع

وأما تهامة الجنوبية فتمتد من بوغاز باب المندب على شواطىء خليج عدن مايزيد عن المئتي ميل طولاً ويختلف عرضها بين الخمسين والمئة ميل ومن أشهر موانيها عدن وهي الآن في يد الانكليز اختلفوا مع حاكمها سنة ١٨٣٩ فباغتوا حاميتها ودخلوا حصنها عنوة فرأوا معقلاً ولا احصن وموقعاً تجارياً ولا أهم فأدخلوها في عداد أملاكهم فأصبحت اليوم وحصونها من امنع حصون الدنيا ومیناها من احسن الموانئ وأوسعها فتحولت اليها من ثم معظم تجارة اليمن بعد ان كانت ترد الى مخا والحديدة. اما مخا ففاتت تجارتها واندرس عمرانها اوكاد يندرس وأما الحديدة فانما ابقى على عمرانها انها مركز حكومة تهامة وميناء صنعاء الحربي وأن البلاد التي هي ميناء لها بعيدة أيضاً عن عدن بعداً شاسعاً . ويقال في تهامة اجمالاً انها مرعى جيد أيام الشتاء والبرد الشديد في الجبال ولكنها في أيام القيظ تنُّورٌ متوقد

وأما اليمن الجبال فتقسم الى اقسام كثيرة تعرف قديماً بمخالف اليمن كل قسم منها مخلاف وكان عليه في الغالب امير او شيخ يخضع لامير صنعاء اذا كان هو قوياً ذا حول وطول او يستقل عنه اذا وجد من نفسه قوة ومن متبوعه غفلة وضعفاً . واليك المخاليف التي ذكرها الهمداني صاحب كتاب صفة جزيرة العرب نذكرها لك كما ذكرت في فهرست الكتاب مرتبة بحسب الحروف الابجدية لا بحسب مواقعها الطبيعية: مخلاف آل ذي جرة. مخلاف اقيان . مخلاف الهان . مخلاف ذي جرة وخولان. مخلاف جيشان. مخلاف حراز. مخلاف حضور . مخلاف خولان . مخلاف ذمار . مخلاف ذي رعين . مخلاف رداع . مخلاف رداع وثات . مخلاف السحول . مخلاف شبام . مخلاف شبوة . مخلاف الشرف الاعلى . مخلاف عثر . مخلاف بني عامر . مخلاف العود . مخلاف لاعة . مخلاف مأذن

مخلاف مأذن وحملان . مخلاف مأرب . مخلاف المعافر . مخلاف الملل . والذي يرجح عندي ان هذه المخاليف هي المشار اليها في نبوة ارميا بمالك حاصور او « حضور » ولعل السيادة في ذلك الوقت كانت لمخلاف حضور وهو على مقربة من صنعاء ولا يبعد ان صنعاء كانت المدينة العظيمة في هذا المخلاف الذي كان فيه مقر السيادة او الامارة العظمى حينئذ

صنعاء وما حواليها

موقع صنعاء شرقي الحديدة بميلة الى الشمال وشمالي عدن مع بعض الميلة الى الغروب وتبعد عن الاولى مئة وخمسين ميلاً وعن الثانية مئتين وسبعين ميلاً . وهي قلب بلاد اليمن ومركز دائرتها موقعاً وتجارة وسياسة وهي مبنية على قاع متسع في غربي جبل نقم . وينشعب من هذا الجبل هضبة فارعة عليها قلعة او حصن يطل على المدينة ويتسلط عليها والمدينة ثلاثة احياء حي العرب والترك وفيه الاسواق ومركز الحكومة وبيوت الاهلين وحي اليهود وهو منفصل عن الحي الاول بسيف من الارض القاحلة ويحيط به سور له على حدة وحي بير العصاب وفيه الجنائن وقصور الاغنياء من عرب وأتراك ويحيط بهذه الاحياء كلها سور من الاجر المجفف بالشمس الا ان معظم الابراج والحصون على السور مبني من الحجر الصلد . وللمدينة اربعة ابواب باب على كل جهة من الجهات الاربع وعدد سكانها على ما يرجح يبلغ نحواً من خمسين الف نسمة منهم عشرون الفاً يهود (انظر كتاب هرس « رحلة في اليمن » طبع لندن سنة ١٨٩٣ وجه ٣١٢) والمدينة تعلو عن سطح البحر ما يزيد عن سبعة آلاف وأربعمئة قدم

قلنا ان صنعاء واقعة في قلب البلاد اليمنية عدن الى الجنوب وصعدة ونجران الى الشمال والحديدة الى الغرب ومآرب عاصمة بلاد سبا قديماً الى الشرق . وفي مآرب هذه السد العظيم الشهير المعروف بسد مآرب وعرض هذا السد او ثخنه مئة وخمس وسبعون خطوة وطوله نحو الميلين على الاقل ويصل بين الجبلين على طرفي الوادي وأما علوه فكان يزيد على المئة والعشرين قدماً . وما زال قائماً نحواً من عشرين قرناً تقريباً . ومن اراد فليراجع وصفه في مروج الذهب للمسعودي فانه من أهول وأضخم وأنفع ما بناه الاقدمون وليس سد اصوان الحالي في جانبه الا ولداً صغيراً بالنسبة الى الجبار المظيم

جاء في شرح قصيدة ابن عبدون طبع ليدن وجه ٩٧ و ٩٨ — وقد نقل الشارح ما كتبه عن المسعودي — ما نصه

كانت بلاد مآرب جنة واحدة متصلة « وكانت العمارة فيها أزيد من مسيرة شهرين

للراكب المجد وكانوا يقتبسون النار بعضهم من بعض مسيرة ستة اشهر وكانت المرأة اذا ارادت ان تجتني من ثمرها شيئاً وضعت مكتلها على رأسها وخرجت تمشي تحت الثمار وهي تغزل او تعمل ما شاءت فلا ترجع حتى يمتلي مكتلها مما شاءت من الثمر الذي يتساقط طيباً »

هذه العبارات تشير الى العمران العظيم الذي كان للبلاد العربية اليمن ونجد والحجاز وأرض البحرين . ولا أشك ان العمران كان بحيث يجوز ان يوصف بمثل الوصف المار ذكره — اذا تسامحنا مع الكتاب ذوي المخيلة الذين كانت تحركهم محركات من الانفعالات عند ما كانوا يكتبون ما يكتبون — لان في الآثار الباقية من الادلة ما يصدقه واليك منها

(اولا) السدود التي على شاكلة سد مآرب فانها كثيرة جداً تصادفها حيثما سرت في اليمن . قال الهمداني في كتابه وصف جزيرة العرب ما نصه

« وبيحضب العلو على ما خبرني ابو غالب بن ابي العباس بن ابي غالب السفلي ثمانون سداً قد ذكرنا عنه في كتاب الاكليل كبارها وفيها يقول تبّع

وبالربوة الخضراء من ارض يحضب ثمانون سداً تقلس الماء سائلا »

(ثانياً) ما يرى من المصانع والكرف واحدها كريف وهي مخازن الماء منقورة في الصخر الصلد من اشهرها ما ذكره الهمداني في باب مآثر اليمن قال « ومنها كريف يسمى الوفيت منقور في الصفا الاسود وعمقه في الارض خمسون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً والطول خمسون ذراعاً محجوز على جوانبه جدار يمنع السقوط فيه وكريف درداع يكون ستمئة ذراع في مثلها (الهمداني وجه ٧٨) اه . وهذه الكرف او البرك كثيرة جداً في اليمن تصادفها حيثما سرت

(ثالثاً) الخرائب القديمة واليك بعض ما ذكره الهمداني منها قال « ومنها خربة سلوق وكانت مدينة عظيمة بأرض خدير واسم بقعتها اليوم حبيل الريبة وهي آثار مدينة عظيمة فيها خبث الحديد وقطاع الفضة والذهب والحلي والنقد واليها كانت العرب تنسب الدروع السلوقية. ومنها جبل في مشرق وحاظة في رأس الجبل جثوة قصر منهدم لا يزال يوجد فيه الجوهر والذهب والناس يغزونه كما يغزون خربات الجوف » (الهمداني وجه ٧٨ و ٧٩)

(رابعاً) كثرة المعادن فان في نجد وحدها من المعادن ما ذكره الهمداني صفحة ١٥٣ حيث قال « ومعادن اليمامة وديار ربيعة التي توطنتها اليوم عقيل بن كعب معدن الحسن والحسن قرن اسود مليح وهو معدن ذهب غزير . ومعدن الحفير بناحية عماية وهو معدن ذهب غزير . ومعدن الضبيب عن يسار هضب القليب . ومعدن الثنية ثنية ابن عصام

الباهلي معدن ذهب . ومعدن العوسجة من ارض غني فويق المغير ببطن السرداح . ومعدنا شمام الفضة والصفر . ومعدن تياس ذهب مخف بتياس . ومعدن العقيق معدن الحجبة بين العمق وبين افيعية . ومعدن بيشة . ومعدن الهجيرة . ومعدن بني سليم . فهذه معادن نجد» انتهى

والذي ارجحه ان المعادن من كل الانواع ولا سيما الذهب والفضة والنحاس والحديد هي في اليمن وحضرموت اكثر منها في نجد . وفيهما ايضاً اي اليمن وحضرموت الفحم الحجري والبترول وأنواع من الحجارة الكريمة

اذا احضر القارىء كل ما ذكرناه في ذهنه لم يصعب عليه بعد ذلك ان يتصور امكان وجود العمران العظيم الذي اشار اليه المسعودي في كلامه عن سد مأرب ونقلنا نتفة منه عن شرح قصيدة ابن عبدون ولا يصعب عليه ان يتصور ايضاً ان مثل هذا العمران يمكن ان يعود الى العربية السعيدة مع الايام فتصبح هي ونجد من افضل ولايات مملكتنا العثمانية الدستورية

عدد سكان اليمن

يقدرون عدد سكان اليمن العثمانية بين المليونين والثلاثة ملايين والمرجح عندي ان بلاد مأرب ونجران غير داخلتين في هذا الاحصاء لان البلادين وان كانتا ضمن منطقة املاكنا العثمانية التي لا ينازعنا فيها منازع الى الآن فان سلطتنا الفعلية الحقيقية لم تتجاوز صنعاء الى الشرق والشمال الا مسيرة يوم او ما لا يزيد عن الثلاثين ميلاً في الا كثر وأما ما وراء ذلك فكان ولم يزل تابعاً لنا بالقوة لا بالفعل ولا يعلم من احواله وعدد سكانه شيء الا على سبيل التخمين . والراجح ان في بلاد مأرب ونجران وأطراف اليمن ووادي دواسر (وكل هذه البلدان يجب ان تكون عثمانية ويمكن ان تكون عثمانية ولحد الآن لا تجسر دولة من الدول غيرنا ان تدعي بشيء من الحماية على شبر واحد منها) ما يزيد على المليون فوق ما يقدرون وعليه فسكان اليمن العثمانيون يزيدون الآن على الاربعة ملايين واذا تم الامن وبطلت من بينهم الحروب والمجاولات المستمرة فلا يمر الا القليل من السنين حتى يتضاعف عددهم ثم يتضاعف ويتضاعف لان في البلاد من الغنى الطبيعي ما يقوم بالملايين الكثيرة

سكان اليمن

اليمن بلاد حضارة قديمة العهد جداً ولذلك فأغلب أهاليه حضر يسكنون المدن والقرى ويعيشون من الزراعة والصناعة . وهم اهل جد ونشاط في زراعتهم لا يفوقهم احد

في ذلك على ما ارجّح حتى ولا الانكليز او الالمان اهل الكد والنشاط

انا نعجب من اهل لبنان ونشاطهم لانهم كما يقال ينقلون التراب نقلاً الى ما بين الصخور حيث يجدون مكاناً لنصبة من التين او الزيتون او غيرها من انواع المغروسات النافعة . ولا نعلم في ولايتي بيروت وسوريا عن نشاط كنشاطهم اوكد ككدهم حتى اصبحوا مضرب مثل في كل سوريا من أقصاها الى اقصاها الا ان الذين شاهدوا اليمن من نيبوهر الى هرس وزويمر كلهم شاهدوا حيران شجرة البن قائمة بعضها فوق بعض ولا قيام صفوف المدرج (الامفيتياتر) وكلهم يشهدون بالنشاط والقوة اللذين يبذلها اليمنيون في عمارة اراضيهم — نشاط وقوة لو بذل اللبنانيون مثل نصفها لـكان كل لبنان جنة واحدة متصلة الاطراف من الجنوب الى الشمال ومن الشرق الى الغرب . ان اودية اليمن — واليمن الجبلية تكاد تكون كلها اودية — تراها كلها من اسفلها الى اعلاها مدرجاً واحداً تغطي حيرانه شجيرات البن او غيرها من الاشجار ذات النشر والثمر . ولقد يبنون الجدران الحجرية القوية يعالون بها الى العشر الاقدام ويملأونها تراباً ليربحوا ما لا يزيد عرضه من التربة على خمس اقدام او ست . قال هرس عددت مائة وسبعة وثلاثين حائراً من هذه الحيران يعلو الواحد منها فوق الآخر (الحائر والحير بمعنى الجل في لغة اهل لبنان) وكلها مبنية جدرانها بالحجر الصلد بناء محكماً لا يقل ارتفاع جدرانها عن التسع الاقدام

لو كنت مصوراً لرسمت هنا للقراء احد الرسوم التي رسمها هرس في كتابه «رحلة في اليمن» فان نظرة واحدة اليها تنقل الى اذهانهم مقدار ما يبذله اليمنيون من النشاط والكد في زراعة اوديتهم وغرسها ولعل استاذيّ لا يبخلان على القراء بنقل الصورة المرسومة على الصفحة الثامنة من الـكتاب المذكور الى المقتطف فتكون ذخيرة لهم يغنيهم النظر اليها عن كثير من الوصف او يفهمون الـكثير من الوصف بمجرد النظر اليها

طرق اليمن ومواقع مدنه

لو كان في الامكان ان انقل الى المقتطف الاغر او ينقل الينا هو رسمين آخرين من رسوم هرس وهما مقابل صفحة ١١٠ و٢١٨ من كتابه الذي اشرنا اليه قبيل الآن لاغنتنا هذه الرسوم عن صفحات من الوصف ولنقلت الى الذهن بالجملة اثراً صحيحاً عن طرقات اليمن ومواقع مدنه وقراه القائمة على شرفات الجبال وعواتقها المطلة على اوديته. قرى كثير منها ان لم نقل أغلبها اوكنات نسور لا يصعد اليها الا على طريق واحدة منقورة درجاً في

الحجر الصلد فيستطيع العشرة فيها ان يمنعوا المئة من الوصول اليها والمئتين والمئة ان تمنع الالف والالفين

ولتر هرس ذهب سنة ١٨٩٢ من عدن الى اليمن مكاتباً من قبل جريدة التيمس فسار الى صنعاء عن طريق لحج وذمار وخربة جران في حديث يطول شرحه. وبعد ثلاثة اسابيع وصل الى صنعاء . ثم رده من هناك مخفوراً احمد فيضي باشا قومندان المعسكر السابع وكان ارسل لكبح الثائرين بعد ان كان اشتد امرهم على حامية صنعاء وضيقوا على الاهلين الخناق فوصل هذا القائد الباسل الى عاصمة اليمن في نفس الشدة ففرج حالاً عن حاميتها وأهلها وأرسل القواد الى بقية الجهات لاسترداد المواقع التي كان الثوار قد استولوا عليها وفيما هو كذلك اذا بالمستر هرس هذا امام دار الحكومة . ورأى القائد الباسل احمد فيضي باشا ان مقتضى الحال والمصلحة يقضي بارجاعه الى حيث أتى فأرسله الى الحديدة عن طريق مناخة . وقد اخترت تلخيص ما كتبه هذا الكاتب الشاعر عن طريقه من صنعاء الى مناخة الى الحجيلا . والحجيلا بلدة في آخر بلاد الجبال من جهة صنعاء وآخر بلاد تهامة من جهة الحديدة وقد فعلت ما فعلت لانقل على أخصر طريق الى ذهن القارئ شيئاً من جمال جبال اليمن وأوديتها وشيئاً آخر من مواقع قراها وصعوبة مسالكها

قال المستر هرس ما محصله . قمنا من صنعاء صباحاً فوصلنا قهوة متنة حوالي نصف النهار فحططنا لنتغدى الظهر ونستريح قليلا ومن ثم سرنا حتى وصلنا بوان والطريق تأخذ كلها صعداً . ومن بوان اغذذنا السير فوصلنا الى سوق الخميس مساء ونمنا هناك . ولما بلغنا اعلى العقبة قبل ان وصلنا الى سوق الخميس بقليل كنا على علو عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر

ثم اخذ يصف الطريق بين بوان وسوق الخميس وقد اخترت هنا الترجمة الحرفية تقريباً قال «الطريق بين بوان وسوق الخميس عقبة في رأس جبل تشرف شمالاً على واد كبير عمقه نحو من بضعة الف قدم. ويا له من واد ما اجمله وأفخمه واد تملأه اشجار البن ويزخر زخراً بأصناف النباتات الزاهية البهية المجيدة ومن بينها اغراس الموز بأوراقها الكبيرة الخضراء تهز رؤوسها تيهاً وادلالاً . وكنا نرى القرى بين هذه الخضرة الناضرة تتعلق بجفاف هذا الوادي ولكل قرية برجها. وكأنما كل قرية وكنة نسر تقوم على هضبة خلقت من صخرة واحدة. وكثيراً ما كنت اقف بعض دقائق لأملأ نظري واعجابي من هذا المنظر الساحر الى ان تهور النهار فتصاعدت حينئذ الغيوم من الوادي اغشية رقيقة غطت ما امامي من اسناد الوادي وأخفت عن نظري ما كنت اراه الا قمم الجبال على الجهة المقابلة فانها كانت تظهر

قائمة فوق بحر من الغيوم الملونة بألوان قوس السحاب كأنها المنائر او قبب اجراس الكنائس

« فيالك من بلاد ايتها اليمن الساحرة. اي مجلدات من السوالف والتواريخ لا تزالين تكتمين عن علمنا وبصائرنا في اوديتك هذه العظيمة واسناد جبالك الشامخة. وأية قصص كان ويكون في امكان جداولك الصافية المتكسرة ان تقصها علينا. من لا يعلم ان ماءك الزلال كثيراً ماجرى احمر بما مازجه من دم المهجات والاكباد. تسربت حنادس الليل فانقلب المنظر من امامي الى منظر سكينة رهيب. سكينة غريبة في نوعها ولكنها تسحر النفس وعلاً ها هيبة واجلالا

« لما تركنا سوق الخميس في الصباح التالي كانت المناظر امامنا في جمالها ورونق جلالها كتلك التي راعت نفوسنا بالامس فما اشرقت الشمس حتى انقشعت ضبابة المساء ولاحت امامنا سلاسل الجبال سلسلة وراء اخرى وقمة تعلو قمة اخرى من ورائها الى ان علاها كلها في نهاية الافق غرباً سلسلة عظيمة شامخة حجبت عنا كل ما وراءها

« ثم اخذت الطريق تنحدر بسرعة وتتلوى بنا طويلاً فتارة ترى عليها اثراً من ترميم مهندسي الاتراك وتارة اخرى تراها بحيث تتماسك عليها الاقدام تماسكاً على جانب الجبل ليس الا

« ولقد مررنا ببقعة هنا من اجمل ما رأته عيني من المناظر في اليمن على منتصف منحدر تكسوه غابة من الشجر هنالك كان مقام لبعضهم (قبر وعليه بنية) والى جانبه ينبوع ماء عذب تتكركر مياهه الى بركة عميقة ويقوم من ورائه على مسافة قمة من الجبل جرداء صخرية ترى في الافق الازرق وعلى رأسها انقاض قرية دكتها المدافع العثمانية لم تترك منها الا الجدران تخبر بسابق وجودها. وكل منحدرات هذه القمة او الهضبة فيما دون القرية مكسوة بالشجر خميلة واحدة خضراء والمسجد المقام على القبر تعلوه القبب المهندمة البيضاء يشيب بياضها خضرة الاشجار والرياحين حولها. وصوت المياه الجارية يزيد المنظر خلابة وسحراً فوق ماهو عليه من رائع الجمال والهدو البالغ مبالغه

« انتهى بنا اخيراً صبب الطريق فدخلنا وادياً خاوياً خالياً لزمنا المسير فيه حيث يجري الماء وكان الوادي حينئذ ناشفاً ومجراه مفروش بالصخور ومع ذلك فكان الين مساً وأنعم ملمساً من الطريق الاصلية. وكانت هذه تتلوى حوالي النهر تروح وتجيء لا تكاد تبين لما فيها وحولها من الرضام والصخور الساقطة من المنحدرات فوقها

« وبعد ساعة او ما يقارب الساعة مررنا من تحت قلعة مفهاق العجيبة وهي قلعة متربعة على شاهق من الصخر يعلو نحواً من خمسمئة قدم على الوادي او ما يزيد. ثم اخذت الطريق تصعد بنا ثانية وما زلنا برهة والطريق آخذة بنا في واد او شعب صغير من اجمل الشعاب

التي رأيناها وكأنما هو مصغر لذلك الوادي الكبير الفخيم الذي ألمحنا اليه سابقاً . الصخور قائمة على الجانبين كأنها الجدران الى علو يتراوح بين الخمسين والمئة قدماً وقد نبت عليها انواع عديدة من الزهور البرية بما جعل الوادي لكثرة الوانه شبيهاً بالبساط العبقري او بواد من اودية الجان (Fairy-land) خامات من الياسمين تغطي اجراف الوادي. وعلى اجراف الوادي وعلى جانبيه يزهو الطلح والصبر وتتضوع روائحهما وهنالك شجرة ذات زهر كأنه زهر القرنفل الفاتح قد غرستها الطبيعة على جانبي مجرى الماء الضيق فتخال ان الانسان زرعها في مكانها هذا قصداً. مرت بنا ساعة على ما وصفنا وصلنا بعدها الى خان عجز فنزلنا نستريح ونتغدى الظهر ولم نلبث الا برهة بين الساعة والساعتين لأني كنت شديد الرغبة في ان نصل مناخة قبل العتمة فركبنا بغالنا وودعنا صاحب الخان ومن كان هناك من الجنود التركية وكانوا نفراً يسيراً فكنا كلما تقدمنا في الطريق ازدادت هذه فخامة وجمالاً لأننا كنا توسطنا الجبال حيث مناخة على قمة بعضها كوكنة نسر أو كن رخمة . قلنا انا كنا نسير في مجرى نهر الا ان علو هذا المجرى عن سطح البحر كان فوق خمسة آلاف قدم. فبينما نحن نسير انقطع بنا المجرى بغتة وأخذنا نصعد في عقبة شاقة ولكن كنا بعد ما مر بنا من العقاب اصبحنا وقد اعتدنا السير في مثلها ولم تكن الطريق الا مجازاً في سند الجبل فرشت فيه الصخور التائهة عن مقرها بساطاً غير وطيء فلم يكن يسعني ولا اظن انه يسع غيري ايضاً الا ان اعجب كيف تطيق بغالنا الصغيرة ان تصل الى آخر هذه العقبة. نزلت انا وعبد الرحمن وسعيد عن بغالنا في اسفل العقبة (وهو اولها) وأخذنا نتسابق عدواً نتسلق الصخور تارة ونتدهور من عليها تارة اخرى. وما زلنا نستكد انفسنا صعداً وقد خلفنا البغال مع المكارين الى أن صعدنا ما يزيد على الفين وخمسمئة قدم في تلك العقبة الكؤود المتلوية فلما وصلنا قمتها وكأنما وصلناها بغتة اذا نحن بمدينة مناخة الصغيرة على كتد امامنا فعزمت ان انتظر في مكاني الى ان يصل الينا من كان يحرس علي من الجند وكنا قد سبقناهم مسافة بعيدة فرميت بنفسي وأنا حران الهث على حرف صخرة وأخذت اتأمل في ما امامي من المنظر ويا له من منظر عجيب هائل ! حوالينا من كل جهة قمم جبال جرداء غريبة الاشكال والهيئات ومهاو تكاد تكون على خط عمودي. واحدى هذه المهاوي هي التي وقفنا عليها نستريح وننتظر ومن على جانب منها كنا نرى العقبة التي صعدنا فيها تتلوى عنا والينا تارة ذات اليمين وتارة ذات الشمال وكانت البغال والمكارية تتراءى لنا كأنها النمل تتصعد عليها وكانت أشعة الشمس المشرفة على الغروب تلون قنن الجبال بلون وردي وكثير من هذه القنن كانت أعلى منا بألوف من الاقدام تتوجها القرى والابراج الغريبة في بابها مواقع وأشكالاً .

ثم لحقتنا البغال والرجال فركبنا بغالنا وقطعنا عليها المسافة القصيرة التي بقيت بيننا وبين مناخة ودخلنا المدينة آخذين في الطريق التي توصل الى مركز الحكومة حيث يقيم القائمقام وبعد ان تركت القائمقام ذهبت أتجول في المدينة يتبعني الحرس الا انه لم يكن يتعرض لي في شيء من حركاتي وسكناتي بل كنت أتجرأ على الرسم بمرأى منه لولا مخافة ان تقع عليه ملامة فيما لو شوهدت أرسم في حضرته ولذلك كنت أتحرى الوقوف او الجلوس من وراء صخر مشرف وأرسم ما أريد رسمه ولا يراني أحد

« قدر لي ان أرى أماكن كثيرة الا ان موقع مناخة كان من أغرب وأعجب ما رأيته لانها مبنية على كتف جبل ضيق هو وصلة بين سلسلتين من الجبال . وفي هذا الكتف خط مفرق المياه لواديين عظيمين جداً أولهما الوادي الذي مررنا به حتى وصلنااليهاوالثاني الى الغرب منها . والكتف هذا المبنية عليه المدينة ضيق جداً حتى ان كثيراً من جدران البيوت على جانبيه من هنا وهناك تقوم على أجراف الوادي العميق تحتها. بل بعض المباني تطل على الواديين معاً فيراها الجالس فيها في وقت واحد ومن موقف واحد

« ويزيد هذا المنظر الغريب غرابة ما حوله من القمم الغريبة الاشكال القائمة حوله وماذا اقول في وصفها ? انه لا يحضرني الفاظ تشف عما يدل على اشكالها وهيئاتها فانها غريبة في بابها يقف الخيال حائراً عندها . فوارع شاهقة جداً جرداء مصخرة متوعرة منتصبة كالجدران تنتهي برؤوس كأنها قوالب السكر على كثير منها المعاقل بناها الاهلون . اما كيف يصعدون اليها او ينزلون منها او من أين يستقون مياههم فيها فكل ذلك مما يوجب الاستغراب ويلقي في الحيرة والدهشة

« اما مناخة نفسها فمدينة صغيرة وربما لا يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف نسمة وبيوتها من حجر أغلبها ذات ثلاث طبقات وبعضها ذات أربع وسوقها عامرة تجد فيها كل ضروريات المعيشة المتمدنة وفيها مخازن كبيرة واحد او اثنان منها لرجال من اليونان تجد فيها ما تجده في مثلها من مخازن مصر والاسكندرية

« وموقع مناخة يعلو سبعة آلاف وستمئة قدم عن سطح البحر ولذلك هو عرضة للتقلبات الجوية السريعة فانه لم تمر الساعتان على وصولنا تحت أشعة الشمس الحارة حتى طبقت السماء بالغيوم بما أخفى المناظر أمامنا عن أعيننا وهبطت درجة الحرارة الى خمسين فهرنهيت فاضطررنا الى الاصطلاء بالنار على كوانين النحاس أنا ومن معي . وعند الساعة الثامنة أخذتني الحمى فجأة ولم تفارقني الى الساعة العاشرة من الصباح التالي وكنت في ذلك الحين لا أقوى على النهوض الا بمعاونة من ينهضني فتوقفنا عن السفر ولم يتصعب علي القائمقام

في المقام يوماً آخر بل بذل ايضاً كل ما في وسعه لراحتي . وبعد الظهر كنت استرددت شيئاً من قوتي فجررت نفسي الى ظل بين الصخور حيث أضرم لي خادماي ناراً وطبخا قهوة

« وكان الموقف الذي تخيرته يشرف على الوادي الكبير غربي المدينة من اعلاه الى اسفله فرأيت جيران البن وغابات الموز ادراجاً بعضها فوق بعض ورأيت القرى وسطوح بيوتها امامنا كأنها رقعة شطرنج ينظر اليها اللاعب من علو . وكان على مسافة في الوادي يتراءى لنا خيط من النور الفضي ينم على نهر جار هناك تمده من تلك المنحدرات الصخرية مئات من النهيرات تتكسر مياهها على الصخور او تهبط من فوقها على طريقها لتلتقي بالنهر الكبير في اسفل الوادي . ثم من وراء ذلك كان ضباب وقمم جبال اختفت عنا الوانها فصارت كأنها الغيوم ولكنها جميلة جمالاً لا يفصح عنه باللسان

« الا ان أهمية مناخة ليست في جمال مناظرها وجلالها بل هي في موقعها الحربي لأن نقطتها تتسلط على الطريق السلطاني ما بين الحديدة وصنعاء وهي على نصف المسافة بين المدينتين تقريباً ومن أصلح النقط لحفظ خط المواصلة بين الساحل وصنعاء قلب البلاد اليمنية

من مناخة الى الحجيلاء

« قمنا باكراً في الصباح التالي نقصد الحجيلاء . والطريق في أثناء الاميال الاولى تأخذ في جانب الجبال على الجهة الجنوبية من الوادي وتذهب صعداً بالتدريج ساعة او ما يزيد حتى يبلغ ارتفاعها ثمانية آلاف قدم فوق سطح البحر وهناك تقطع ضهراً من الارض بقرب قرية الهجرة ثم تأخذ بالهبوط

« وقرية الهجرة هذه مبنية على نشز ترتفع اسناده من كل جهة كالجدران وظاهر القرية يدل على انها قرية كبيرة ذات اهمية فضلا عن ان موقعها حصين جداً. وأما البلاد حولها فجميلة جداً — مياه كثيرة ولا ينقصها الشجر ايضاً

« لم نلبث الا قليلاً بعد ان تركنا الهجرة الى يميننا وأخذت الطريق تنحدر بنا حتى ظهرت لنا قرية اخرى اعجب وأغرب من القرية التي تركناها. والقرية يقال لها عطرة . اما موقعها فعلى مرتفع من الارض تحيط به من كل جهاته الجيران المدرجة ثم من وسط هذا المرتفع ينهد قرن من الصخر يذهب صعداً في الهواء مئات من الاقدام وينقسم في منتصفه على خط عمودي الى قسمين يعلوان معاً وعلى رأس كل من القسمين بيت كبير ذو طبقات او معقل يلجأ اليه . والناظر الى هذين المعلقين لاول مرة يذهب ذهنه بادىء بدء الى السؤال كيف يتوصل اليهما فان العين لا ترى طريقاً لها ويصعب على الناظر ان يصدق ان ثم طريقاً وقد اخبرني رفاقي ان الطريق اليهما في سلم منقور درجاً في الصخر — وعلى قاعدة

القرن بقية بيوت القرية تلتف حواليه. اجتزنا عطرة والطريق تتلوى بنا على جانب الجبل وما زلنا كذلك حتى وصلنا الى قهوة وبزل قبل الظهر بقليل. وموقع وبزل غريب جداً (نظير اكثر مواقع قرى اليمن) فانها على شفا جرف تحتها عميق جداً . اما المكان بالذات فحقير وهو أكواخ مغطاة بالحصر والكلأ للاستظلال بها وهناك جنينة صغيرة فيها بعض الجيران يشرف الناظر من جدرانها الى الوادي العميق تحتها على خط عمودي تقريباً فجلسنا تحت شجرة ظليلة على بساط بسطناه تحتنا نروح نفوسنا ونمتع أعيننا بما حوالينا من المناظر المخيمة وكنا في موقفنا اذ ذاك نعلو أربعة آلاف وخمسمئة قدم فوق سطح البحر وأمامنا مدرجات من حيران البن لم نر ما يماثلها الى الآن فان زراعة البن على أجودها في هذه الجبال ولا سيما على اسناد سلسلتي جبل مسار وصعفان (Safan) الى الشمال منا والجبال فوق هذه الحيران تعلو صعداً في الهواء كالجدران ويكاد يكون على كل قمة من قممها قرية وحصن من القرى والحصون التي مرت بنا الاشارة الى وصفها فيما سلف . تركنا وبزل والطريق عقبة تنحدر وتتلوى بنا على سند الجبل الا ان آثار العمارة ظاهرة عليها فان الاتراك وسعوا الطريق هنا وزرعوا الاشجار على جانبيها للظل ولمنع التربة من ان يجرفها السيل وما زلنا نمشي حتى وصلنا مجرى النهر في الوادي فلقينا حينئذ من المشقة أشدها لان المجرى وهو الطريق كان غاصاً بالرضام والصخور المدماكة الى حد لم تكن البغال تقوى فيه على السير الا بصعوبة شديدة فاضطررنا الى ان نمشي على أقدامنا وما زلنا نمشي والمجرى يتضايق الى ان صار مضيقاً لا يزيد عن مجرى السيل والصخور تعلو على جانبيه كالجدران الى ما يقارب الثمانين قدماً . واستمر بنا المسير كذلك مدة الى ان تخلصنا من المجرى وصعدنا في تلة صخرية عن شماله . وبعد ان جزنا متناً صغيراً سهلاً أخذنا ننحدر نحو قرية الحجيلاء فوصلناها بين الساعة والساعتين قبل الغروب . وفي هذه القرية تغيرت علينا المناظر وتغير الهواء. شارفنا تهامة وودعنا جبال اليمن العظيمة وأوديتها الخصيبة الجميلة » .

(راجع كتاب هرس — رحلته في اليمن — من صنعاء الى مناخة والى الحجيلا)

ان المستر هرس كتب كتابة شاعر حركت نفسه عظمة الجبال وجمال الاودية ومع ذلك فالمطالع على ما نقلناه عنه هنا تارة تلخيصاً وتارة ترجمة بالحرف تقريباً فانه يتصور صورة جلية تقرب من الحقيقة عن بلاد اليمن وجبالها وأوديتها وصعوبة مسالكها وحصانة مدنها وقراها . ويتهيأ لما جعلنا ما كتبناه الى الآن توطئة له من أهمية البلدان العربية في المملكة العثمانية الدستورية وأهمية اللغة العربية فيها اي في المملكة ووعدنا بكل ذلك الاعداد القادمة ان شاء الله

خاتم المارد وبساط الريح وقبع الاخفاء (١)

جاء في قصص الف ليلة وليلة وفي أخبار الملك سيف ذكر ثلاثة أشياء عجيبة غريبة لما لها من الخواص والصفات الخارقة المعتاد الاول منها خاتم المارد ومن خواصه ان حامله اذا فركه بيده مثل أمامه مارد من المردة العظام يقول له لبيك يامولاي ماذا تريد فان قال اريد طعاماً او شراباً او لباساً احضره له في الحال. او قال اريد ان تبني لي قصراً تحيط به الجنات وتجري من تحته الأنهار وفيه احسن الرياش والاثاث وفيه العبيد والجواري على مراتبهم في الخدمة لم يلبث ان فعل له ذلك لا فرق بين ان يكون القصر في البر فوق مرتفعات التلال الخضراء او في البحر على شائقات الجزر الغضراء

والثاني بساط الريح ومن خواص هذه الاداة ان تقطع بصاحبها المسافات الشاسعة التي لا يمكن ان تقطع بواسطة أخرى فاذا ضرب بساط الريح صاحبه لباه المارد الموكل به يقول امرك يامولاي ماذا تريد فيقول مثلاً انقلني الى مدينة كذا الى قصر ملكها الى غرفة منامه فينقله بأسرع من لمح البصر. وقد يحمل بساط الريح صاحبه فوق بحار من الظلمات لا يهتدي فيها او فوق اراض مسحورة يستحيل قطعها لولا هذا البساط وما له من الخصوصية الباهرة

الثالث قبع الاخفاء ومن خصوصياته ان صاحبه اذا لبسه اختفى عن الاعين فأصبح يرى ولا يُرى. وربما باغته مباغت من عدو مشاكس او سبع مفترس فيظن انه صار في قبضته لكن بينما هو يبسم ابتسامة المنتصر الظافر اذا بخصمه صاحب قبع الاخفاء قد غاب من امامه بغتة وتركه يحرق اسنانه من شدة الغيظ ومرارة الخيبة

يقولون ايها السادة والسيدات ان كاتب الف ليلة وليلة رجل حكيم عاقل اشبه بالفيلسوف بيدبا صاحب كتاب كليلة ودمنة. فبعض حكاياته وان ظهرت للعامة بمظاهر اللهو والخرافات يقرأونها ترويحاً لنفوسهم ومجاراة لاوهامهم وتخيلاتهم هي عند التحقيق يشار بها الى حقائق حقة وعادات مرعية وآداب متبعة

وأحق قصصه بالتفسير والتأويل خبر هذه الاشياء العجيبة فانه لم يرم بها على المخيل ولا اراد بها مجرد ايهام الجمهور وترويض مخيلاتهم تمريناً لها على قبول الغرائب والمستحيلات

---

(١) خطبة للاستاذ جبر ضومط استاذ العربية في المدرسة الكلية السورية الانجيلية في بيروت القاها في مدرسة البنات الاميركية في حفلة اعطاء الشهادات

الخوارق كذا يقول كثيرون من جلة أهل العلم والنظر على ما سمعت فأرجح من ثم انه أشار بهذه الادوات الثلاث الى معان وظواهر لاريب في وجودها تنطبق اوصافها على اوصاف هذه الادوات

دعونا اذن ننظر في تأويل هذه الادوات وبيان ما تشير اليه. اخاف ان تهزأوا بي ايها السادة والسيدات وتعدوه من السخف ان تؤول هذه الاقاصيص كما تؤول كتب الحكمة والفلسفة . وقد لا يبعد ابتداء ان تقولوا في سركم ماذا أصاب هذا الرجل . متى خولط في عقله. انخاتم المارد وبساط الريح وقبع الاخفاء تشير الى حقائق معنوية وجودية. ما سمعنا بهذا من قبل . بل غاية ما نظنه انها من خرافات المخيلة ولهو الحديث . والنكتة فيها إن كان فيها نكتة انما هي غرابة تصور كاتبها وبعد تخيلاته. لا تعجلوا في الحكم ايها الشبان الادباء والسيدات الاديبات ولا تظنوا بي الظنون ايها الفضلاء والعقلاء. انما اعيروني سمعكم قليلاً وليسعني حلمكم وصبركم بضع دقائق فأبين في خلالها مغازي ما يراد بهذه الادوات العجيبة

خاتم المارد على ما يظهر من القصة واسطة بين من يحصل عليه وبين المارد اي بينه وبين قوة عظيمة موجودة غير منظورة . وكذلك بساط الريح وقبع الاخفاء. افرك خاتم المارد بيدك فيحضر المارد بين يديك يقول اطلب ما تشاء أحضره لك باسرع من لمح الطرف . اضرب بساط الريح بالعصا التي أعطاكها المارد فيخف المارد لاجابتك ويحملك الى حيث تشاء ويقطع بك مسافة لا يمكن ان تقطعها بدونه . البس قبع الاخفاء فيحضر ذلك المارد وبقوته الخاصة يرد العيون عن ان تراك ويقيك المكائد والاضرار التي لولاه لوقعت بك . ترون اذن من القصة ان المارد الذي يمثل بين يديك لخدمتك اذا فركت الخاتم هو نفس المارد الذي يحملك على بساط الريح ويقطع بك المسافات التي لا تقطعها بدونه وهو هو الذي اذا لبست قبعه يواريك عن عيون الاعداء ويقيك المكائد والاضرار التي كانت لتقع بك لولا وقايته

وعليه فالخاتم والبساط والقبع انما هي أسباب محسوسة اذا امتلكت امتلك بامتلاكها قوة عظيمة جداً يعبر عنها بمارد فيكون طوع إرادتنا نحضره عند الحاجة ونصرفه عند الاستغناء عنه . وفضلاً عن كون هذه الادوات اسباباً اذا حصلنا عليها حصلنا على القوة هي أيضاً عبارة عن ثلاثة انواع من الخدمة التي يصرف المارد في قضائها لا تتشوف النفس الى أكثر منها . لي بعد شيء أقوله وهو اذا قرأتم القصة وأمعنتم النظر فيها جيداً ترون الكاتب لم يغفل عن ان يلمح الى ان هذه الادوات والاسباب المحسوسة يمكن ان يفقدها

صاحبها واذا فقدها فقد مع فقدانها قوة المارد أيضاً مع انه يبقى هو هو

أرى وقد قلت ما قلته ان مغزى القصة لا يصعب بعد فهم المراد منه فان المارد عبارة عن قوة حقيقية وجودية كنى بها صاحب القصة عن قوة العقل البشري وهذه القوة هي من أعظم القوات الطبيعية في هذا الكون وما سواها من القوات خاضع لها لا يقوى على معارضتها فاذا سلمنا بذلك لم يبق شك في ان الادوات الثلاث يراد بها الاسباب المحسوسة التي اذا حصلنا عليها كانت القوة العاقلة قوة العقل البشري في ملكنا وطوع ارادتنا نستطيع التصرف بها في ما نشاء وعلى ما نشاء . والاسباب المحسوسة التي بامتلاكها نتمكن من امتلاك قوة العقل هي المال في مظاهره المعروفة . فالمال اذن هو المراد من خاتم المارد وهو المراد من بساط الريح وهو هو المراد من قبع الاخفاء . افركوا المال بأيديكم افركوا هذه التي يقال لها الليرات الانكليزية او العثمانية اوالفرنسوية فيقول لكم المارد أعني قوة العقل الانساني لبيك لبيك ماذا تريد . قولوا لهذه الليرات صيري طعاماً وشراباً فتصير . قولوا لها صيري اثاثاً ورياشاً وزينة فتصير . قولوا لها صيري قصوراً تناطح السحاب وفيها العبيد والاماء والجواري والخدم والحشم على مراتبهم فتصير . قولوا لها صيري حدائق وجنات تجري من تحتها الانهار فتصير . قولوا لها صيري مركبات وخيولاً وحراباً وبنادق ومدافع فتصير . قولوا لها صيري جيوشاً جرارة لا يعرف أولها من آخرها وازحفي على الصين والهند وقلب افريقية واخضعي تلك البلدان او عمري تلك المجاهل واستخرجي ما بها من الخيرات والكنوز الطبيعية فتطيع صاغرة . قولوا لليرات صيري مدارس ومعابد صيري ملاجيء للفقراء ومستشفيات للمرضى صيري سككاً حديدية ومعامل صناعية وتلغرافات وتلفونات ومراكب شراعية وبخارية بل قولوا لها صيري ما يمكن ان يخطر لكم ببال مما في قوة العقل البشري ان يوجده فتصير بالحال الى ما أردتم

فالمال اذن هو خاتم المارد الذي عناه صاحب القصة وهو أمر حقيقي وجودي لا مجرد اوهام وتخيلات يحلم بها الجاهل ويتفكه باستحالتها العاقل . تقولون لي فهمنا تأويلك لخاتم المارد وهو تاويل حق لا يستطاع انكاره لان المشابهة ظاهرة تام الظهور لكن كيف تؤول بساط الريح قلت اليس المارد الذي يحضر عند فرك الخاتم هو نفس المارد الذي يحضر عند ضرب بساط الريح . فاذن ليس بساط الريح الا نوع خدمة مختلفة في الاعتبار فقط عن خدمة الخاتم وعليه فلننظر في خصوصية هذه الخدمة وفيما اذا كان يمكن تطبيقها على خدمة اخرى من خدم المال . بساط الريح يقطع بصاحبه على ما في القصة المسافات المسحورة التي لا تقطع بدونه . كذلك المال يقطع بصاحبه مسافات مراتب الهيئة الاجتماعية المسحورة التي لا يمكن ان تقطع بدونه . أي مسافة ابعد من المسافة بين رتبة العامة ورتبة الخاصة ؟ ام اي مسافة اشد هولا من المسافة التي بين

رتبة الصعاليك الفقراء ورتبة الامراء؟ هذه المسافة هي المسافة المسحورة وكل رقى وطلاسم التراتيب البشرية مقامة على ابوابها تمنع من تجاوزها وتحظر على غير اهل الرتبة ان يصلوا اليها . قولوا لي متى كان يستطيع الفقير السوقة ان يقطع المسافة التي بينه وبين الاعيان من الكبراء والعلماء والامراء . مازالت هذه المسافة ولن تزال بعيدة مسحورة لا يستطاع قطعها الا بهذا البساط « بساط الريح » الذي هو عبارة عن المال الكثير ورمز اليه

لا تزعموا ايها السادة ان كلامي على سبيل المبالغة والتهويل . انظروا الى الانكليز وهم من ارقى الشعوب المتمدنة في الحال فان بين سوقتهم وبين خاصتهم من التباين والتباعد ما لا يعرفه الا من خبر القوم وعرف عوائدهم . فان الخاصة يرون من أكبر العار عليهم ان يخالطوا السوقة او يجالسوهم في حال من الاحوال . لكن هؤلاء السوقة اذا حصلوا على الغنى فتح لهم الخاصة من الاعيان والكبراء والعلماء والامراء صدورهم وقصورهم ومنتدياتهم على اختلاف انواعها . وبعبارة اخرى نقول ان الغنى يمكن اهله عند هذه الامة العظيمة من قطع مسافة رتبهم الاجتماعية مهما كانت تلك المسافة بعيدة . واذا اغتنى الفقير بينهم امكنه ان يصل الى اعظم الرتب وأشرفها على حين كانت طريقها مسحورة عليه من قبل لا يستطيع ان يخطو فيها خطوة واحدة . هذه ايضاً الامة الاميركانية والرتب الاجتماعية لا أثر لها في نظاماتها السياسية والقانون يصرح بتساوي كل فرد من افرادها في جميع الحقوق المدنية ومع ذلك لاغنيائها مرتبة ممتازة لا يوصل اليها الا بالغنى . فرتبة او طبقة الاربعمائة في نيويورك معروفة مشهورة وأهل هذه الطبقة على ما هو معروف مستقلون بمعاشراتهم وجمعياتها واجتماعاتهم وليالي لهوهم ومسراتهم لا يطمع احد ان يشاركهم فيها او يصل اليها الا ببساط الريح اعني المال . راجعوا تاريخ انكلترا ترون انه كان بين عامتهم بوجه الاجمال من جهة وبين خاصتهم وأشرافهم من جهة اخرى مسافة مسحورة في الحقوق والامتيازات ما كان يستطاع قطعها بوجه من الوجوه لكن الفضل كل الفضل في ازالة هذه المسافة وفك طلاسم سحرها انما كان لبساط الريح اعني المال . راجعوا تاريخ الامة اليونانية فان حكيمهم الشهير صولون جعل التفاوت بين طبقاتهم على نسبة التفاوت في المال فجعل المال بساطاً يطير به صاحبه من رتبة الى رتبة اعلى منها الى ان يصل الى اعلى الرتب الممكنة . راجعوا تاريخ الامة الرومانية العظيمة فانها كانت تقسم الى طبقتين طبقة العامة او البليبيان وطبقة الاشراف او البتريشيان وكانت المسافة بين هاتين الطبقتين مما لا يمكن تجاوزه الا ان بساط الريح مازال ينقل البليبيان واحداً بعد الآخر الى طبقة البتريشيان حتى ازال طلاسم هذه المسافة وكسر ابوابها التي كانت تحول دون عامتهم

ودون منزلة الشرف التي كانت لخاصتهم

بقي علي تأويل قبح الاخفاء وبيان المراد منه وأراني لا احتاج الى تعب في اقناعكم انه يرمز به الى المال ايضاً انما الصعوبة في بيان وجه الخدمة التي تقصد من قبح الاخفاء . على ان من راجع القصة وتأمل المنفعة التي كانت تحصل لصاحب هذا القبح رأى كل ذلك منطبقاً على القول المشهور وهو ان المال يستر معايب صاحبه فلا يناله مضرة المذمة وقبح الاحدوثة التي لا بد منها اذا ظهرت المعايب وكثر تحدث الناس بها . هذا صاحب المال اذا كان جباناً واستحق المذمة على جبانته ستر المال هذه الخصلة فلم يظهر جبنه بل قد يعدون الجبانة منه تبصراً وروية واحجاماً في موضع الاحجام. وكذلك البخل فيه فقد لا يرونه منه بخلاً ويتأولون له مظاهر البخل انها مظاهر اقتصاد وحسن تقدير . وقس على ذلك سائر المعايب فان المال يسترها على صاحبها فيوقى بذلك من المذمة والعار اللاحقين باهل هذه المعايب

انظروا الى الحمق من الاغنياء الطياشين الذين يجري على السنتهم ما يخطر في قلوبهم فان غالب الناس لا يرون ذلك حمقاً منهم ولا طيشاً أو تسرعاً يستوجبان التنقص والازدراء انما يحسبون ذلك لهم من باب حرية الافكار وبغض الرياء والنفاق . وبالاجمال فأكثر النقائص والمعايب التي تعتد على الفقراء والسوقة من الناس اما ان تخفى عن العيون فلا يرونها في الاغنياء اصحاب الاموال الكثيرة واما ان تنقلب صفتها فيرونها فضائل فيهم وكمالات . نعم هذا من شرور الغنى لا من منافعه ولكنه خدمة من خدم المال لصاحبه عنع العيون من رؤية مقابحه وتقيه شر تبعتها فيما لو ظهرت في مظاهرها الحقيقية

لا احتاج ان اذكر لكم كل انواع الوقاية التي يقيها المال اهله والاضرار التي يصرفها عنهم مما هو مشاهد من الوقائع الكثيرة والحوادث التي تعرفونها قديماً وحديثاً فانها من الكثرة ما لو اردت تعدادها لاقتضى لي في سردها ايام قبل ان آتي على آخرها . انما يمكنني ان اذكر لكم ما يعرفه كل منا باختباره وهو انا في غيبة اصحاب المال نغضب من نقائصهم وأعمالهم الشاذة وتبلغ بنا الحدة الى ان لا نبقي ولا نذر في ثلبهم والتنقص منهم حتى يخيل للسامع انا اذا التقينا بهم لا يصرفنا صارف عن تقريعهم بمعائبهم في وجوههم وايقاع كل نوع من الاذى والاهانة بهم لكننا اذا التقينا بهم ورأينا ابهة غناهم نسينا كلما قلناه فيهم وأخذنا في مجاملتهم والثناء عليهم على عكس ما ظهر منا في غيبتهم بل ربما نزيد في المديح والتملق لهم في حضرتهم اضعاف ما كان منا من ذمهم ومجافاتهم في الغيبة .ما الذي اوجب كل هـذا التغير فينا . ما الذي اوجب كل هذا التغاضي بل ما الذي اوجب كل

هذا العمى والتعامي الغريب العجيب حتى انا لا نرى فيهم الآن شيئاً مما كنا نراه قبيل اجتماعنا بهم . ذلك لانهم يلبسون على رؤوسهم في بيوتهم ومجالسهم قبع الاخفاء وبعبارة اخرى ابهة المال وزخارفه فلا نعود نرى فيهم شيئاً من المعايب التي كنا نتهمهم بها . وهذا مساو لاختفائهم عن اعيننا وموافق كل الموافقة لما قل ما يذكر عن خصائص قبع الاخفاء

لا يؤخذ علي من كلامي ان الاغنياء اصحاب الاموال الكثيرة هم شر من غيرهم من بقية الناس حاشا . حاشا لله ان اتهمهم هذه التهمة التي يميل الى ان يتهمهم بها كثيرون من المتفاصحين . بل الذي اعتقده فيهم انهم بوجه الاجمال خير مما يظن فيهم ومنهم من هو افضل الناس وأكرمهم نفساً وأسخاهم يداً وأحرصهم على نفع القريب ورفع شأن الانسانية . ولا أقول ذلك تزلفاً او لان قبع الاخفاء يمنعني الآن من رؤيتهم انما اقول الحق الواقع على ما اعتقد . والذي يتحصل من كلامي ان الهيئة الاجتماعية لا ترى من عيوبهم ما تراه من نفس هذه العيوب لو كانت في غيرهم . ثم هي لا تستطيع ان توصل اليهم الاذى الذي تستطيع ان توصله الى غيرهم من افرادها لا ان عيوبهم اكثر من عيوب غيرهم

ايها السادة والسيدات الكرام انتهيت الآن من تأويل المراد من هذه الادوات الثلاث التي وردت في بعض الكتب والتي يظن بها انها كتبت هناك لمجرد الفكاهة واللهو من غير ان يتوجه خاطر كاتبها الى ظاهرة من ظواهر القوات الطبيعية التي تؤثر في احوال المجتمع الانساني . والذي اقوله الآن انه ان سلم بهذا التأويل الذي اولته من انه يراد بالمارد قوة العقل البشري وأنه يراد ايضاً بهذه الادوات الثلاث المال في جميع مظاهره وأن الخواص التي نسبت اليها انما هي اشارة الى انواع الخدم التي يستطيع صاحب المال ان يستخدم العقل البشري من اجلها . ان سلم بهذه كلها فليس اذن شيء من المبالغة فيما ذكره صاحب كتاب الف ليلة وليلة ونسبه الى هذه الادوات . اي مبالغة في ان العقل البشري من اعظم القوات الطبيعية في هذا الكون . اي مبالغة في انه اعظم من القوة المغنطيسية وأنه اعظم من القوة الكهربائية او انه اعظم من قوة النور والحرارة ? بل هو اعظم وأقوى من جميع هذه القوات مجمعة معاً لانه يعرف هذه القوات وهي لا تعرفه ويستطيع استخدامها بحسب ارادته ولا تستطيع هي ان تستخدمه . والى الآن فقد استخدم كثيراً منها وذللها حتى اصبحت طوع ارادته يلعب بها كما يشاء . ولا شك ايضاً انه سيتمكن في المستقبل من معرفة خواص هذه القوى وتذليلها في قضاء حاجاته فوق ما عرف وما ذلل منها الى هذه الساعة . ثم لما كان المال في ما مضى وسيكون في ما يأتي اشبه بالبطارية الكهربائية او القنينة الليدنية يذخر فيه من قوة العقل كما يذخر في تلك من القوة الكهربائية كان امتلاك المال عبارة

عن امتلاك تلك القوة العجيبة الغريبة اعني قوة العقل الانساني . اذن لا يستخف احد بالمال لان من استخف به فقد استخف بالعقل البشري وبثمرات العقل البشري . وليحرص عليه من هو في يده لان هذه الليرة مثلا ليست بعد ذهباً أي مادة جامدة ميتة بل هي بمثابة العقل أو الرجل الحي العاقل يخدمك بقوة عقله على نسبة ما هو مذخور فيها من القوة . ولذلك فربما تكون لك هذه الليرة عاملا اعتيادياً يخدمك عشرين يوماً او صاحب احدى الصناعات المتعارفة كالنجار والبناء والحداد والحائك وغيرهم يخدمك اسبوعاً كاملا من الصباح الى المساء وربما تكون حاسباً ماهراً او كاتباً بليغاً او طبيباً حاذقاً يخدمك كل منهم بما يساوي القوة المذخورة فيها من قوى عقله

ايها السادة والسيدات الكرام لو كنت على منبر الوعظ لقلت ما اقوله الآن ان من يستخف بالمال يستخف بأعظم انعامات الله عليه ومن ينفقه جزافاً في غير موضعه يخطىء ايضاً لانه لم يحسن استعمال ما خوله اياه الله . فالمال المال فانه وديعة الله عندنا كما ان العقل وديعته ايضاً وهو بعد الصحة من اعظم النعم التي ينعم الله بها على مخلوقاته . وصاحبه كان ولا يزال موضوع التجلة والكرامة بين اهله وقومه ومعاصريه له المقام الاول بينهم ان قال اصغى الناس لقوله او امر تبادروا الى طاعته . وعلى كثرة الاغنياء في الامة تتوقف عظمتها وارتفاع شأنها ونفوذ كلمتها واتساع متاجرها وامتداد سطوتها في المعمور . وعلى كثرة الاغنياء ايضاً يتوقف غالباً اتساع الامة في المبرات وأنواع الاحسان ورفع شأن الانسانية . فالمعابد العمومية والمدارس الكلية والمستشفيات للمرضى والملاجىء لليتامى وبيوت العجزة كل هذه للاغنياء فيها اليد البيضاء والفخر الباقي مدى الدهر . وبالاختصار اقول ان المقام الاول في الهيئة الاجتماعية كان ولا يزال للمال ولاصحاب الاموال الكثيرة

ايها السادة والسيدات الواقع المشاهد يصدق الحكم الذي قلته من ان المقام الاول في المجتمع الانساني انما هو للمال ولاصحاب الاموال . وليس بعد الواقع المشاهد حجة لمحتج او تعليل لمتعلل ومع ذلك فتعزيزاً لما ذكرته دعوني اورد لكم في هذا الصدد كلام اعظم رجال انكلترا في أواخر هذا القرن اعني به اللورد بيكونسفيلد او المستر دسرائيلي المشهور فانه في روايته المشهورة بتنكرد وهي الرواية التي أودع فيها معظم فلسفته وأفكاره الخطيرة يورد مشهداً جرى فيه حديث بين اللورد تنكرد ابن دوق بلامنت وبين ابنة رجل من أغنياء الاسرائيليين فساق الحديث مساقاً جعل فيه الابنة تسأل هذا العظيم الانكليزي السؤال الآتي فتكرموا بالانتباه الى ما سألته هذه الفتاة

والى ما اجابها به الشريف الانكليزي مما يدل على رأي اللورد بيكونسفيلد واعتقاده .
قالت الابنة تخاطب اللورد تنكرد : ولكن ارجو من فضلك ان تخبرني لاي شيء المقام الاول عندكم في اوربا. فصمت هنيهة ثم قال وقد احمرت وجنتاه خجلا يظهر لي ان المقام الاعلى للمال. هذا هو رأي اللورد بيكونسفيلد وهو صريح لا يدخله شبهة ولا يقبل التأويل بوجه من الوجوه في ان المقام الاعلى في اوربا بل وفي امريكا وآسيا وأفريقيا وأوستراليا انما هو المال

قوة المال على نسبة كثرته وكثرته تتوقف على كيفية اكتسابه وانفاقه . اما اكتساب المال فمطلوب منكم ايها الرجال لا من السيدات واكتسابه موقوف على النشاط والامانة والاستقامة . يظن كثيرون انهم يحصلون المال بالاماني وهم نيام فيحتقرون الصنائع ويترفعون عن الاستخدام الا اذا كانت الخدمة شريفة كما يزعمون وشرفها بكثرة المعين لها وربما صرفوا قبل ان يحصلوا على هذه الخدمة الشريفة السنين الطوال في الكسل والنوم . فليذهب أمثال هؤلاء الى الولايات المتحدة وليتعلموا النشاط من تلك الامة العظيمة فان رجالها لا تعرف معنى الملل ولا تشعر بالكلل وهم لا يحتقرون صناعة ولا يترفعون عن عمل مشروع . وجواب احد عظمائهم لمن عيره بأنه كان مساح احذية جواب مشهور متعارف يفتخرون به ويعلمونه صبيانهم في مدارسهم . وأما كيفية انفاق المال فتهم معرفتها الرجال والسيدات ولا سيما السيدات . ايها الشبان في زمن شبابكم قبل ان تصيروا أصحاب بيوت احترزوا كل الاحتراز كيف تنفقون ما تكسبونه من المال فانكم اذا كنتم تنفقون اكثر مما تكتسبون مسرعون الى الخراب والعار وكذلك اذا كنتم تنفقون ما تكتسبون لا تبقون منه فضلة تذخرونها . ايها السيدات بعد ان تصرن ربات بيوت احرصن كيف تنفقن مداخيلكن . على كيفية انفاق مداخيلكن . يتوقف فضلكن وظهوركن وظهور رجالكن في مظاهر الكرامة والاعتبار . على كيفية الانفاق يتوقف أيضاً مستقبل اولادكن فاما ان ينشأوا للنباهة وحسن الذكر او يعيشوا او يموتوا في الخمول والفقر

في كيفية انفاق المال تراعى امور كثيرة يستحيل علي ان اذكر الآن جميعها فأذنوا لي اذن ان اذكر منها امرين احدهما ينبغي تجنبه والآخر ينبغي الاخذ به . تجنبوا اقول ذلك للرجال عموماً وللسيدات خصوصاً تجنبوا البذخ . ومعنى البذخ ايها السيدات ان تتكلفن محاكاة من هن اغنى منكن في ما هو من خصائص طبقتهن فتطمحن الى مجاراتهن في البيوت الواسعة والرياش الفاخر واستخدام الخدم والتأنق في اللباس والزينة واقامة الولائم والحفلات . السيدة الفاضلة السيدة الكريمة التي هي اهل لكل اعتبار وكرامة هي

السيدة التي تعرف درجة غناها وتدبر بيتها بما تقتضيه الحكمة فتصرف النظر مطلقاً في جميع نفقاتها عن ان تتشبه بجاراتها اللواتي هن اغنى منها . السيدة الفاضلة تصرف النظر عن التشبه او البذخ لانها تعلم ان هذا التشبه يلحق بها الاستهزاء والسخرية اولا ويوصلها الى الحاجة والفقر ثانياً

لا استطيع ايها السيدات ان اضع لكن قواعد للانفاق انهي في بعضها وآمر في بعضها ولا هو من خصائصي ايضاً بل كل سيدة ينبغي ان تكون هي الآمرة الناهية في بيتها لنفسها وفقاً لحكمتها . لكن مع ذلك لا يضر السيدة الفاضلة الحكيمة ان تعلق في بيتها آية تذكرها دائماً ان تتجنب البذخ او التشبه الفارغ الذي يوصل الى الخراب اخيراً . هذا ما يجب على كل سيدة ان تتجنبه . وأما ما يجب عليها ان تتمسك به وتعمل بموجبه فهو «حسن التدبير» وأريد بحسن التدبير ان تقدر السيدة بحسب حكمتها المبلغ الواجب ان تنفقه والذي في طاقتها ان تنفقه من مدخولها . وعلى ما يقوله الحكماء الاقتصاديون لا ينبغي أن يزيد هذا المبلغ عن ثلاثة ارباع مدخولها في السنة او اربعة اخماسه في الاكثر . ثم تنظر في الوجوه التي ينفق فيها هذا المبلغ من الطعام والشراب واللباس وأجرة البيت وبقية النثريات الاخر المتعددة التي تدخل في حساب نفقاتها فتصرف الى كل من هذه الوجوه من ذلك المبلغ الذي قلناه القدر اللائق به تجري في ذلك على نسبة معينة ثابتة لا تتجاوزها . فانها ان فعلت ذلك شملت السكينة بيتها وحل فيه السلام والمسرة والهناء . ثم لا يلبث ان يجتمع عندها من فضلات مدخولها الذي كانت تدخره من سنة الى اخرى شيء يكون قوة لها ولبيتها تستخدمه في كل مقصد شريف ومرضي لله والناس

ايها السادة والسيدات اردت بخطابي على طوله وعرضه ان اقول ما يقوله كل معلم من معلمي هذه الامة وكل معلمة من معلماتها لتلاميذها . بل اردت ايها السيدات نائلات الشهادة ان اقول لكن ما كان يقوله لكن معلماتكن الفاضلات صراحة او ضمناً بصريح القول او بحسن العمل والقدوة كل هذه السنين التي صرفتها تحت مناظرتهن ومآل هذا القول وخلاصته هو هذا . المال قوة . المال نعمة من أعظم نعم الله بعد الصحة فاياكن أن تحتقرنه بانفاقه جزافاً او ان تعبدنه . اجتهدن في تحصيله كلما مكنتكن الفرصة ومقتضيات الزمان والمكان من ذلك وابذلن دائماً جهدكن ورويتكن في ان توفرنه بكل واسطة شريفة . لكن بقدر ما نوصيكن ان تحصلن المال وتوفرن المال نوصيكن ايضاً ان لا تعبدن المال لان عابد المال يخسر الدنيا والآخرة والسلام

اللغة العربية

ما اخذت وما اعطت

خطبة تليت في الكلية الاميركية ببيروت

ايها السادة لا بد لي اولاً من بيان ماهي اللغة العربية او ما هي خصائصها ومقوّماتها قبل ان استطيع ابيّن على وجه مفهوم مقبول ما اخذت عن غيرها من اللغات وما اعطته لهن

اللغة العربية نظير كل لغة من اللغات الحية المرتقية لا بد فيها من امور جوهرية لا يجوز اهمالها ولا الاخلال بها. وهذه الامور الجوهرية تبقى من جيل الى جيل لا تتغير في شيء عما كانت عليه انما تنمو وتتفرع تبعاً لناموس الارتقاء عما يخيَّل معه لغير العارف المحقق ان قد حصل فيها انقلاب وتغيير والحقيقة غير ذلك . فان اهملت هذه الامور الجوهرية او أُخِلَّ بها وقفت اللغة عن النمو او تراجعت الى الوراء وانحطت عما كانت عليه . ويتزايد التراجع والانحطاط على نسبة الاخلال بهذه الجوهريات او اهمالها والتنكب عنها . وفيها ايضاً امور دعونا نسميها عرضية قد تكون اليوم ولا تكون غداً ووجودها اليوم ان وجدت لا يشين في عروبة اللغة ولا يزين كما ان سقوطها غداً لا يضر بكيانها ولا ينقص من حيويتها فهي منها اشبه شيء بالورق او بعض الغصون والزوائد من الشجرة الكبيرة . فكما ان بعض اوراق الشجرة اذا تساقطت او بعض اغصانها اذا تشذبت او تهذبت لا يضر بحيوية الشجرة ولا بسلامتها كذلك تلك الامور العرضية اذا تساقطت من اللغة اليوم او قطعت منها وطرحت غداً لا يضر ذلك بكيانها ولا تضعف معه حيويتها وبعبارة اخرى لا يتراجع نموها ولا تتشاحب اظلالها ولا يتمازز طعم بلاغتها وفصاحتها

لنسأل الآن ما هي مقوّمات اللغة وبعبارة اخرى ما هي الامور الجوهرية فيها او الصفات الذاتية التي لا يستغنى عنها بل تبقى على مر الزمان فتتشعب وتتكيف بما يناسب حياة اللغة وارتقاءها . واذا فقدت او اهملت ماتت اللغة او توقفت عن النمو والتشعب ثم هي في الوقت نفسه لا يصح استعارتها من لغة اخرى ولا يمكن ايضاً ان تستعار وتبقى اللغة هي هي

ايها السادة — ان مقوّمات اللغة او الامور الجوهرية فيها هي شيء آخر غير الفاظها

المفردة — لا فرق بين ان تكون تلك الالفاظ اسماء او افعالاً او حروفاً ودليله ان هذه الالفاظ المفردة يمكن ان تستعمل اليوم وتهمل غداً كما انها يمكن ان تترادف وتتكثر حتى تستثقل وتهجر . انظروا الى كثير مما عندنا في كتب اللغة من الاسماء والافعال مما هُجر او استكره وأهمل فانها تعدُّ بالمئات . وكثير من تلك الالفاظ ليس هو في الاصل من كلمات اللغة العربية انما هو من الفارسية او الرومية او الهندية استعيرت فاستعملت عند الحاجة وأهملت او أُميتت عند عدمها — وتعلمون ان مقومات الشيء أو الامور الجوهرية فيه هي مما لا يفارقه وبعبارة اخرى هي مما لا يستغنى عنه حيناً ويحتاج اليه حيناً آخر . نعم ان كثيراً من اعراض الشيء قد تستمرُّ مصاحبتها له ولا يستغنى عنها بالفعل او في الخارج فهي من هذا القبيل كالمقوّمات له او كالصفات الجوهرية (اي الذاتية) منه . والفارق بينهما حينئذ أنه يمكن فرض الاستغناء عن الاعراض ويمكن أيضاً تصور الاستغناء عنها وتصور مفارقتها لمصحوباتها ولا يمكن فرض الاستغناء عن المقوّمات ولا تصوُّر الاستغناء عنها او مفارقتها لما تصحبه

استدركتُ ما استدركتُ لئلا يعترض علي ان كثيراً من الاسماء كالسماء والارض والبر والبحر والجبل والوادي والشجر والحجر كانت ولا تزال في لغتنا العربية لم تُهمَل ولا يخال أن تهمل وما زالت في استعمال كل يوم وفي استعمال كل جيل من الاجيال التي غبرت ونعرفها فكأنما هي مما لا يجوز اهمالها ولا يتصور الاستغناء عنها ومع ذلك هي الفاظ مفردة فكيف تكون من الامور العرضية في اللغة ؟ قلتُ وأقول انها من حيث هي اسماء مفردة ليست من مقومات اللغة اصلاً ويمكن الاستغناء عنها وانما استمرت في اللغة وفي استعمال كل يوم وكل جيل من أجيال اهل هذه اللغة لان مسمياتها مستمرّة ومشاهدتها أي مشاهدة مسمّياتها كذلك . وهذا ما يوهمنا انه لا يمكن الاستغناء عنها

لا بد لي هنا من استيفاء المراد او الاطالة اذا شئتم هذه التسمية وإلا ظُنَّ بي اني أريد ما لا اريده او اني أكتب ما لا أفهمه . أيها السادة . الفرق كبير بين قولنا اسم وهذا الاسم وفعل وهذا الفعل وحرف وهذا الحرف ـ فان الاسماء والافعال والحروف من حيث هي أسماء وأفعال وحروف ضرورية في اللغة العربية وفي كل لغة أيضاً وهي من مقوّمات اللغة أو من الامور الجوهرية فيها ولا يمكن الاستغناء عنها حتى ولا تصور الاستغناء ولكن هذا الاسم وهذا الفعل وهذا الحرف يمكن تصور الاستغناء عنها وكثيراً ما يصحُّ الاستغناء عنها أيضاً

ظهر اذن لكم الفرق بين الضروري في اللغة وغير الضروري ورأيتم أيضاً الفرق

بين استغناء واستغناء وعليه فوجود الاسماء والافعال والحروف ضروري في كل اللغات المرتقية ولا يصح الاستغناء عنه (أي عن هذا الوجود) بوجه من الوجوه وأما كل لفظة من هذه الانواع الثلاثة لذاتها فيمكن الاستغناء عنها احياناً

بقي لي شيء آخر أقوله وهو ان زيادة لفظة او بضعة الفاظ من هذه الانواع الثلاثة على اللغة قد يكون فيها أحياناً غنى للغة لا يُقدَّرُ قدره وقد تكون الزيادة لغواً لا فائدة منها . والمحققون من اهل الذوق يعرفون الفرق بين زيادة وزيادة فيزيدون اللفظة التي تزيد في غنى اللغة واتساعها ويتجنبون ما زيادته لغو لا فائدة منها — مثاله ان زيادة مترادف من الاسماء الموصوفة او من الصفات كزيادة جوشن مثلاً بمعنى صدر او درع وسميذع بمعنى شجاع اوسيف وسمسان و سمساني بمعنى خفيف لطيف فانها زيادة قلما ننتفع بها لقلة ما نحتاج اليها ولذلك فاستعمالها في كتابتنا او استعارة لفظة مثلها او بمعناها من لغة أجنبية لنستعملها في معتاداستعمالاتنا هو في حكم اللغو والمكروه ويجب تجنبه بخلاف زيادة أو ادخال مثل الالفاظ الآتية وهي عَلَوَّاه — وما شاءالله — ويلة — وكمان — وهاي هاي — وهاي ليصه — وبراڤو فان في زيادة مثل هذه الالفاظ في أحاديثنا وكتاباتنا الادبية محلاً للفكرة والنظر على ما أظن وذلك لانها لا تغير من جوهر اللغة وفي الوقت نفسه الحاجة ماسة اليها بدليل كثرة استعمالها وجريانها على لسان العامة منا والخاصة في الشام ومصر والعراق حتى وفي الحجاز ونجد على ما أظن

ذهب بي الاستطراد الى اكثر مما أردته فحال دون ما أريد الى بيانه وتمكينه في الذهن وهو أن الالفاظ كل لفظة بعينها سواء كانت اسماً او فعلاً او حرفاً ليست من الامور الجوهرية في اللغة وبعبارة اخرى ليست في عمود اللغة ولا في مقوماتها فتفسد زيادتها اللغة اذا زيدت عليها او يتهدم بنيانها اذا اهملت أو اطرحت منها

ومثل الالفاظ المفردة في انه ليس من مقومات اللغة ولا من الامور الجوهرية فيها تغيُّرات الاعراب في اواخر الكلم المعربة ولاسيما التي ورد فيها مذاهب مختلفة . ودليلنا الوقف فانه جائز كثير الاستعمال شائعه قديماً وحديثاً لم ينقل عن نحوي قط انه منع جوازه . والوقف هو تعطيل الاعراب وازالة حكمه بتاتاً ويستحيل او اقله يمتنع ان تتعطل مقومات الشيء او يزول حكمه لان ما يتعطل او يجوز أن يتعطل وتزول أحكامه عن شيء لا يجوز أصلاً أن يكون من مقوّمات ذلك الشيء او من جوهرياته

الاعراب أيها السادة من اعراض اللغة العربية المضرية وأكثر ما نقول فيه انه بمنزلة العرض العام لا من الصفات الذاتية ولا من مزاياها الخاصة بدليل وجوده في غيرها

من اللغات العربية كاللغة اليونانية واللاتينية . وهو في كثير من المواقف زينة في اللغة لا غير الا انه قد يكون أحياناً مساعداً على الفهم ومنع الالتباس وحكمه حينئذ حكم القرائن المختلفة التي تساعد على سهولة الفهم وصرف المعنى الى ما يراد . ولهذا لا يجوز الاستخفاف به دائماً لكن المغالاة به حيث لا تصح المغالاة ضرب من انزال الشيء فوق منزلته وحسبان الخادم في كثير من المواضع مخدوماً وسيداً . وبالاجمال اقول ان المغالاة فيه التي هي في غير موضعها ضرب من السخف المضر . وأضر ما تكون اذا كانت احكامه خارجة عن القواعد الكلية المساعدة على فهم المعنى المراد وداخلة في ما تعمَّق به بعض اصحاب المذاهب الذين خلطوا فأدخلوا كثيراً من احكام علوم الكلام والفلسفة والخط في احكام النحو والاعراب مع بعد ما بينهما

ومن قبيل الالفاظ المفردة واعراب اواخر الكلم الهيئاتُ التركيبية فانها اي الهيئات التي تتعلق بها فصاحة المركبات وبلاغتها حكمها حكم الالفاظ المفردة بمعنى انها من حيث هي تراكيب فصيحة او بليغة لا بدَّ من وجودها في اللغة . ولكن هذه الهيئة او هذا التركيب بهذه الالفاظ قد يسقط من اللغة او يزاد عليها مثله فلا يهدم سقوطه اركانها ولا تفسد بلاغتها زيادته او زيادة مثله عليها

وصلت الى نقطة لا اراني استطيع تركها من غير ان ابسط الكلام فيها شيئاً وهي:ـ يزعم كثيرون من اهل العربية ان الهيئات التركيبية فيها محصورة وهذا وان لم يقولوه صراحة يقولونه ضمناً . واذا كانت الهيئات التركيبية محصورة اذن لا يجوز الخروج عنها لان الخروج عنها خروج عن الفصاحة والبلاغة . ولما كانت الفصاحة والبلاغة من الكلام بمنزلة الكرم والشجاعة والعفَّة من الصفات الفاضلة كان التركيب الذي يعرى من هذه كالشخص الذي يعرى من تلك . وفي هذا القول كثير من الحق والصواب وكثير من الباطل والخطاء

اما الحق والصواب ففي ان الهيئات التركيبية اذا خلت من الفصاحة والبلاغة خرجت عن ان تكون اجزاء لغة راقية ومسخت اللغة عن صورتها العاقلة الادبية الى ما هو دون ذلك وأما الباطل والخطاء ففي امور كثيرة نتوهم . منها

(اولاً) ان الهيئات التركيبية الفصيحة والبليغة محصورة وأنها محصورة في التراكيب التي وصلت الينا عن العرب في نحو من مئتي سنة على الاكثر . فان هذا مما لا يقول به صاحب رَويَّة . وهو وان كان ممكناً ان يكون عقلاً فلا يمكن ان يكون وجوداً لان البلاغة تقتضي المطابقة لمقتضى الحال ومقتضى الحال يختلف باختلاف الزمان والمكان وباختلاف

المخاطِب والمخاطَب واختلاف احوالها. واختلاف الزمان والمكان مضافاً اليه اختلاف المتكلمين واختلاف افكارهم ومشاربهم وقوى عقولهم يتولد عنه من الصور ما لا يقع تحت حصر وجودي . ثم على فرض انه يستطاع حصر الهيئات التركيبية الفصيحة والبليغة بعدد معلوم فهذا العدد يتجاوز المئات وربما تجاوز العدد المركب منها . وهذا العدد من هذه الصور والهيئات يستحيل على العقل الانساني الاحاطة بتصوره في زمان من ازمنته المحدودة . والحصر الفعلي الذي يترتب عليه فائدة لا يكون الا اذا احاط الفكر بالمتصوَّر وتخيله جميعه دفعة واحدة او ما هو من قبيل الدفعة الواحدة

(ثانياً) ان تكون الهيئات التركيبية المعلومة علماً اجمالياً عند ادباء العربية مما اودعته اسفار الادب ودفاتره كلها فصيحة بليغة فان ذلك مما يصعب التسليم به . وأكثر من ذلك ان تكون الهيئات التركيبية المنقولة في كلام من كانوا قبل الاسلام افصح وأبلغ من هذه الهيئات المنقولة عن أمثالهم في صدر الاسلام وبعده الى عصرنا الحاضر . فان هذا الخطاء شائع متداول وأكثر ادبائنا والمشتغلين بعلوم البلاغة منا قديماً وحديثاً كأنما هم يذهبون اليه فيرون في الهيئات التركيبية والمركبات المنقولة عن اصحاب المعلقات وغيرهم ممن سبقهم او عاصرهم — فصاحة وبلاغة لا يرون مثلها لمن جاء بعدهم من مولدي الاسلام ومولدي مولديهم . بل كثيرون على ما يخال يذهبون الى ان جميع ما نُقل عن الجاهلية فصيح بليغ بلا استثناء وهذا وهم فاضح ومن الاسف انهُ شائع مقبول عند الكثيرين من غير تجريح ويكاد الاقلون ممن يرتابون بصحة هذا الزعم لا يجسرون ان يرفعوا اصواتهم في نفيه او الاعتراض عليه انما هم يتهامسون به همساً فيما بينهم

(ثالثاً) من الخطاء ايضاً ذهاب كثيرين الى ان الفصاحة والبلاغة درجة واحدة وهذه الدرجة يرونها في هذا النوع من الكلام الذي يهيج من حاسة الاستحسان وما ناسبها او من حاسة الاستهجان وما ناسبها . فان رأوا مبالغة قد تخرج عن حد المقبول أو رأوا تشبيهاً أو استعارة في مدح ممدوح أو ذم مذموم او في فخر او في نسيب او في حكمة وجاء شيء منها في شيء من الغرابة المقبولة اكبروا ذلك وظنوا ان هذا الذي اكبروه انما جاء من قبيل بلاغة الهيئة التركيبية . وقد لا يكون هناك فصاحة ولا بلاغة في التركيب تدعو الى مثل ذلك الاستحسان بل الاستحسان انما كان لتلك المبالغة او الاستعارة او لذلك التشبيه وما صحب المبالغة من الغرابة او صحب الاستعارة والتشبيه من الغرابة والمطابقة . والمحققون على ان بلاغة التركيب قد تكون ولا يكون هناك استعارة ولا تشبيه وقد تكون ويكونان معاً ولكنهما متمايزان في نفسهما كل التمايز وان خفي

ذلك على كثير من البلغاء بالفطرة او المتبالغين . وهذا الخلط بين حسن الاستعارة او التشبيه وبين بلاغة المركب والتركيب كان فاشياً في ايام الامام العلامة الجرجاني صاحب كتاب اسرار البلاغة وكان يؤلمه أيضاً

والخلاصة ان ما يتشبع به من ان هذه التراكيب والهيئات التي جاءت في كلام الجاهلية هي التي بها قامت مقومات اللغة العربية وتفوقت على غيرها من اخواتها الساميات وعلى غيرهن من اللغات الاخرى هو مجرد تشيع يقول به أقوام قلوا او كثروا ولكنه عار من التحقيق . فالبلاغة غير منحصرة في جيل دون جيل ولا هي أيضاً خاصة بزمان دون زمان ولا بمكان دون مكان وان اختلفت وتباينت باختلاف الزمان والمكان. وعليه نقول ان امرأ القيس كان بليغاً في عصره وكذلك كان جرير والفرزدق والاخطل في عصرهم وكذلك كان ابو نواس وأبو تمام والبحتري كل في عصره شاعر بليغ الا ان بلاغة جرير والفرزدق قد تكون في نوعها غير بلاغة ابي تمام والبحتري كما لا يبعد أن تكون بلاغة هذين غير بلاغة المتنبي وغير بلاغة ابي فراس الحمداني — تكون غيرها ولا تكون اعلى درجة منها — وهكذا يقال في بلاغة امرىء القيس وغيره من اصحاب المعلقات انها غير بلاغة ابي نواس او أبي الطيب المتنبي ولكنها وان كانت غيرها قد لا تكون اسمى منها . ولا دخل في ذلك لتقدم زمان امرىءالقيس ولا لتأخر زمان المتنبي بل بلاغة المتنبي قد تكون اعلى وأوسع من بلاغة امرىء القيس (وهي كذلك) على نسبة ما كانت مدارك هذا اعلى من مدارك ذاك — وما قلته في المتنبي وامرء القيس اقول مثله في ابي نواس والبحتري فانهما وان تأخرا عن جرير والاخطل في الزمان فقد تقدماها في البلاغة وان كان الاولان اقرب الى مناحي البداوة والثانيان الى مناحي الحضارة

لكن يقول قوم ان امرء القيس يستشهد بكلامه في اللغة والاعراب ولا يستشهد بكلام المتنبي وكذلك يستشهد بكلام الفرزدق والاخطل ولا يستشهد بكلام ابي تمام والبحتري . ويستنتجون من ذلك ان امرأ القيس ابلغ من المتنبي والفرزدق والاخطل ابلغ من ابي تمام والبحتري. والاستطراد الى الرد على فساد هذه المزاعم وأشباهها يخرجني الى ما لا يحتمله المقام فأجتزي بسرد القصة التالية

حكي ان ابن الانباري دخل على قوم فأنشده بعضهم قصيدة لابي تمام ونسبها المنشد الى أحد شعراء الجاهلية فطرب لها ابن الانباري وأمر كاتبه ان يودعها في دفاتره فلما أتى الكاتب على آخرها قيل له هي لابي تمام قال فقال ابن الانباري — « من أجل هذا رأيت أثر الركاكة عليها — خرّق ياغلام خرّق خرّق» . وكنت أحب ان انقل القصة بحروفها

كما قرأتها ولكني أنسيت الكتاب الذي قرأتها فيه وبقي في ذهني ان الكتاب من الكتب التي يعتمد على صحة روايتها (١)

ولا اقول ان هذه الفكرة عمت بدون استثناء ولكن اقول ان الكثيرين أخذوا بها في الاجيال التي مرت قبلنا فغلب رأيهم على رأي المحققين من العقلاء في كل جيل الذين كانوا يقولون ان اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه وأما النحوي فشأنه ان يتصرف فيما ينقله اللغوي ويقيس عليه «المزهر جزء اول وجه ٣٠ طبعة بولاق»

ترون أيها السادة اني لا أحسب الالفاظ المفردة من حيث هي الفاظ مفردة ولا الحركات الاعرابيّة ولا كثيراً من المذاهب والتعليمات الصرفية والنحوية من مقوّمات اللغة العربية ولا من القفيّات التي امتازت بها فكانت سبباً لتفوّقها على كثير غيرها من اللغات الراقية ولا أذهب أيضاً الى انّ بلاغة الجاهلية جوهرية في اللغة العربية حتى اذا خرج الكتّاب عن محاذاتها والصوغ على قوالبها الى ماتدعوهم اليه أذواقهم وتخيلاتهم فسدت اللغة العربية وانحطت رتبتها العالية بين اللغات المرتقية وانحطّ أهلها أيضاً تبعاً لانحطاطها . بل اعتقد ان بقاءنا على تحدّي بلاغة الجاهلية وتوخيها في كتاباتنا لا يجوز لنا ولا يكون بلاغة أيضاً الا اذا كانت عقولنا ومدركاتنا وبالتالي عاداتنا ومألوفاتنا الاجتماعية الحسيّة والادبية شبيهة تمام المشابهة بما كانت عليه عقول الجاهلية ومدركاتها وعاداتها وسائر أحوالها الاجتماعية . لان البلاغة عند التحقيق تقوم بانطباق الصورة الكلامية الخارجية على الصورة الداخلية الذهنية . ولا شك ان الصورة الذهنية لقوم أو جيل من الاجيال في زمانين متباعدين لابد أن يقع فيها تغير يقل او يكثر على نسبة ما يقل الاختلاف او يكثر بين ظواهر تمدن الجيل في ذينك الزمانين . فان بقي التمدن واحداً (اي جميع المظاهر الاجتماعية الخارجية وما دعا اليها من الاستعداد العقلي والديني والادبي) بقيت الصورة الذهنية لاهل الجيل في الزمانين واحدة وبالضرورة تبقى او يصح ان تبقى الهيئات التركيبية البليغة واحدة عندها والا فلا . اذن فالذين يريدوننا على تحدي بلاغة الجاهلية او توخيها لانخرج عنها في شيء كأنما هم يقولون لنا ان افكاركم وتخيلاتكم ومدركاتكم ومعلوماتكم لا بل ومحيطاتكم الاجتماعية هي وأفكار الجاهلية وتخيلاتهم الخ شيء واحد . ان كان بينكم من يسلم بصحة هذا فليتحدّ وليتوخّ بلاغة امرىء القيس والحارث بن حلزة والاعشى وغيرهم وليحذُو حذوهم

اذا لم تكن الالفاظ المفردة ولا الجمل المفردة ولا علامات الاعراب ولا هذه الهيئة

---

(١) ملاحظة اظن تلك الحادثة عن ابن الأعرابي لا ابن الانباري

التركيبية او تلك بعينها من مقوّمات اللغة العربية ولا من صفاتها الجوهرية الثابتة والتي ينبغي أن تثبت وترقى وتتكيف مع الايام فما هو اذن ذلك الشيء الذي تميزت به العربية وجعلها تتفوق على غيرها من اللغات ولا يزال باقياً بل وينبغي ان يبقى لا تُخلق جدته مع الايام. والجواب على ما ارى هو الاشتقاق والقياس . الاشتقاق على ما ينبغي ان يفهم منه والقياس على ما ينبغي ان يُفهَم منه في كل انواعه وفي كل نوع من انواع الكلم العربية والدخيلة المعربة ايضاً ان كانت

ايها السادة ان الاشتقاق ضروري في كل لغة لا تستقل لغة عن غيرها الا به ولا ترقى الا به فان استقل وترقى استقلت اللغة عن غيرها وترقت وان تميزالاشتقاق وانفرد في كل لغة من لغتين تميزت اللغتان وانفردت كل منهما عن غيرها والا فان تشابه واشترك تشابهتا واشتركتا . مثاله اللغة التركية فانها على كثرة الالفاظ المفردة المستعارة من العربية وعلى كثرة الجمل التامة المأخوذة كما هي منها اي من العربية لا تزال لغة مستقلة عن العربية متمايزة عنها تمام التمايز . ان في التركية مئات وألوفاً من الالفاظ العربية كما ان فيها مئات وألوفاً من العبارات والجمل التامة المستعارة رأساً من تلك اللغة يعلم ذلك من يعلمه ومع ذلك هي في غاية البعد والتمايز عن اللغة العربية بخلاف العبرانية فانها مع بعدها بحسب الظاهر عن العربية حتى يخيل للناظر ان التركية اقرب منها اليها بمرات فمع ذلك هي والعربية اختان بينهما من المشابهة والاشتراك في الخصائص والقفيات الشيء الكثير كما يعلمه علماء اللغات المحققين الذين يؤخذ بقولهم وكل ذلك لاشتراك الاشتقاق وقرب شبهه في الواحدة بما هو عليه في الاخرى

الاشتقاق في كل لغة هو الامر الجوهري فيها . هو عماد اللغة وأقوم مقوّم من مقوّماتها . وبعبارة اخرى هو حياتها وعليه يتوقف ارتقاؤها او انحطاطها . تقدمها او تأخُّرها . واذا اردنا التمثيل قلنا هو من اللغة كالحيوان او الناطق في تحديد الانسان بل ربما هو اكثر من ذلك وقد لا يخطيء من يقول ان اللغة هي الاشتقاق. الفاظ اللغة تموت وتحيا اي يهمل استعمال بعضها فتموت ويستجد استعمال اخرى فتحيا ولا يمضي زمان يذكر إلا ويموت كثير من الالفاظ في كل لغة ومن بينها العربية ويحيا كثير ايضاً . واللغات النامية المرتقية هي ما كانت مواليد الفاظها اكثر من وفياتها . والعاقل المتأمل يعلم ان كثرة مواليد الالفاظ وقلتها في اللغة يتوقف على الاشتقاق فان كان الاشتقاق مرتقياً نشيطاً كثرت مواليده وعاشت وإلا قلّت وماتت . وعليه فأرقى اللغات وأكثرها حياة هي ما كان الاشتقاق فيها أتمّ منه في ما سواها داخلاً في كل فرع من فروعها

أيها السادة الكرام اذا سلمنا ان انمى اللغات وأرقاها هي أكثرها زيادة عدد مواليد في الفاظها وعباراتها واذا سلمنا ايضاً ولا بد للعاقل المتأمل من التسليم أن اللغة الثابتة على ما كانت عليه اما لغة ميتة محنطة كالموميا المصرية واللغة العبرانية القديمة او هي لغة شاخت فتوقفت عن النمو وأخذت تتراجع عما كانت عليه . اذا سلمنا بما مرّ اذن فالذين يحاولون ابقاء لغتنا العربية على ما كانت عليه في الفاظها وعباراتها وهيئات تراكيبها لا يسمحون بزيادتها بوجه من الوجوه لا بالاستعارة ولا بالاشتقاق هؤلاء ينادون علناً ان اللغة العربية قد ماتت او شاخت وان انكروا ذلك وسلموا كما هو الواقع ان العربية لغة حية نامية فعدم سماحهم بزيادة مفرداتها لا بالاستعارة ولا بالاشتقاق تصريح واضح منهم انهم يريدون ويسعون بكل مكنتهم الى اماتتها ولا اعلم أذلك من محبتهم لهذه اللغة الشريفة أم من بغضهم لها والمرجح عندي ان ذلك من شدة حبهم لها ولكنه الحب مع الجهل

وان قليل الحب بالعقل صالحٌ وان كثير الحب بالجهل فاسدُ

دعونا نوجه خواطرنا الى مشهد آخر من مشاهد محبي العربية . من جملة هؤلاء المحبين من يعترفون بألسنتهم انهم لا يرون بأساً بزيادة مفردات العربية بالاستعارة تارة وبالاشتقاق اخرى فيأذنون بزيادة تلغراف وأوتوموبيل مثلاً وبزيادة أبرق ومغنط ولكنهم لا يتسامحون لاحد ان يقول كما قال الحريري — واستعنت بقاطبة الكتاب فكل منهم قطب وتاب . ويجيزون له ان يقول استعنت بالكتاب قاطبة اكتع ابتع ابصع لا يرون بأساً في زيادة عدد الكتعان والبتعان والبصعان لان كل ذلك اهون عليهم من الخروج بقاطبة عن النصب حالا الى الجر بالاضافة ويحتجون بقولهم ان ذلك لم يسمع او لم يرد عن العرب . ومثل هؤلاء فئة يقولون — هذه عبارة افرنجية — وهذا تركيب خارج عن مناحي التراكيب الجاهلية البليغة — شُلَّت عين كاتبه ولسان قائله لانه يريد ان يُفسد علينا فصاحة العربية وبلاغتها — يقولون ذلك ولو كانت العبارة اوضح من فلق الصبح على المعنى المستعملة فيه . ومثل هؤلاء المار ذكرهم يتبجحون اذا قالوا مثلاً — وما زال يفتل منه في الذروة والغارب حتى اداره الى ما يريد — ويصرخون بالويل والثبور اذا رأوا من يقول مثلاً — وما زال يأخذه ويجيء به حتى اداره الى ما يريد — او ما زال يداوره حتى اداره الى ما يريد. ولماذا ذلك ؟ لان جملة — يفتل منه في الذروة والغارب — وردت عن العرب ولم ترد جملة — يأخذه ويجيء به — ولا جملة — ويداوره — مع ان جملة يأخذه ويجيء به من باب الكناية التي لا اوضح منها في محيطنا الآن على المعنى المراد وهي من باب قولهم — يقدم رجلاً ويؤخر اخرى — وأما يداوره

فمن باب القياس اي تقول داوره قياساً على حاسَنَهُ وسايَرَهُ وقاعَدَهُ وقاومه ونازعه الحديث وأشباه هذه

بل لا نعدم من هذه الفئة كثيرين يرون في قولي قبيل الآن — ويصرخون بالويل والثبور اذا رأوا من يقول — افساداً للغة ليس من ورائه افساد لاني استعملت — رأوا من يقول — بدلاً من سمعوا من يقول — يزعمون اخذاً بالظاهر القريب ان رأى لا تقوم مقام سمع

أيها السادة والاخوة الكرام ان سرَّ تَفَوُّق اللغة العربية وأنها من اشرف اللغات القديمة والحديثة وأنها احق لغة بأن تحيا كما قال بعض علماء الاميركان المحققين هو لانها لغةٌ باب الاشتقاق والقياس فيها واسع جدًّا لا يضيق عن أن يسع العقل ان يدخل منه مهما طال قوامه واتسع صدره بل كلٌّ من الاشتقاق والقياس فيها يفسح مجالاً للعقل ان يدخل منه الى باحات هذه اللغة الشريفة وأن لبس قلنسوة اطول من قلنسوة ابي دلامة او جبة اوسع من جبة ممدوح ابي تمام الذي يقول فيه

غمر الرداء اذا تبسم ضاحكاً غلقت لضحكته رقاب المال

فيالله اذن من كثيرين ممن يدَّعون حبَّ هذه اللغة الشريفة ولكنهم يحظرون على العقل ان يزورها في الاحايين حتى ولو كانت زيارته الماماً واطلالا من باب دارها الخارجي ولطالما كان قبل عهدهم في ايام الجاهلية وصدر الاسلام يزورها غير معارض فيدخل كل مخدع من مخادع مشتقاتها وكل عطفة من عطفات قياسها يأمر وينهى بما يقتضي لا يضيق ولا يعنت

ايها السادة اما الآن وقد فششت كربي من بعض هؤلاء الذين يحبون اللغة العربية بزعمهم ولكنهم يعملون على اماتتها ولا يعلمون فأتقدم الى بيان ما هو عليه الاشتقاق من الاتساع في هذه اللغة السيدة بين اللغات وما يزيد اتساعه في غنى اللغة ويهون على الشعراء والكتاب في ابراز ثمرات عقولهم وايداعها في احسن قوالب النثر والنظم . والاشتقاق منه في الاسماء ومنه في الافعال فلنبدأ بالاشتقاق في الاسماء

ان المصدر نيفاً وثلاثين صورة فيما اعلم ومن اقربها وأكثرها استعمالاً الاوزان الآتية وهي وزن فُعْل وفِعْل وفَعْل وفِعال وفُعال وفَعال وفِعال بدون التاء او بالتاء وفُعول وفُعولة وفَعَل وفَعلان الخ . وكل هذه الصور تأتي ايضاً لاسم المصدر فضلاً عن غيرها من الصور الاخرى

ومثل المصدر الصفة فان لها من الصور ما يزيد عن صور المصادر او يساويها على

الاقل ومن تلك الصور وزن فاعِل وفَـعِل وفَـعْـل وفعلان وفعول وفعيل ومفعال ومفعالة وفعّـال وفعّـالة وفاعول وفاعولة ويفعول ويفعولة ويفـعَـلة ويفعلي وفعيل وفعاعل وهلم جرًّا وهـذه الاوزان هي التي يسمونها بالسماعية فيكون مصدر هذا الفعل على وزن أو وزنين او اكثر من هذه الاوزان ومصدر ذاك على وزن او وزنين آخرين وهلمّ جرًّا . وهكذا الصفة فانها تكون من هذا الفعل او هذا الفريق من الافعال على وزن فاعل او فَـعِل او فعْـلان وقد يكون لها صورتان او ثلاث صور او اربع وقد تبلغ من بعض الافعال الى الصور العشر وفي ذلك ما فيه من الغنى في المترادفات . وهناك أيضاً صوراخرى من باب السماعيّ للزمان والمكان واسم الآلة والمصدر الميمي لا احتاج ان اطيل عليكم بذكرها

بقيت الصورُ القياسية للمزيدات فان لكل مزيد من مزيدات الافعال الرباعيـة والخماسية والسداسية صورة معينة لكل من المصدر على انواعه والصفة على انواعها واسم المكان والزمان . وقد يكون للمصدر صورتان قياسيتان كما هو معروف مشهور في وزني فعّـل وفاعل — من منا لا يعرف انّ الفعل استعان مثلاً يأتي منه الاستعانة والمستعان والمستعين والمستعان به مصدراً ومؤكداً وميمياً واسم فاعل واسم مفعول على الترتيب

ومن قبيل الاشتقاق في الاسم الابواب الآتية وهي باب المثنى والجمع المكسر والسالم وباب النسبة والتصغير . والبابان الاخيران يلحقان بالصفة فيزيدان من غنى اللغة المعنوي وأما باب الجمع المكسر والسالم فيزيدان في مترادفات اللغة زيادة لا يعلم قيمتها المتعلم ويعلمها الشاعر او الناثر الساجع

نعم المتعلم يتبرم من ضوابط جمع التكسير التي وضعها الصرفيون لكثرتها وصعوبة حفظها غيباً ولكنّ الشاعر الذي يعلم ان جمع ظلّ ظلال وأظلال وظلول وأظاليل يستفيد من هذه المعرفة وأيما فائدة فانه يمكنه ان يستخدم ظلال في قافية كقافية

بقائي شاء ليس هم ارتحالا وحسن الصبر زمّـوا لا الجمالا

وظلول في قافية مثل قافية

في الحد ان عزم الخليط رحيلا مطر تزيد بهِ الخدود محولا

وأظلال في مثل قافية

شرف ينطح النجوم بروقيهِ وعزٌّ يقلقـلُ الاجبـالا

وأظاليل في مثل

بانت سعادُ فقي العينين ماسولُ من حبها وصحيحُ الجسم مخبولُ

وقس على ظلال وأظلال وظلول بحار وأبحار وبحور فان صور الجمع المتعدّدة والمجموع واحد تنزل منزلة المترادفات بل المترادفات قلما تتساوى في المعنى ولذلك فقلما يتهيأ للشاعر او للناثر ان يضع مترادفاً موضع صاحبه ولا يختلّ المعنى شيئاً بخلاف صور الجمع المتعددة فان كل صورة منها يصح ان تنوب مناب صاحبتها وتوضع بدلاً منها من غير مخافة ان يختلّ المعنى المراد او يختلف عما قصد له بمقدار شعرة او ذرة

واذا علمتم هذا ان تعددصور الجمع والمجموع واحد ليس هو ثآليل في غصن الجموع العربية تشوّه كما يزعم بعض المتفيهقين المقلدين من منظره وتخشّن مسه وتعوّج قوامه . بل هي غصينات الارز الجميل تزيد الغصن الاصلي جمالاً ورواءً وتجعل ظلّهُ النضير الرائع ظليلاً وارفاً

الاشتقاق في الافعال

في اللغة العربيـة اربع عشرة صورة وهي أَفْعَلَ وفَعَّل وفاعل وتفعَّل وتفاعل وانْفَعَلَ وافْتَعَلَ وافعلّ وافعالّ واسْتَفْعَلَ وافعوعَل وفَعْلَلَ وتَفَعْلَلَ وافْعَلَلّ وكلٌّ منها تأتي لعدة معان . واشباع الكلام فيها لا يكفيه مجلد ضخم فأنى لي أن أتخيَّل تخيُّلاً أني استوعبت الكلام فيه بما يجلي لاذهانكم أهمية هذا الاشتقاق في العربية وأنها من هذا القبيل تفوق كل لغة من لغات الغربيين والشرقيين لا أستثني لغة اصلاومع ذلك يزعم بعضهم انها لغة ميتة او انها شاخت وقاربت الهلاك . كان البعض من متحمسة فتيان الاتراك يزعمون هذا الزعم ولا نلومهم لانهم يعرفون آداب اللغة الفرنساوية اكثر مما يعرفون آداب لغتهم ولا نقول آداب العربية وتحمسهم الشديد كان للحالة الجديدة التي زعموا معها أن يوحّدوا اللغة في كل الولايات العثمانية فيصبح العثمانيون كلهم يتكلمون لغة واحدة هي اللغة التركية كما يتكلم الفرنساويون الفرنساوية والاميركان سكان الولايات المتحدة الانكليزية. ذلك صوّر لهم ما صوّر مما زعموا معه هذا الزعم الفاسد او تزاعموه ولا نلومهم كما نلوم البعض او الـكل من ابناء العربية ومحبيها ممن يسمعون ان لم يكونوا يعرفون ذلك عن علم ان لغتهم الشريفة اوسع اللغات اشتقاقاً وأكملها في ذلك حتى قال فيها بعض علماء الاميركان الاعلام كما المعنا سابقاً ونحب ان نكرره الآن انها اللغة الخالدة او اللغة التي هي احق اللغات بالحياة والبقاء . ومع معرفتهم هذه المعرفة يريدون أن يميتوا هذه اللغة الشريفة بسدّهم باب الاشتقاق وحظرهم استعماله اللهم الا فيما هو تافه او عديم الجدوى ويؤدي الى الخطاء . نلوم هؤلاء لانهم يعظمون ما اشتق ويذكرونه

ويحقرون الاشتقاق و ينسونه يعتبرون ما قيس ولا يعتبرون القياس . يحافظون على المولدات ولو كانت اجهاضاً او اصبحت هائم وقداعيم ويهملون القوة المولدة ويعملون على اماتها فيالله منهم

ماذا اخذت اللغة العربية وماذا اعطت

وصلت الآن الى موضوعي بعد ان مهدت له هذا التمهيد الطويل العريض والواقف عليه معي وقد ماشاني كل الطريق خطوة خطوة يدرك من غير عناء ان العربية لم تكن في حاجة الى غيرها من اللغات بفضل اتساع اشتقاقها وقياسيته ووضوح المعنى المراد مما اشتق من الالفاظ وفقاً له سواء كانت تلك الالفاظ افعالا او اسماء فان من يعرف معنى القشعريرة يفهم حالا الفعل المشتق منها اعني اقشعر وهكذا من يفهم معنى استحق فانه يفهم حالا معنى المصدر واسم الفاعل والمفعول المشتقات منه قياسيًّا . ومن يعلم ان تميم علم لقبيلة من قبائل العرب وأن بيروت علم لمدينة يفهم من قولنا رجل تيمي او بيروتي انه من بني تميم او من اهل بيروت فهماً يتسارع الى الذهن كتسارع الصوت الى الاذن او النور الى العين . وكذلك من يفهم معنى قدم وحسن يفهم حالا معاني مطاوعاتها تقدم وتحسن وهلم جراً . وغاية ما اخذته العربية عن غيرها من اللغات بعض الفاظ مفردة من باب الاسماء لا تتجاوز بعض المئين واكثرها من الاسماء الجامدة كخز وديباج واستبرق وترياق وفالوذج مما وجدوه عند غيرهم من امتي فارس والروم ولم يوجد عندهم . ولو كان يسعني المقام لعددت لكم تلك الاسماء المعروفة بالدخيلة او المعربة فانها لا تملأ اكثر من بضع صفحات في كتاب المزهر للامام السيوطي

وأما علماء هذه الامة الذين ظهروا فيها بعد الفتوحات العربية الاولى ونقلوا العلم اليها من الفارسية او اليونانية او السريانية فلم يحتاجوا الاّ الى بعض اسماء حكمها حكم الالفاظ التي المعنا اليها سابقاً . وبالجملة نقول ان علماء العربية هم الذين اخذوا عن العلماء الذين جاوروهم من الفرس والروم والسريان دون العربية فانها لم تأخذ عن الفارسية ولا عن الرومية ولا عن السريانية ولنضرب لذلك مثلاً — ان علماء العربية اخذوا علم المنطق عن علماء اليونان اما رأساً او نقلاً عن السريانية ولكنهم لم يأخذوا الفاظ هذا العلم كما هي عن اليونان بل قالوا موضوع ومحمول وقضية وقياس واستنتاج ومقدمة صغرى ومقدمة كبرى ونتيجة والمقولات العشر والقول الشارح والتصور والتصديق وكلي وجزئي وقضية كلية . وقضية كلية مهملة . وقضية كلية مسوّرة . وهلمّ جرّا من مصطلحات هذا العلم

وأخذ العلماء الغربيون هذا العلم عن اليونان كما اخذه علماء العرب اما رأساً او عن

اللاتينية وأخذته لغاتهم ايضاً عن اللغة اليونانية او اللاتينية لأنهم قالوا سبجكت وبراديكت الموضوع والمحمول وقالوا كتيغوري اي المقولات العشر وهلم جرّاً اي ان لغتهم اخذت نفس الحدود عن اللغة اليونانية بخلاف العربية فانها استغنت عن الفاظ تلك الحدود اليونانية بألفاظ من الفاظها أدت معانيها تمام التأدية من غير صعوبة ولا التباس

وما قيل في المنطق يقال في علوم الفلسفة فانهم اي علماء العربية اخذوا هذا العلم عن غيرهم اما لغتهم فلم تحتج الى لغة القوم ورأت فيها من الالفاظ ما يؤدي معاني الفاظ ذلك العلم فقالوا موجود ومعدوم وعرض وجوهر وحال وكسر وانكسار وتأثر وأثر وماهية وهوية ومقتضي ومانع ومعارض وقالوا الماهيات مجعولة بجعل جاعل وغير مجعولة والعقل الاول والمبدأ الفياض وغير ذلك من مصطلحات الفلسفة كثير . وأنتم ترون ان كل هذه الالفاظ من صميم الالفاظ العربية والعارفون منكم هذه اصطلاحات بالفرنساوية او الانكليزية يعلمون ان اغلب هذه الالفاظ مأخوذة عن اللاتينية او اليونانية بل يعلمون ان علماء هاتين الامتين ما زالوا يؤلفون في اللغة اللاتينية الى عهد قريب لعدم استطاعة لغاتهم اولاً ان تتحمل هذه العلوم بنفسها بخلاف العربية فانها تحملتها حالاً وأصبحت تلك العلوم كأنها موضوعة فيها ابتداء وكان من علماء اللاتين والجرمان انهم ترجموا في بادىء امرهم اكثر تلك العلوم عن اللغة العربية

وهكذا كان الامر ايضاً في علوم الطبيعة كالطبيعيات والطب والكيمياء والفلك والنبات والحيوان فان اللغة العربية لم تحتج في كل هذه العلوم الا الى الالفاظ التي تستعار استعارة لان مسمياتها من نبات وحيوان لم تكن معروفة في البلاد العربية لانها لا تعيش فيها وتعيش في غيرها من البلدان فأخذوا الاسم بأخذ المسمى وهكذا الحال فيها لو كان اللفظ المأخوذ اسماً لآلة مخصوصة صنعها صنّاع تلك الامم قبل ان عرفها العرب والعربية بمئات من السنين

وأما ما أعطته العربية لغيرها من اللغات والامم فكثير ومن ذلك (١) انها اعطت حروفها الهجائية لملايين ملايين من الشعوب في بلاد الترك والهند وجزائر البحر فان المورو في جزائر الفيلبين يكتبون لغتهم بالحروف العربية لحد هذه الساعة

(٢) اعطت نفسها لكثير من الامم الذين تغلبوا على اهلها او تغلب اهلها عليهم مئات من السنين فكانت لهم ما كانت اللغة اللاتينية لشعوب اوربا فان الاتراك والتتر والفرس ما زال علماؤهم يؤلفون مؤلفاتهم في اللغة العربية الى عهد قريب ولا يزال كثير من علمائهم الى الآن يؤلفون في العربية فقد اهدي اليَّ منذ بضع سنين مؤلف

تاريخي في العربية لزين الدين الرسولي احد علماء قاظان من روسيا

(٣) اعطت لغات الاتراك والتتر والفرس والاردو (احدى لغات الهند) المئات والالوف من الفاظ المعاني ومئات وألوفاً من الجمل التامة بل اعطت اكثر هذه اللغات ولا سيما التركية كل مصطلحات علوم اللغة والبيان والبديع والعروض وأكثر مصطلحات العلوم والفلسفة حتى بدء القرن التاسع عشر وما بعده ايضاً

(٤) نفتخر انا اعطينا لغات اوربا الارقام العربية وكثيراً من اسماء المعاني والمصطلحات العلمية ولكنها قليلة كان اولى بنا الاضراب عن المفاخرة بها

(٥) وأخيراً اشكر لكم ايها السادة والسيدات والاخوة الكرام لانكم احسنتم الاصغاء اليَّ كل هذه الساعة وتابعتموني في مضايق هذا الموضوع لم تظهروا شكوى من اطالتي ولا تبرماً بخطابتي . وقد كنت احب ان اتوسع في بيان — لماذا احتملت لغتنا العربية الشريفة في ايام العباسيين مثلاً علوم اليونان والفرس والسريان بدون ان يظهر عليها عجز او ضعف ولا تستطيع اليوم ان تحتمل علوم الاوربيين على ما يزعم الاكثرون مع ان هؤلاء كانوا يترجمون كتب العلم والفلسفة عنها منذ بضعة قرون . الا اني لا ارى من اللياقة ولا الحكمة ان استنفد كل صبركم دفعة واحدة فتكرموا اذن في الختام غير مأمورين بقبول مزيد شكري وامتناني ولكم الفضل اولاً وآخراً

اعتذر الى القراء الكرام بما اعتذرت به الى السامعين فاني اعتقد ان اغلبهم لايحتملون ان يقرأوا في هذا الموضوع فوق ما قد قرأوا والسلام

اهمية العربية في الممالك العثمانية (١)

كان هذا الموضوع في ذهني منذ بضع سنين ولكني صرفني عنه الحوادث التي حدثت (ويؤلمنا انها حدثت) مخافة ان اكون من المفرقين . اما الآن وقد وصلنا والحمدلله الى حيث لانخاف من تفريق ولا مروق ولا ارتداد ولا رجعى إلى غير ذلك من الالقاب التي كان ينبذ بها المخالف للرأي المرغوب في ترويجه وقد لا يكون ذلك المخالف إلا ثرثاراً بحسب الثرثرة فصاحة او مقلداً بحسب التقاليد علماً وحكمةً

أيها السادة : كان يؤلمني أولئك الكتاب الذين كانوا يرفعون اصواتهم وينادون مصرحين ان اللغة العربية لغة ميتة . لغة مضى زمانها فأصبحت عضواً أثرياً في جسم المجتمع تنتابه بسببها العلل والاوجاع من غير ان ينتفع بها بوجه . نعم كنت أتألم من هؤلاء الذين كانوا يزعمون ان اللغة العربية علة الضعف في كيان المملكة العثمانية وأنها أي المملكة العثمانية لا تعزّ إلاّ إذا أميتت هذه اللغة الشريفة واستبدلت بلغة الفريق الحاكم أعني اللغة التركية وأشد ما كان يؤلمني ان أولئك الكتاب كانوا يقلدون عن غير علم . يرون مشابهة وينسون الفارق بين المتشابهين . ولو حللتم افكارهم لوجدتم انهم كانوا يحسبون شعبهم يقابل الشعب الفرنساوي مثلاً ولغتهم تقابل لغته ويحسبون العربية كافة جزيرة مداكسكر مثلاً اذن فأهلها أي المتكلمون بالعربية بالنسبة اليهم كأهل جزيرة مداكسكر بالنسبة الى الفرنساويين . نعم هناك مشابهة وهذه المشابهة هي ان القوة او الهيئة الحاكمة منهم كما انها من الفرنساويين . ولكن هل تسوّغ لهم هذه المشابهة وحدها ان يعاملوا اللغة العربية واخوانهم من المتكلمين بها كما يعامل الفرنساويون لغة أهل مداكسكر وشعب مداكسكر . وهل لغتهم بالنسبة الى العربية كاللغة الفرنساوية بالنسبة الى اللغة المداكسكرية ؟ وهل عددهم في المملكة العثمانية بالنسبة الى المتكلمين بالعربية كعدد المتكلمين بالفرنساوية في البلاد الفرنساوية الى عدد المتكلمين باللغة المداكسكرية . وهل في رقيهم العقلي والأدبي يفضلون المتكلمين بالعربية كما يفضل المتكلمون بالفرنساوية في رقيهم هذا أعني العقلي والأدبي الشعب المداكسكري

هذه سؤالات عرضت لنا ولم نستطع دفعها فهل يستطيع هؤلاء الكتاب أن يجيبوا عليها جميعها بالايجاب . أم هم لو أرادوا أن يرجعوا إلى التاريخ وما سطر فيه قبل ثلاث

---

(١) من خطبة تليت في معهد القراءة ببيروت

مئة سنة أو ما هو أقل من ذلك أفيستطيعون أن يروا تاريخاً لهم مسطوراً باللغة التركية؟ بأي لغة كان يكتب كتابهم الافاضل منذ ثلاثمئة سنة كصاحب سفينة الراغب وغيره من الادباء والعلماء ولا نقول المحدثين ولا أهل الفقه والتفسير

نحن لا ننكر على هؤلاء الكتاب عثمانيتهم ولا ننكر عليهم الغيرة على الشعوب العثمانية ورغبتهم في أن تجتمع لغة كل هذه الشعوب وكلتهم الى لغة واحدة وكلة واحدة فترجع الدولة العثمانية بسبب هذه الوحدة الى مكانتها السالفة من العزة والمنعة ونفوذ الكلمة بين سائر الدول الاوربية . نعم لا ننكر عليهم الحماس القومي ولا الغيرة الوطنية الملية ولكننا ننكر عليهم صحة القياس والاستنتاج وبالتالي صحة الرأي والسياسة اللذين كانوا يروجونهما في كتاباتهم . نسلم لهم ان ثم مشابهة بين الفرنساويين من حيث نسبتهم الى اهل جزيرة مداكسكر وبينهم من حيث نسبتهم الى المتكلمين بالعربية كما ألمعنا الى ذلك . ولكن هنالك فوارق عديدة غفلوا عنها لا تجوز لهم بوجه من الوجوه ان يقيسوا العربية على المداكسكرية ولا المداكسكريين على المتكلمين باللغة العربية

على اننا لا ننكر ان اخواننا الكرام من عقلاء الاتراك ومشيختهم الحكماء ما رضوا عن تطرف هؤلاء الكتاب الشبان ولا يرضون عنه . وهم يعلمون انه ليس من السهل أن تستبدل اللغة العربية بلغة اخرى من لغات أهل الارض أجمع . بل يعلمون انه لا يناسب عزّ الدولة ومجدها وحرمتها أن تستبدل اللغة العربية باللغة التركية فتفقد كل التأثير المعنوي الذي لنا في تاريخ العرب وفي الآداب العربية فان هذا التاريخ وهذه الآداب تجعل معنا قلوب مئات من الملايين في الصين والهند وتركستان وجزر المحيط ومعظم شمالي قارة افريقية وبعض أواسطها . كل ذلك يعرفه حكماء الاتراك ومشيختهم من العقلاء الذين لم يكونوا ولا يكونون قط راضين عن أولئك المتفرنسين من شبان غلوا بفرط الحمية والوطنية فكاد يؤدي بنا فرط حميتهم هذه الى ضغائن وأحقاد نحن في غنى عنها

أيها السادة : لم أشعر من نفسي الا وقد ذهب بي هذا الاستطراد كل مذهب فاعذروني وائذنوا لي بالرجوع الى مساق موضوعي وهو « أهمية اللغة العربية في الممالك العثمانية » فأقول : أهمية كل لغة ترجع الى امرين الاول عدد المتكلمين ومنزلتهم في المجتمع والثاني مافيها من الاتساع والصلاحية للاتساع في الفاظها وتراكيبها بحيث تستطيع الافصاح عن كل ما يمر في الذهن من أنواع المعاني واختلاف الاعتبارات

اما من حيث الأمر الاول فأقول ان المتكلمين باللغة العربية في الممالك العثمانية غير البلاد العربية يبلغون نحواً من سبعة ملايين . ثلاثة ملايين ونيف في العراق والجزيرة

الفرانية ومثل هذا العدد او اكثر منه بقليل في ولاية حلب وما يجاورها وفي البلاد السورية على العموم وهذا العدد من المتكلمين بالعربية اذا قوبل بالارمن العثمانيين كان خمسة أضعافهم تقريباً واذا قوبل باليونان والارمن معاً بلغ ضعفيهم على الاقل واذا قوبل بالاتراك ساواهم ان لم يزد عليهم زيادة تبلغ أن تكون متصرفية من الدرجة الاولى او الثانية

واذا زدتُ على هذا العدد من المتكلمين بالعربية اخوانهم في نجد والحجاز واليمن من الذين لا ينازع في عثمانيتهم بلغ مجموع المتكلمين بالعربية نحواً من ستين في المئة من جميع العثمانيين على اختلاف اجناسهم وألسنتهم معاً

لو لم يكن من متكلم باللغة العربية إلا من ذكرنا لكان من الرأي والحكمة أن ينظر الى هذه اللغة نظرة خاصة ولا اقول انه كان يجب ان تقدم على اللغة التركية ولكني اقول انه كان يجب أن تعامل في أيام الدستور كما تُعامَل اللغة الترنسفالية في بلاد الترنسفال التي ضُمَّت من عهد غير بعيد الى ولايات الامبراطورية الانكليزية . وكلنا يعلم اقرب العهد ما كان مما دعا إلى ضم هذه البلاد إلى املاك التاج الانكليزي ونعلم ايضاً ان ضمها كان بحق الغلب والقهر الذي لا ينازع فيه . ومع ذلك وفضلاً عما بين الامتين الانكليز والترانسفال من التفاوت في القوة والعدد والتهذيب لم يكبر على عقلاء الانكليز وكبارهم أن يجعلوا اللغة الترنسفالية لغة رسمية كالانكليزية في المدارس والمحاكم وفي مجلسي النواب والاعيان

كان يمكن أن أقف على ما وصلت اليه مما سمعتموه ولكني لا أستطيع وأرى نفسي تنازعني إلى ذكر كثير مما أرغمتها على كظمه أثناء ما مر بنا في السنين الاخيرة مخافة أن يكون في ذكره ضرر . أما الآن وقد انقشع ذلك العارض عنا وجعل رأي العقلاء وأهل الحكمة والحنكة يعود شيئاً فشيئاً إلى منزلته التي ينبغي أن تكون له فلا بد لي من القول ان هناك عثمانيين غير من ذكرنا . عثمانيين في الاميال والعواطف . وهؤلاء العثمانيون في اميالهم وعواطفهم يجمع بيننا وبينهم جامع اللغة العربية فكلما رأوا من العثمانية الحالية التفاتاً للعربية واحتراماً لها بالقول والفعل معاً لا بمجرد القول زاد ارتباطهم بنا معنوياً وآلت هذه الزيادة في الارتباط الى زيادة وجاهتنا وكرامتنا من حيث نحن أمة عثمانية في عيون الشعوب والممالك الغربية والعكس بالعكس . ومن هؤلاء العثمانيين اخواننا في مصر والسودان وعددهم لا ينقص عن الخمسة عشر مليوناً من النفوس . ومع انهم لسلسلة من السياسات متعددة انفصلوا عنا انفصالاً حسياً سياسياً فهم لا يزالون على أشد ارتباطهم المعنوي بنا ولا يبقي هذا الارتباط كما هو الآن بيننا وبينهم إلا اللغة العربية والاشتراك التام بيننا وبينهم في الآداب الماضية والحالية . فان قيل انما يربطنا بهم رابط الاسلام

لا اللغة قلت لهذا القائل أصبت وأخطأت . اما انك اصبت في ان الرابط الاولي هو الاسلام فواضح وأما خطاؤك فلانك فصلت الاسلام والآداب الاسلامية عن اللغة العربية والآداب العربية . من ينكر ان الارتباط بيننا وبين اخواننا في مصر والسودان هو أشد بمرات من الارتباط بيننا وبين اخواننا في تركستان . وكذلك الارتباط بيننا وبين مسلمي تركستان هو اشد منه بيننا وبين المسلمين في داخلية الصين . ولماذا ذلك اذا كان الرابط هو مجرد الاسلام بقطع النظر عن اللغة العربية والآداب العربية . نعم ان من يجتهد ان يفصل الاسلام عن اللغة العربية والآداب العربية ويزعم ان بذلك قوة للمسلمين وزيادة في شدة ارتباطهم بعضهم ببعض ولاسيما بالاتراك العثمانيين . مثل هـذا الرجل جاهل بأحوال العمران فضلا عن انه جاهل بالاسلام وشدة ارتباطه باللغة العربية

ومن الذين يتكلمون العربية ايضاً التونسيون والجزائريون وأهل المغرب الاقصى ومن اليهم في الواحات وجهات الصحراء الكبيرة وعددهم ايضاً لا يقل فيما أرجح عن عدد اهل مصر والسودان ان لم يزد عليه . وارتباط هؤلاء بنا شديد كما تعلمونه وكما دلت عليه الاحوال الاخيرة . ومع ما بيننا بحسب الظاهر وبين التونسيين والمراكشيين من البعد مع ذلك اذا خير هؤلاء بيننا وبين الفرنساويين فالمرجح عندنا انهم يختارون العثمانية الحاضرة على أمل حسن المآل ويعرضون عن الزنبقة الناضرة لاخوفاً من سوء المنقلب. على انهم لا يختارون العثمانيـة للتركية الاستانبولية . ولا يعرضون عن باريس لمجرد كره النصرانية انما هم يتشوفون الى ما كان لهم من المجد والسؤدد فيأنفون ان يكونوا مسودين بعد ان كانوا سادة. ولما كان مجدهم وسؤددهم القديمان مرتبطين بمصر والشام والعراقين معاقل العربية بعد نجد والحجاز لا جرم انهم يميلون الى العثمانية صاحبة الحرمين وصاحبة هذه البلدان لا إلى العثمانية التركية او الكردية او الارمنية وبعبارة اخرى العثمانية التي لغتها اللغة التركية التي تتكلم بها هذه الشعوب الثلاثة . انزع العربية والآداب العربية من شمالي افريقية (اي طرابلس وتونس والجزائر والمغرب الاقصى كله) وانظر ماذا يحل بأهله من الاستكانة والخنوع . لا يزال العهد قريباً بما كان من الطرابلسيين في الحرب الايطالية الاخيرة فانهم فعلوا ما فعلوه انفة من أن يقال ان أبطال العرب وأنسال الفاتحين الاولين استكانوا لسيادة الطليان ورضوا بالذلة والصغار . نعم لا انكر ان حميتهم كانت حمية دينية ولكن هذه الحمية الدينية كانت لولا العربية والآداب العربية والتقاليد العربية لا تختلف كثيراً عن حمية المورو في جزائر الفيليبين حمية تحامي عن النفس وتدفعها

الى عمل مجيد ولكنها لا قديم لها ولذلك يصعب توجهها نحونا نحن العثمانيين

ومن الذين يتكلمون العربية كل طلبة العلم النابغين وأهل الفقه المحققين الذين تقتدي بهم الامة الاسلامية وتخصهم بمزيد التجلة والاحترام في سائر اقطار الهند والصين وممالك ايران وما اليها من بلاد خراسان وما وراء النهر وبلاد التتار في شرقي آسيا وأوربا . ولا يقلُّ عدد هؤلاء الاعلام فيما اظن عن مليون من النفوس هم خاصة الناس حيث كانوا وأهل العلمية والوجاهة منهم . ولهذا المليون من عارفي اللغة العربية مرجع الفضل في العطف على العثمانيين والدولة العثمانية . وأعتقد انه كلما زاد عدد هؤلاء زادت مشاركة العالم الاسلامي لنا في الحاسيات وكلما قلُّوا قلَّت . اعرف كثيرين من هؤلاء الاعلام الافاضل معرفة شخصية ولا أزال أذكر حديثاً دار بيني وبين بعضهم . قلت لهم أتستبدلون لو خيرتم لغتكم بلغة من أرقى لغات اوروبا قال لا لا نرضى بذلك اصلاً . قلت أتستبدلونها باللغة العربية قال نعم نعم ونحسب ان قد اصبنا اعظم سعادة وأعظم شرف بهذا الاستبدال . وأعرف من فضلاء التتار وأعلامهم مثل هذا العلامة الفاضل المومأ اليه وكلهم يرى رأيه في اللغة العربية الشريفة اي انه لا يتأخر لا هو ولا قومه ساعة قبل ان يستبدلوا لغتهم باللغة العربية على حين انهم لا يستبدلونها بأرقى اللغات الاوروبية ولو زيد لهم فوقها اللاتينية واليونانية القديمة

لو كان لي من الامر شيء وعندي مال لانفقتُ على تعليم العربية او قُل على تعزيزها في الصين والهند والتركستان مليون جنيه في السنة على الاقل وأكون مع الايام الرابح ادبياً ومادياً ولو كنت تقدمت على الزمن الذي انا فيه خمسين سنة وكان لي من الامر شيء لكنت عززت العربية في شمالي افريقية الى اقصى غاية تكون في الامكان وأرجح ان لو كان هذا التعزيز لكانت الحال الآن على غير ما وصلت اليه

ايها السادة : ان لغة يتكلم بها نصف سكان المملكة العثمانية وهي فوق ذلك لغة مصر والسودان وكل شمالي افريقية بين شواطىء المتوسط والصحراء الكبيرة . وتعلمون ما كانت نسبة هذه البلدان الينا ولا تزال نسبة بعضها منا الى الآن . ثم هي فوق ذلك لغة اكثر من مليون من خيرة مئة وخمسين مليوناً من المسلمين في الهند والصين والتركستان — هذه اللغة لها بل ينبغي أن يكون لها من الاهمية في المملكة العثمانية اضعاف ما كان لها لحد الآن . هذه اللغة والمفروض على كل فقيه ومفسر ومحدث من علماء الاتراك انفسهم أن يعرفها اكثر مما يعرف التركية جدير بالامة العثمانية عن آخرها تركيها قبل عربيها ان تنزلها بالمنزلة التي لها . اوليس من الغفلة بل من الخرق في السياسة ان نقدم عليها اللغة الفرنساوية فتكون هذه رسمية دونها وهي سيدة اللغات الشرقية بل سيدة اللغات اجمع

اللغة العربية هي لغة علمائكم ايها الاخوان الاتراك لغة اخص خاصتكم من اهل العلم والدين وهي عندهم مقدمة على اللغة التركية لانه يغتفر لهم في علمهم ودينهم ما اذا قصروا دون الوقوف على اسرار اللغة التركية ودقائق ما تحتمله تراكيبها من المعاني ولا يغتفر لهم مثل هذا التقصير في اللغة العربية . وأكثر من ذلك ان اللغة العربية هي لغة كرام آبائكم الاولين ومستودع علومهم وآدابهم وتخيلات شعرائهم . بل لعلمائكم الذين وُلدوا في الاستانة والروم ايلي وآسيا الصغرى من المؤلفات في اللغة العربية في مدى قرنين من السنين او ثلاثة ما يزيد على مؤلفات علماء العراقين والشام ونجد والحجاز في تلك المدة على ما ارجح . ولعلي لا اكون مخطئاً اذا قلت ان أبلغ المؤلفات في العربية وأكثرها دلالة على علم مؤلفها بعد اعتلاء شأن الدولة العثمانية انما هي للاتراك العثمانيين ولمن قربه سلاطين هذه الدولة العظام

ومن جملة ما اذكر من اسماء هؤلاء الائمة الاعلام العلامة ابي السعود بن محمد العمادي قاضي السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد فان كتابه ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم كتاب من البلاغة وحسن البيان على مالا يوفى من حق وصفه الا ان يقال فيه انه جمع بين الكشاف وأنوار التنزيل فصاحة وبلاغة وعلماً وتحقيقاً وزاد عليها . وهنا اذكركم ايها السادة بصاحب الكشاف فانه العلامة جار الله الزمخشري ومن نسبته تعلمون نسبه فانه ابن عم الاتراك العثمانيين ان لم يكن ابن ابيهم . ومثل هذا العالم علماء كثيرون قاموا من بين الفرس والترك والتركمان والديلم والتتر . لم يمر قرن او ربع قرن لم يقم فيه عالم مؤلف في اللغة العربية منذ اوائل الدولة العباسية الى وقتنا الحاضر . وكثيرون من هؤلاء العلماء كانوا كما اعلمنا من الاتراك العثمانيين

وبالاجمال اقول ايها السادة انه مرت قرون في تاريخ الاسلام كانت فيها اللغة العربية لغة العلم والادب والدين لكل الشعوب التي ذكرناها وكانوا اشد عليها غيرة وأكثر لها احتراماً وتعظيماً من العرب انفسهم ولعلها كانت لهذه الامم الشرقية الاسلامية بمثابة اللغة اللاتينية واليونانية معاً للامم الاوربية المسيحية . الا ان كثيرين من علماء هذه الامم لا يزالون الى اليوم يؤلفون باللغة العربية ولا اقول ذلك على التخيّل بل عن شاهد فانه وصلني منذ بضع سنين كتاب « وفية الاسلاف وتحية الاخلاف » لمؤلفه العلامة شهاب الدين ابن بهاء الدين بن سبحان بن عبد الكريم القزاني الموجاني وهو من علماء التتار من ولاية قزان التابعة لروسيا اوربا . وأرجح ان هذا الفاضل لا يزال حياً يُرزَق الى الآن . فانه بلغ في التأليف الى آخر هذا الكتاب سنة ١٢٩٣ هجرية . وكتابه لا ينقص في فصاحة

الفاظه وبلاغة تراكيبه ودقة تعبيره عن كتاب مثله من تآليف أحد علماء مصر او الشام او العراق . وجميعنا نعرف كتاب لقطة العجلان وغيره من مؤلفات العالم الفاضل سلطان بهوبال وقد طُبعت في مطبعة الجوائب في حياة مؤلفها ووقف على طبعها صاحب تلك المطبعة العلامة المرحوم احمد فارس وأثنى عليها غاية الثناء . وهي خليقة بما قيل فيها. ولا يزال الى الآن في خراسان وبلخ وبخارا وما الى هذه البلدان من البلاد الاسلامية كثيرون من العلماء الاعلام الذين تفتخر اللغة بمؤلفاتهم كما كانت تفتخر بمؤلفات اسلافهم. ولا اشك ايضاً ان ثم بين الاتراك العثمانيين انفسهم اليوم من العلماء الاعلام في العربية من نسبتهم الى غيرهم من علماء مصر والشام لا تنقص عما كان عليه ابو السعود في ايامه بالنسبة الى علماء القطرين المشار اليهما

فتكريم العربية تكريم لكل هؤلاء واحترامها احترام لهم . ولا اشك انه إذا أعطيت هذه اللغة الشريفة المنزلة التي ينبغي أن تكون لها والتي تستحقها في المملكة العثمانية أي ان تُحسب رسمية قبل الفرنساوية ونظير التركية في مجلس المبعوثان لاتفقت علماء هذه اللغة في كل البلدان التي ذكرناها على اعظام هذا العمل وعرفوا كيف يكافئون الحكومة التي اهتمت باخراجه إلى حيز الوجود . وأول مكافأة يستطيعها هؤلاء العلماء هي ان يوحدوا رأي الامة ويعززوا جامعتها العثمانية تعززاً لم تبلغه في زمن من ازمنتها

يحسن بي ان اقف حيث وصلت الآن . وأما اهمية العربية من حيث الاتساع والصلاحية للاتساع في الفاظها وتراكيبها بحيث تستطيع الافصاح عن كل ما يمرّ في الذهن من المعاني فأتركه لوقت آخر وفقاً لمقتضي الحال واني لآمل من كل ذي فضل من محبي هذه اللغة الشريفة ان يتجاوز عما فرط مني من الحدة في سبيل بيان اهمية هذه اللغة الشريفة ويعزز ما اتيتُ به لتصل هذه اللغة الشريفة الى المنزلة التي تحقّ لها في مجلس نوابنا العثماني والسلام

الحثيون

ادّت الاكتشافات التنقيبية في الخمسين سنة الاخيرة الى ما لم يكن يُحْلَم به من وجود أمة قوية جداً في شمالي سورية وان شئت فقل ولايات حثية متحدة تألفت منها مملكة تجارية حربية خضع لها يوماً كل شمالي سوريا وسواد العراق ومعظم ما بين النهرين وأغلب آسيا الصغرى

ويقول بعض كبار الباحثين انها اجتازت من هناك الى قبرص ومعظم جزر الارخبيل اليوناني والى بلاد اليونان ومكدونيا وتجاوزت من هناك الى ايطاليا حاملة معها عنّها من علم وصناعة بما لا ينقص عما فعلته اختها الامة الفينيقية العظيمة

يقول كثيرون ومنهم الاستاذ سايس المستشرق الانكليزي الشهير ان اصل هذه الامة العظيمة طوراني وأنها جاءت من الارضين بين بحر قزبين والبحر الاسود « ان لم يكن الى ابعد من ذلك شرقاً » واستولت على كبدوكيا وامتدت من هناك شمالا وغرباً وجنوباً وجعلت عاصمتها اخيراً في كركميش وما زالت فيها حتى هاجمها الاشوريون واستولوا على عاصمتها وحينئذ انقرض ملك هذه الامة العظيمة وحل محلها الاشوريون ثم البابليون في ايام نبوخذنصر بعد معركة هائلة جرت بينه وبين المصريين. وكان نخو ملكهم اجتاح فلسطين وسوريا واستولى على كركميش ليقف في وجه البابليين ويصدهم عن اجتياح سوريا وفلسطين ليستلحقها بمملكته فسار اليه نبوخذنصر الى كركميش والتحم بينهما القتال فانكسر المصريون شر كسرة وانهزموا الى بلادهم لا يلوون على شيء

واستولى على كركميش من بعد البابليين الفرس والماديون وبعد هؤلاء صارت الى الاسكندر المكدوني ثم الى قواده من بعده ومنهم الى الرومانيين. وتقلبت الاحوال على كركميش وتلونت بها الايام كثيراً الى ان عمها الخراب اخيراً وتنوسي امرها قروناً بل تنوسي اسمها الاول اعني كركميش وسميت باسم آخر . وبهذا الاسم الآخر اعني جرابلس (هيرابوليس) تعرف خرائبها في الوقت الحاضر

السبب في خراب هذه المدينة وتناسي اسمها

والسبب في ذلك على ما أرى انها بعد ذهاب أهلها تجار ما بين النهرين وشمالي سوريا وآسيا الصغرى الخ تراجعت عن عظمتها شيئاً فشيئاً وانتقل عزها التجاري ايام ملك

نبوخذنصر الطويلة الى بابل . ولما قامت الدولة المادية الفارسية لم يَعْنَ الفرس بها لأنها ليست من مدنهم ولبعدها نوعاً عن مركز دولتهم فزاد انحطاطها انحطاطاً وتراجعها تراجعاً. ولما انتقلت الدولة منهم الى اليونان استجدهؤلاء مراكز تجارية غيرها ولعلها كانت صارت في أيامهم الى قرية حقيرة ان لم تكن كانت قد صارت الى الخراب التام فجددوا بنيانها حينئذ لحسن موقعها التجاري وللاعتبار الذي كان لها قديماً ودعوها بلغتهم «هيرابوليس» ولا يبعد ان يكون مناسباً في المعنى لاسمها القديم. ويلوح لي أنه على الراجح ترجمة له. وتغلبت على اهلها اليونانية بكثرة الذين استوطنوها منهم فغلب من ثم اسمها الجديد على اسمها القديم أولا لغلبة العنصر اليوناني فيها وثانياً لان اسمها اليوناني كما أشرنا ورجحنا هو ترجمة لاسمها القديم . وبيان ذلك ان اسمها الاصلي يمكن ان يحلل كما أرى الى كلمتين كير او قير وكميش او كموش وكموش اسم اله عند الموآبيين يقرب في المنزلة من البعل عند الكنعانيين والصيدونيين . ومعنى قير قرية اوكورة في الراجح وعليه يكون معنى كركميش قرية كميش او كموش . وهيرابوليس معناها مدينة هيرا . وهيرا اسم اله عندهم فالمناسبة اذن بين معنى الاسمين او الترجمة ظاهرة كل الظهور ومما لا يخفى على متأمل

لنرجع بعد الاستطراد الذي استطردناه الى رأي الاستاذ سايس فنقول : — يظن الاستاذ ان اصل الحثيين طوراني جاؤوا الى سوريا من الشمال مما بين بحر قزوين والبحر الاسود او نقول بوجه اعم من شرقي آسيا الصغرى وهو رأي جماعة غيره من المشهورين على انفراد او متابعة له. والذي اراه ان الحثيين هم اخوان الصيدونيين من ابناء كنعان المشار اليه في الاصحاح العاشر من سفر التكوين ومهاجرهم واحدة اي شبه جزيرة العرب وكان سيرهم في غزوهم ومهاجرتهم من الجنوب الى الشمال . وبعبارة اوضح كان سيرهم من حضرموت وعمان وأرض البحرين الى العراق وأرض بابل وما بين النهرين

ومن شمالي بابل عرجت بطون منهم الى شمالي سوريا واستمرت بطونهم الاخرى على سيرها شمالا تتابع الفرات وتقيم لها حيث حلّت المراكز التجارية وفي الوقت نفسه كانت تقيم الحصون والمعاقل الحربية لحماية تلك المراكز التجارية .والظاهر من التنقيب لحد الآن انهم احتلوا كل شمالي سوريا قبل ان اتخذوا كركميش مركزاً لتجارتهم وعاصمة او معقلا ومباءة لهم . وأرجح ان هؤلاء الحثيين هم الذين يعرفون في تواريخنا العربية بالدولة النبطية وأن العراق كان دار هجرتهم الاولى وبابل بيت مقدسهم المشترك . وأرجح ايضاً أنهم هم والهكسوس(١) من القبائل العربية المتحالفة كما سنلمع الى ذلك وأن تلك

(١) الهكسوس على ما ارجح لفظ مركب من هيق وسوس ومعنى هيق ذكر النعام ومن الرجال

القبائل تحت رياسة الحثيين او النبط افتتحوا العراق وسوريا ومصر وأن فتوحاتهم في ذلك الحين كانت اشبه بفتوحات العرب الاخيرة تحت الراية الاسلامية والرياسة القرشية المدنانية . وأن ما حصل في الفتوحات الاسلامية هذه حصل مثله في الفتوحات الحثية القديمة

ان عارفاً بالفتوحات العربية الاسلامية لا يلبث ان يرى الاختلاف بين علي ومعاوية ويرى معظم اليمانية والقرشيين في جانب معاوية في الشام ومصر ومعظم العدنانية والانصار في جانب علي في العراق . ثم لا يلبث ان يرى الاختلاف بين عبد الله بن الزبير وبين عبد الملك بن مروان ويرى الاول يقاتل حتى يقتل تحت استار الكعبة وليس حوله الا بضعة من الرجال بعد ان كانت العربية والعراق من مشايعيه وأنصاره

ثم لا يلبث ان يرى شيعة العباسيين ومعظمهم من خراسان تحت قيادة ابي مسلم يقاتلون الامويين المروانيين في خراسان وفارس وأرمينيا والجزيرة وماهو الا ليلة وضحاها حتى يرى الخلافة العباسية في بغداد وعلمها يخفق في الآفاق ويرى العراق سائداً والشام مسوداً بعد ان كان الشام آمراً عزيزاً والعراق مأموراً ذليلاً يسوق الحجاج اهله بعصى الامويين سوق الانعام وقد انقرضت خلافتهم من الشرق آخر الدهر بعد ان كانت تهز المسكونة من بحر الظلمات (الاوقيانوس الاتلانتيكي) غرباً الى حدود الهند شرقاً مدى قرنين فأصبحت

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامرُ

ثم لا يلبث ان يرى الاندلس مملكة مستقلة عن الشام وبغداد معاً ذات حول وطول ولها امير مؤمنين على انفراد لا تعطي مقادتها لابي جعفر المنصور ولا لابنه المهدي ولا لابن هذا الهادي حتى ولا لاخيه هرون الرشيد ولا لابنيه المأمون و المعتصم على ماوصلت اليه خلافتهم من الابهة والغنى والجاه ولا سيما اثناء وزارة البرامكة المشهورين ووزارة الفضل والحسن ابني سهل

المفرط الطول وجاء في لسان العرب — وفي حديث أحد انخذل عبد الله بن ابي في كتيبة كأنه هيق يقدمهم . الهيق ذكر النعام يريد سرعة ذهابه اهـ

ومعنى سوس الخيل وقد حفظت العبرانية هذا المعنى لهذه اللفظة وأما العربية فلم يبق فيها الا الاشارة البعيدة اليه في كلة سائس فانه عند الاطلاق ينصرف الى من يسوس الخيل فتأمل

وعليه فيجوز ان يفهم من التركيب اما ملوك الخيل او اصحاب نعام الخيل والارجح انهم كانوا فرساناً وأدخلوا الخيول الى وادي النيل فكثرت فيه حتى أصبحت مصر مصدراً للخيل ومركزاً لتجارتها فيما بعد

ثم لا يلبث راء ان يرى الدولة العُبَيديَّة في المغرب ومصر دون العباسيين ثم لا تلبث حتى تنتزع فاسطين والشام من ايديهم وتصبح دولة كادت تغطي على الدولة العباسية في الغنى والجاه والسطوة واتساع دائرة الملك

دع الاندلس جانباً ودع كذلك الدولة العُبَيديَّة وخلفاءها الفاطميين وانظر الى ما حدث في خراسان وشرقي النهر وما قام هنالك بعد المعتصم والواثق من الدول والامارات وما كان بينهم من المنازعات والاختلافات حتى تكاد لا تفطن ان هنالك دولة اوخلافة عباسية بل يذهب عن ذهنك جملة ان هاته الدول انما هي ولايات من ولايات دولة عربية استبدَّ ولاتها فيها بالاحكام بداعي ما اصاب خلفاءها من الوهن والعجز لانهما كهم في الملاذ والحظوظ النفسانية واستمرارهم على ذلك حتى تجرأ عليهم اخيراً ملوك الديلم البويهيون واندمقوا عليهم في بغداد كرسي خلافتهم وموطن عزهم فأصبحوا هم الآمرين الناهين والخلفاء من العباسيين فزاعة لها صورة المالك وشيء من اسمه ومظهره الخارجي والملك في الحقيقة لهؤلاء المتغلبين

افرض ان كانت الايام طمست على ما نعرفه من آثار الدولة العربية الاسلامية كما طمست على آثار الدولة الحثية وذهبت عنا بما نعرفه من تاريخها المفصل المكتتب ولم يبق لنا عنها الا آثار كالآثار الحثية وبقايا خطوط كوفية غريبة ضاعت عنا الصلة بينها وبين بقية الخطوط الباقية الى الآن — فماذا كنا نظن بها . اكان من السهل علينا ان نرى أصلها ومنشأها في مكة من أرض الحجاز وأن القائمين بها اول الامر كانوا عصبة دينية صغيرة لم يتجاوز عددهم الاربعين الا بعد سنين من دعوتهم . ثم لما عظم امرهم شيئاً بزيادة اعدادهم من الموالي والمستضعفين قام عليهم الملأ في مكة وضيقوا عليهم الخناق حتى هرب معظمهم الى الحبشة ولم يبق الا ذوو الجوار منهم . ثم اضطروا بعد موت ابي طالب الى هجرة اوطانهم والتجأوا الى المدينة وما زالوا فيها مُستَضعَفينَ لا يُؤبَهُ لهم مدة ولكنهم تقووا سنة بعد سنة ولم يمض على هجرة رسولهم عشر سنين حتى عمت دعوتهم معظم البلاد العربية وشايعهم اغلب اهلها

نعود فنقول افرض ان غاب عنا تفاصيل هذه الدولة ولاسيما اول نشأتها ولم يبق لنا عنها الا آثار متفرقة هنا وهناك كهذه التي لنا عن الحثيين الآن — افما كان يجوز ان يقوم مثل العلامة سايس المستشرق الشهير وبناء على بعض الآثار التي كشفتها له الايام في السند والتركستان وفي خراسان وكرمان وفارس والعراق يقول ان هذه الدولة العظيمة

الأثر هي طورانية او اريانية منشؤها في تركستان شرقي بحر قزبين او على مقربة من ضفافه الجنوبية او الجنوبية الشرقية

ان ذلك ليس ببعيد اصلاً ولا يقدح بعلم الاستاذ سايس وفضله ان يذهب الى مثل هذا الرأي ولكن مثلنا الدارج يقول الحصاة الصغيرة تسند خابية وأنا أشير الآن الى هذه الحصاة من التاريخ البابلي التي حملتني ابتداء على ان اقول ما قلته في أصل هذه الامة الحثية العظيمة

الحصاة الاولى والى ماذا تتجه دلالتها

جاء في تاريخ اشور وبابل للمرحوم جميل مدور قال وأول مرة افتتحت بابل في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وعلى يد ازدرخت المادي استفتحها عنوة بعد حصار عنيف ولما دخلها فتك في اهلها فتكاً ذريعاً ومثّل بهم تمثيلاً شنيعاً وركب فيهم من العسف والجور ما لم يسعهم معه الصبر فالجأوا الى مهاجرة البلاد فراراً بأنفسهم وخرجوا هائمين على وجوههم وكان من حديثهم بعد ذلك انهم تألبوا يداً واحدة وجعلوا دأبهم العبث في الارض لا يدخلون قرية الا وطئوها واستباحوا اهلها وأرزاقها حتى بلغ سوادهم الى الديار الشامية فأنزلوا بها البلاء وفشا فيها القتل والنهب والسبي زماناً ثم زحفوا الى مصر وقد كثف لفيفهم بمن انضم اليهم من نواحي الشام من اسارى وغيرهم ونفروا في عرض البلاد وشأنهم ما ذكر حتى انبثّ شرهم وتفاقم امرهم فأجفل لهم المصريون اجفالا شديداً وتأهبوا لقتالهم فكانت بين الفريقين وقائع عديدة تواترت ازماناً وكثرت فيها الدماء من الجانبين حتى عجز المصريون عن كشفهم وأجلت عاقبة الامر عن استيلائهم على معظم بلاد مصر قهراً

ولما استقرت قدمهم هناك ثقلت وطأتهم على البلاد وتمادوا في الظلم والفساد وبقي ذلك امرهم مدة خمس مئة سنة او تزيد الى ان كان عهد توتمس المصري فعمد فيهم الى الحيلة وعمل على تفريق كلمتهم فقسّمهم احزاباً ثم جعل يواقع كل فيئة على حدتها حتى بدد شملهم وفرق سوادهم وأجلاهم عن ارض مصر . انتهى نقل المرحوم مدور. تاريخ اشور وبابل طبعة بيروت وجه ٦٩ — ٧٠

ويظهر من هذا النقل ان قبيلة كبيرة او عدة قبائل جاءت غازية من العراق فافتتحت اولا ما بين النهرين وسوريا الشمالية «او ولاية حلب» ثم عطفت على الديار الشامية ومنها زحفوا على مصر بمن انضم اليهم من نواحيها من اسارى وغيرهم فأجلت عاقبة امرهم عن

أستيلائهم على معظم تلك البلاد قهراً وما زالوا فيها سادة ومسلطين الى ان كان عهد طوتمس المصري فأثار هذا عليهم حرباً عواناً اضطروا في اواخرها ان ينجلوا عن مصر الى الديار الشامية . فلم يكتف طوتمس بذلك ورأى ان السياسة تقضي عليه ان يتعقبهم الى سوريا فتتبعهم الى هناك وبقي يحاربهم عدة سنين افتتح في اثنائها معظم معاقل فلسطين وسوريا الى ما وراء مدخل حماه . ومن ثم اصبحت سوريا مرسحاً للحروب وشن الغارة من المصريين على الحثيين في الجزيرة والعراق على دولة التطامسة في سوريا ومصر

كل ذلك أي مغزى هذا النقل عن الحملة البابلية على الشام ومصر وما كان من ارتداد الهكسوس الى سوريا واضطرار طوتمس الى محاربتهم فيها — كل ذلك يشير اشارة خفية ولكنها واضحة بعد اذ يتفطن لها الى ما كان بين الهكسوس والحثيين من الروابط الجنسية والسياسية والمقاربة في العوائد واللغة وما يترتب على ذلك من الاميال والنعرة والا فما الداعي ان يتجشم طوتمس« وغايته ان يحرر بلاده من القوم» مشاقّ حروب هائلة معهم في سوريا استغرقت سنيناً عديدة بعد حرب في مصر لم تبق ولم تذر وأتت على اليابس والاخضر . وكما سألنا عما حدا طوتمس لملاحقة حروبه في سوريا هكذا فلنسأل عما حدا الملوك الرعاة ومقاتليهم ان ينحازوا الى سوريا « وهي بلاد الحثيين ».انهم ما كانوا ليفعلوا ذلك لو لم يكن بين الفريقين اواصر قربى ووحدة في الجنسية والسياسة العامة . بل كان الاولى بهم ان يخضعوا للغالب ويستسلموا له استسلام المغلوب ويبقوا في بيوتهم ومسارح انعامهم الواسعة في ارض جاسان حيث ربيت اجيالهم مئات سنين من ان يندغروا او يندمقوا على امة غير امتهم وفي الوقت نفسه ربما كان بينهم وبينها من المباعدة والبغضاء مثل ما كان بينهم وبين اقتالهم المصريين ملوك ثيبة

ونحن هنا نشبع الكلام في كل ما لدينا من الحقائق التي اخذناها عن العلامة الاستاذ سايس وأمثاله من كبار الباحثين والمنقبين ونضيف اليه ما لدينا من المعلومات او الحصى التاريخية العربية والملاحظات الكتابية واللغوية مما لم يفطن لها اولئك الاعلام ولو فطنوا لها لكانوا فيما نظن افسحوا لها مجالا يعدل من آرائهم كل التعديل او بعضه

آثار الحثيين الاسمية ومواطنها

اجمع اغلب الباحثين والمنقبين ان لم يكن كلهم على ان حث وخط وخاط وخاطي وخطنا وخطني (١) وخاطاني وخاطيني وحثي واحد وبعبارة اخرى هذه الصور كلها هي تبدلات

(١) النون في خطنا ممالة الى الضم كالفتحة في يوم بلغة مدينة دمشق ونون خطني ممالة الى الكسر كما في لفظهم عين

عن اسم واحد لمسمى واحد وأزيد فأقول ان هيت هي تحريف عن حت وهيشي تحريف من حتي وأن قطيني ايضاً تحريف عن خطيني ولا يبعد ان يكون كوت وتصغيرها كويت هما تحريف عن خوط وتصغيرها خويط وخوط تبدل عن خاط

اذا علمت هذا نرجع فنقول ان هذا الاسم اي الخط لا يزال محفوظاً عندنا لغة في خط وخط البحرين وخط اليامة وخط هجر ومدينة الخط يعني هجر ورماح الخط والرماح الخطية ومدن الخط او قرى الخط وهي القطيف والعقير وقطر

ومفاد هذا التركيب اي قولهم خط عمان وخط البحرين هو كما لو قلنا الخط الذين يسكنون عمان والخط الذين يسكنون البحرين ومثله جاء قولهم عرب الحجاز اي العرب الذين يسكنون الحجاز وتميم البصرة وتميم الكوفة وازد عمان ويجوز ان يعنى به البلاد التي كان الخط يسكنونها في عمان او في ارض البحرين فينقلب من ثم مفاد التركيب الى العلمية المكانية كما هو المراد الآن عند الاطلاق

يظهر من هذه المحفوظات او الآثار اللغوية الباقية ان الخط كانوا في عمان والبحرين واليامة . ومثل هذه الآثار لا تزال ايضاً في العراق وشمالي سوريا في اسم هيت بالدرجة الاولى فانها تحريف حت أو تبدل منهـا وفي كويت وكوت بالدرجة الثانية فانها عندي تحريف خويط وخوط وخوط تحريف او امالة في لفظ خاط وقريباً منه في لهجاتنا خول وخال لاخي الام

واذا انتقلت من العراق الى سوريا الشمالية رأيت الاهلين الى اليوم يسمون بحيرة حمص ببحيرة قطيني . ومن اذا حدق ببصر بصيرته لا يرى خاطيني في قطيني

مر في سيرك بين بحيرة قطيني وقلعة الحصن تسمع المثل الدارج هناك درى البقيعة (بالالف او بالهاء) كثيرة طاحون تل حتي وراها فان اسم الحتي لا يزال باقياً لتل هناك بجانب طاحونة قديمة العهد من غير تبديل ولا تحريف

ابق على سيرك حتى تصل البحر غرباً فهناك على مقربة من مدينة طرسوس القديمة تسمع اسم قلعة الهتيشي حدق هنا بنظر بصيرتك فانك ترى الحثي في لفظ الهيشي كما يرى وقد رآه ايضاً جماعة المستشرقين في لفظ الخيتا والشيتا والخط والخاط والخاطي والخاطاني والخاطيني

بين البحر عند مصب النهر الكبير وبين بحيرة قطيني (بحيرة حمص) على أنف جبل عال بين واديين عظيمين احدهما الى اليمين وهو وادي النهر الكبير والآخر الى اليسار وهو وادي السبير تقوم قلعة الحصن الشهيرة تطل على سهل البقيعة المنبسط بين جبل لبنان

وجبل الحلو . وهو بدء سلسلة جبال النصيرية لتحميه من الغزاة سواء مروا في وادي النهر الكبير او في وادي الدير ولا طريق ثالث

هذه القلعة الشهيرة الحصينة هي قلعة الخثيين كما اثبت ذلك الموسيو ساڤوى قنصل الدولة الفرنساوية في مدينة طرابلس الشام (١) حوالي سنة ١٨٨٠ وكما لا يخفى على من له المام بتاريخ الخثيين . حدق بنظرك في لفظ قلعة الحصن ترى فيه بعد اجهاد بصرك ما رأيته في لفظ بحيرة قطيني فان خاء خاطين انقلبت مع البحيرة الى قاف ومع القلعة الى حاء وقلبت الطاء او التاء المفخمة صاداً مع الحاء وبقيت طاء مع القاف . والبلاد هناك تسمى بلاد الحصن كما تسمى القلعة بقلعة الحصن ومع انها كانت تسمى رسمياً بحصن الاكراد او بقلعة حصن الاكراد لم يثبت لها هذا الاسم الا في السجلات الرسمية وبقي اسمها على الالسنة كاسم البلاد حولها اعني قلعة الحصن . وأصل اللفظ الخطيني فتوالى عليه مع الايام عدة تحاريف لسانية اولها الخطين وآخرها الحصن وثبت هذا الاخير كما تثبت آخر تطورات المتحجرات النباتية والحيوانية

ومن اغرب المحفوظات او الآثار الاسمية ما جاء في معجم البلدان لياقوت قال : حتي — قال نصر هي من جبال عمان او جبلة . والحت موضع بعمان ينسب اليه الحت من كندة وليس بأم لهم ولا اب . وقال الزمخشري الحت من جبال القبلية لبني عرك من جهينة — وقال الحازمي الحت محلة من محال البصرة خارجة من سورها سميت بقبيل من اليمن نزلوها — والقبلية سراة فيما بين المدينة وينبع — انتهى عن المعجم . وجاء في لسان العرب في باب حت ما نصه — الحت قبيلة من كندة ينسبون الى بلد ليس بأم ولا اب . والحت ايضاً تمر لا يلتزق بعضه ببعض . ويليه في الغرابة وبعد الاشارة ما جاء في باب «حث» وتمر حث لا يلزق بعضه ببعض (وهو كتمر حت بالتاء بنقطتين) والحث الرمل الغليظ اليابس الخشن . وقد جاء في اللسان ايضاً ان الخط هو سيف البحرين وعمان وقيل بل كل سيف خط اه لسان العرب

اذا علمت ان السيف هو ساحل البحر والوادي وأن الخط كانوا يسكنون اسياف البحر وعمان واليمامة واذا علمت ان الحث هو الرمل الغليظ اليابس الخشن وأكثر رمال ساحل عمان والبحرين بل وحضرموت ايضاً وسواحل اودية اليمامة كلها او معظمها من هذا النوع من الرمل — اذا علمت كل ذلك فلا يبعد ان ترى في ذلك اشارة الى ان الخط او الحث كانت بلادهم بلاد رمال خشنة فضلاً عن ان كونها ساحلاً لبحر او واد

---

(١) انظر الكلام على قلعة الحصن في المجلد الثالث من المقتطف صفحة ١٠٤ و١٢٣

ولورود حت وحث بمعنى التمر الذي لا يلزق بعضهُ ببعض فلا يبعد ان نرى في ذلك اشارة ايضاً الى انهم كانوا قبائل كثيرة ومتباعدة ترأسها قبيلة ممتازة كقريش بالنسبة الى بقية قبائل ربيعة ومضر في الفتح الاسلامي الاخير . قلت ما قلته وأنا اعلم بعده على انه ممكن وفي الاشارات التاريخية والفيلولوجية ما هو اخفى منه

آثارهم التاريخية الكتابية

جاء في الكتاب المقدس في الاصحاح العاشر من سفر التكوين ان بني حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان

وأن بني كوش سبا وحويلة وسبتة ورعمة وسبتكا . وأن بني رعمة شبا وددان . وجاء أيضاً ان كوش ولد نمرود الذي ابتدأ أن يكون جباراً في الارض وكان ابتداء مملكته بابل وآرك وآكد وكلنة في أرض شنعار

أما نمرود من أولاد كوش فالنص صريح ان ابتداء مملكته كان بابل وآرك وآكد وكلنة في ارض شنعار وهي العراق او معظم ما بين البصرة الى بغداد

وأما سبا من أولاده فسكنه سبا في بلاد العرب وعاصمة سبا مأرب حيث السد المشهور . وأما ارض حويلة فالمرجح فيها انها اليمامة الكبرى وتشمل ولايات الوهابيين الخمس الحريق والرياض والسدير والوشم والقصيم . وأما سبتة ورعمة وسبتكا فلا يبعد أن يكون رعمة هم بنو ريام الذين لا يزالون في شمالي عمان يتاخمون ارض البحرين ثم لا يزال يعرف الى اليوم في ارض البحرين اسم شباودد على ما نقله ياقوت في معجم بلدانه المشهور

إذا تدبرنا ما مرَّ يمكننا أن نقول اجمالاً ان الكوشيين سكنوا اليمن او قسماً منه ونجداً وعمان وأرض البحرين وشرقي رأس خليج فارس حيث لا يزالُ بقايا اثرية من اسمهم متحجرة في خوزستان او بلاد خوز لان خوز وكوش لا يصعب على بصيرة الفيلولوجي أن يرى أحد الاسمين في صاحبه ثم في العراق ايضاً

وجاء في هذا الاصحاح ايضاً ان كنعان ولد صيدون بكره وحثًا . وبموجب هذا النص يكون حث ابن كنعان وكنعان اخو كوش فالنسبة او العلاقة الجنسية بموجب هذا النص التاريخي بين الكنعانيين والحثيين والكوشيين واضحة كل الوضوح

وإذا كان الكوشيون هاجروا الى العراق من شبه جزيرة العرب فاخوانهم الكنعانيون هاجروا منها ايضاً ويؤيد هذا ما هو منقول عن هيرودوتس ان الفينيقيين الكنعانيين الصيدونيين والصوريين كانوا اولا في ارض البحرين ومنها هاجروا الى شواطىء المتوسط

ثم إذا سلمنا ان فوط وبنط واحد وأن بنط التي هي ارض الآلهة وأرض مشرق الشمس هي اليمن كما يذهب اليه الاكثرون اصبح من المرجح ان مواطن الكوشيين والكنعانيين الاولى كانت في شبه جزيرة العرب ومنها ارتحلوا مهاجرين الى العراق وسوريا

لنا هنا ملاحظة نذكرها وهي أن التاريخ المقدس بعد أن يذكر بني كوش يعود فيقول بعبارة خصوصية ان كوشاً ولد نمرود الذي ابتدأ أن يكون جباراً في الارض الذي كان جبار صيد امام الرب وكان ابتداء مملكته بابل وآرك الخ . والاتيان بالعبارة على هذه الصورة يستأنس منه ان بطناً من بطون الكوشيين ولنسمهم النماردة باسم نمرود رئيسهم كانوا اول من كانت لهم رياسة في العراق ولان الكتاب يذكر اولا بني كوش ومواطنهم وكلها في جزيرة العرب وفقاً لرأي الاكثرين من المحققين . فالنماردة اذن مهاجرون الى العراق دخلاء عليه لا اهلوه الاصليون فيه

ثم لما صار للنماردة الكوشيين رياسة في العراق اخذت بطونهم الاخرى اذا انكرت شيئاً من حال معاشها في شبه الجزيرة ترحل الى العراق فيشتد بهم ازر اخوانهم هناك وصولتهم بما يزيد في سلطانهم واتساع دائرة ملكهم فزاد ذلك من اطماعهم وهيج شهوة الفتح والاستيلاء فيهم فاحتاجوا الى المادة من الرجال فاستصرخوا ابناء عمهم الكنعانيين فضلاً عن اخوانهم من سبا ورعمة وحويلة فأصرخوهم فبعثوا حملة الى الشام ومصر كان الكنعانيون المقدمين فيها . والظاهر ان الحثيين او الخاطيين (باشباع فتح الخاء او بالتشديد وترك الاشباع) بقي معظمهم ما بين النهرين وشمالي سوريا

كان خطر لي اولاً ان الحملة الحثية على سوريا كانت مستقلة وأنها سارت من هيت على طريق السماوة ووادي حوران وأنها من حوران اخذت طريق فتوحاتها شمالا على الشام وبعلبك وحمص وحماه وحلب وانطاكية . ثم من حلب أخذت طريق كركميش وكبدوكية ومن انطاكية واسكندرونة بعد أن استولت على ابواب كيليكية تتبعت غزواتها في هذه البلاد غرباً وشمالا . ولكني الآن أرى غير ما ذكرت وأرجح ان الكوشيين أيام النماردة لما استتب لهم الملك على قسم كبير من العراق بين رأس خليج فارس وبين بابل خافوا أن يتألب عليهم القوم وينبذوا سلطتهم فاستنجدوا اخوانهم الكنعانيين من حضرموت واليمن وعمان فجاؤوهم من كل حدب وصقع من أودية عين ودوعن وحضرموت . ومن اليمن من غور تهامة ونجد قبائل كنانة وهمدان وخولان . ومن عمان وأرض البحرين قبائل وبطون كبيرة ومن جملتها وأكثرها عدداً الخاط او الخط او الحث فضاق العراق عن هذه القبائل الكنعانية والكوشية وكانوا قد ذاقوا حلاوة

الاستيلاء والغلب وتحركت فيهم نهمة الغزو والفتح فسيروا القبائل التي جاءت لنجدتهم والتي رحلت اليهم في بَعْثَيْن بعث عن طريق دجلة وآخر عن طريق الفرات. أما بعث دجلة فترأس الحملة فيه اشور وأشور في الارجح عبارة عن عشيرة كانت بين القبائل او البطون الكوشية النمرودية فخرجت من بابل في طريق دجلة غازية هي ومن انضم اليها من قبيلتها الكبرى فدوّخوا البلاد حتى وصلوا الموصل فجعلوها عاصمة لهم ثم من ديار بكر امتدوا شرقاً وشمالاً ما استطاعوا حتى بلغوا اورمية ووان فصدتهم جبال اراراط العالية وجبال قره ضاغ وطبرستان وما اليها من بلاد مادي عن التقدم . ولما توزع من محاربتهم على البلاد التي افتتحوها قلت الحامية عندهم فأصبح سكان البلاد المتاخمين اقتالاً لهم وعلى حروب متواصلة معهم فشغلهم ذلك عن التوسع وعن التطلع للرياسة الكبرى اجيالاً .
وأما بعث الفرات فساروا في طريقهم عليه حتى بلغوا كركميش ومن هناك صح فيهم قول الشاعر

تكاثرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

رأوا الفرات يأخذ بهم شمالا الى جهات ملطية ورأوا ممدًّا له يأخذ بهم شمالاً بغرب الى عينتاب ومرعش وتلك الجهات . والظاهر ان سواحل سوريا ومصر كانت قبلة لانظارهم فسار جمعهم الاكبر جنوباً يفتتحون مدن سوريا وفلسطين حتى بلغوا مصر فاشتد الكفاح بينهم وبين المصريين وانقشع عنهم غباره وقد استخلص الحثيون منهم الدلتا الكبيرة وكل مصر السفلى وانحازت الجنود المصرية فوقفت في ثيبا المعروفة خرائبها اليوم بالكرنك والاقصر حي منها او ضاحية من ضواحيها على ما أظن وكانت الحاميات الحثية والكنعانية قد قلّت بما توزع منها على جانبي الفرات وفي الجزيرة وبعض كبدوكية وكيليكية وعلى الاخص في سوريا فعقدت صلحاً مع المصريين على الجزية او شيء منها ورضي المصريون بذلك

والذي أظنه أيضاً ان ملوك مصر لذلك الحين كانوا أصلاً من شبه جزيرة العرب من بلاد بنط بلاد الآلهة وبلاد مطلع الشمس ولكنهم كانوا قد استقلّوا في مصر عن اوطانهم الاصلية وتلبسوا بالزي والعوائد والعبادات على ما كان عليه لونها وشكلها في مصر وتركوا من ازيائهم وعوائدهم وعباداتهم التي كانوا عليها حينما هاجروا من العربية الى العدوة الثانية من البحر الاحمر وأخذوا ينظرون الآن الى الغزاة الذين اجتاحوا عليهم بلادهم كما ينظرون المصريون اليوم « أو كما كانوا ينظرون ايام الفاطميين » الى العراقيين مثلاً او الى اهل عمان وحضرموت او الى اهل نجران ووادي دوار ولا سيّما اذا كانوا من القرامطة او من الاباضيين

الدكتور غراهم

فقدت جامعة بيروت الاميركانية طبيباً من خيرة اطبائها بل من خيرة اطباء كندا والولايات المتحدة بل من خيرة اطباء اوربا وأميركا

وقد كان في جيله لتلامذته والمدرسة الطبية الاميركانية في بيروت ماكان المرحومان الدكتور فانديك والدكتور ورتبات لتلامذتهما ولتلك المدرسة في جيلهما مع بعض الفوارق الآتية

(اولاً) ان خدمة المرحوم الدكتور هرس غراهم بلغت اثنتين وثلاثين سنة ونيفاً وأما خدمة المرحومين للمدرسة فلم تتجاوز التسع عشرة سنة للمرحوم ورتبات والاربع عشرة للمرحوم كرنيليوس فانديك

(ثانياً) ان الصفوف (الغرف) في ايام استاذينا الكبيرين فانديك وورتبات كان معدل عدد تلامذتها اقل منه في ايام المرحوم غراهم فضلاً عن قصر مدة سني خدمتهما بالنسبة الى مدة سني خدمته كما المعنا . ولذلك فتلامذة المرحوم غراهم بلغ عددهم نحواً من خمسة اضعاف عدد تلامذتهما . ولايضاح ذلك اقول ان عدد تلامذة استاذنا الاكبر كرنيليوس فانديك الذين اخذوا شهادتهم الطبية في ايامه لا يزيدون عن السبعين تلميذاً وأما عدد تلامذة المرحوم غراهم فبلغ الى السنة الفائتة خمسمئة تلميذ ونيفاً . وكانوا اي تلامذة استاذنا الاكبر اكثرهم ان لم يكن كلهم من سوريا وأكثر هؤلاء الاكثر من لبنان فيما ارجح بخلاف تلامذة غراهم فانه كان بينهم الكثيرون من الارمن واليونان حتى كاد اللبنانيون يضيعون بينهم فضلاً عمن اتوا من مملكة ايران ومن العراق وكردستان وروسيا ومن الاناضول والبلغار شمالا وشرقاً ومن قبرص وجزر اليونان غرباً ومن مصر والسودان الى الحبشة جنوباً وكل هؤلاء فضلاً عمن قد جاؤوا من المهاجر حملوا معهم اسم غراهم استاذاً من اكبر الاساتذة وطبيباً من اكابر الاطباء الذين يشار اليهم بالبنان كما كان يُشارُ الى استاذينا المرحومين الا ان دائرة شهرة المرحوم اتسعت وامتدت على نسبة عدد تلامذته وعلى نسبة تعدد بلدانهم وكثرتها

قضى هذا الاستاذ الكبير نحبه ومضى الى رحمة ربه في سبيل من مضى صباح الاثنين ٢٧ شباط الماضي (فبراير) ودفن يوم الثلاثاء ثاني يوم وفاته

احس يوم الاثنين في عشرين شباط بشيء من الانحراف في صحته فلم يحفل به

وزاد ما به من الانحراف يوم الثلاثاء فنسب ذلك الى بدء نزلة صدرية كانت اعتادت ان تنتابه من قبل واستمر على ما كان عليه من تعليم وزيارات طبية كعادته فدعي ذلك النهار لعيادة مريض مصاب بالتهاب دماغي من قبيل مرض النوم او نوع منه ويظن انه اخذته عدوى المرض من مريضه هذا . ويوم الاربعاء بعد الظهر دعي الى وادي شحرور فذهب وعاد قبيل الغروب وهو يحس بقفة برد وقشعريرة وقبل ان يصل الى بيته وجد احد اصدقائه ينتظره ليعود مريضاً عنده فذهب مع ذلك الصديق على رغم ما كان يشعر به من الضعف والانحطاط . واشتد عليه البرد في بيت ذلك الصديق بما لم يستطع اخفاءه وتحمله فلُفّف بحرامي صوفي وهكذا وصل الى بيته ومع ذلك بقي يكابر المرض ويقاويه

حكت مسز غراهم قالت لما استفاق من نومه صباح الخميس رأيت البطء ظاهراً في قيامه وقعوده ولباسه وسائر حركاته بما لم اعهده منه من ذي قبل ولما جلس على المائدة رأيت ازرار صدرته غير مضبوطة التزرير وكذلك شريطة حذائه . وهذا مما لم يسبق له به عادة فانه مذ كان لم يكن يتغافل عن الاناقة اللائقة في اللباس والحذاء وما اليهما . قالت فعلمت مما رأيت انه ليس على استواء في صحته فقلت له أليس من الافضل ان تستريح اليوم في فراشك وترسل الى تلامذتك انك باقٍ في البيت فأجابني احب الي ان الاقي حتفي في شغلي لا على فراشي قال هذا وترك البيت الى المدرسة وهيئة التعب بادية على وجهه وفي جميع حركاته

ولحظ تلاميذه في المستشفى اثناء سماعه تقاريرهم الطبية كل عن مريضه او مرضاه انه لا نجأة له على استماعها كعادته ولحظوا ان احدى شرائط حذائه محلولة وأنه حاول عقدها غير مرة فلم يقدر فتركها على حالها . ولما اتم سماع التقارير قام يريد الدخول الى احدى الغرف الخصوصية فلم تساعده قواه فسقط الى الارض لا يعي فحُمِلَ حملاً الى سرير في المستشفى فبقي فيه الى ان لفظ انفاسه الاخيرة

لم تغب شمس ذلك اليوم حتى عرفت بيروت عن آخرها بمرضه واشتد قلق الناس عليه يوم الجمعة مساء وتواردوا رجالاً ونساء على بيته وعلى المستشفى يسألون عن صحته وزاد اضطراب المدينة عليه مساء السبت ونهار الاحد فلم يبقَ حديث غير حديث غراهم او الحديث عن غراهم وعن ضعف الامل بشفائه وعظم الخسارة التي تخسرها المدينة والبلاد عموماً بفقده

وبدأ الناس يتحدثون بأخلاقه وما كان من شدة اهتمامه بمرضاه فضلاً عن مهارته في صناعته وأخذوا يقصون عنه اقاصيص كانت الى ذلك الوقت محفوظة في صدور اصحابها

اقاصيص عما كان يفعله سرًّا من مساعدة من كان يراهم محتاجين الى المساعدة حقيقة ويستحقونها وعن عرفانه الجميل لمعارفه وأصدقائه ولا سيما لمن كان منهم اندفع بعامل شهامة لتقديم خدمة له اياً كان

سمعت محدثاً يحدث قال اول ما جاء الدكتور غراهم الى بيروت كان رقيق الحاشية وكان يحب ان يظهر بمظهر اجتماعي يليق به وبصناعته ومركزه فذهب الى فلان احد الخياطين وقال له هل تصنع لي ثلاث بذلات ثياب وتمهلني بالثمن مدة قال الخياط مظهراً الاريحية والمسرة نعم بكل سرور اصنع لك ما شئت وأمهلك بالثمن ما شئت

حدث بعد ذلك ان مرض هذا الخياط فاستدعى الدكتور غراهم ولما ابل طلب ورقة الحساب فقال الدكتور لا ورقة حساب لك عندي فقد سبق فدفعتها لي معروفاً قال الخياط لكن يا دكتور انا موفق في شغلي لله الحمد وأستطيع ادفع حسابك ولا اشعر بشيء من التضييق على نفسي وعيالي ولا على شغلي ورأس مالي فلم يسمع المرحوم برهانه ولا أصغى لالحاحه في قبول اجرة زياراته

ثم حدث ان مرضت امرأة الخياط فدعاه لعيادتها وبعد ان تماثلت الى الصحة ولم يبق من حاجة الى تطبيب ولا الى طبيب طلب ورقة الحساب فقال الدكتور لا حساب لك عندي وأصرَّ الخياط على ان له حساباً . وعلمت من المحدث ان الدكتور رحمه الله ما زال الى ان توفي لا يتقاضى صديقه الخياط الا نصف ما كان يتقاضى امثاله ممن كانوا يتطببون عليه

لما اشتد الحال بالدكتور نهار الاحد لم يبق بيت من بيوت بيروت المعروفة لم يعرف ذلك كأن مئات من التلغرافات او التلفونات كانت تنقل اخبار مرضه وتقارير الاطباء اليه بل كان يتناقل بأسرع من البرق ما كانت تهمس به عنه الاطباء همساً فيما بينهم . وأسبابه ان المتوافدين الى بيته والى المستشفى للسؤال عنه كانوا كثيرين يأتون جماعات جماعات فتلتقي الجماعة الراجعة مع القادمة احياناً على باب بيته او على بوابة المستشفى وكان الراجعون يسألون وهم في الطريق وعلى ابواب بيوتهم قبل ان ينزلوا من مركباتهم او اوتوموبيلاتهم عن سلامة الدكتور وماذا سمعوا عنه وما يجيبون به كان يتناقله السامعون الى جيرانهم ومن هؤلاء الى جيرانهم وهلم جرًّا وكانت الامهات اشد حزناً وجزعاً عليه من الآباء . وأي ربة بيت معروف في بيروت لم تكن تعرف الدكتور غراهم ولها تمام الثقة به ان من جهة نفسها او من جهة زوجها وأولادها

يوم الاحد مساء ظهرت عليه امارات التحسن نخف وجيب القلوب واستبشر الناس

وباتوا يتعللون بالآمال وكذلك اصبحوا وفاتهم اختبار الاجيال الذي اعرب عنه الشاعر حيث قال

وسالمتك الليالي فاغتررت بها   وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ

فانهم قبل ان تهزهم هزة الفرح بخبر تحسن حاله فوجئوا بخبر موته وكان ذلك الساعة ٧ والدقيقة ٤٥ صباحاً . توفي فجأة بما وصل من الالتهاب الى مركز التنفس فعاد التراب الى التراب وعادت النفس الى خالقها . وما كان اكثر الباكين عليه وما كان اكثر المسترجعين

اما الجامعة الاميركانية فكأنما اصابها زلزال انتفضت له من اساساتها وحادت منه ذات اليمين وذات الشمال جدرانها فوقف من فيها حيارى اساتذة ومعلمين وتلامذة لا ينبسون ببنت شفة وخفتت اصواتهم جميعاً

اما التلامذة الطبيون فكنت تراهم سفع الوجوه مبهوتيها مطرقين بأعينهم الى الارض كأنهم يخافون ان يتكلموا فيقولوا غير ما يريدون . ولما اعلن نائب الرئيس خبر وفاته كان كالمتعثر بدموعه تحس ذلك في صوته وكأنك به لا يحب ان يصدق ما يقول لهوله وشدة وقعه في نفسه فذكرتني حالته بقول القائل منذ الف سنة

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر   فزعت فيه بآمالي الى الكذب
حتى اذا لم يدع لي صدقه املاً   شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي
تعثرت به في الافواه ألسنها   والبرد في الطرق والاقلام في الكتب

وكأني بأبياته هذه تصوّر احساسات نائب رئيسنا وجميع اساتذتنا واحساسات بقية المعلمين والتلاميذ ولاسيما تلاميذ القسم الطبي

ولم يلبث الحال طويلاً بعد اعلان خبر الوفاة حتى نظر اهل رأس بيروت الراية الاميركانية تخفق مخنوقة على سارية عالية فوق برج بناء القسم العلمي ثم لم تلبث الريح التي كانت تهب كليلة ان هبت هوجاء ثائرة تحاول تمزيق الراية او ترمي بها في مجاهل الفضاء فلما اعياها ذلك عمدت الى السحائب فساقتها امامها جبالاً وعقدت مياهها دموعاً اراقتها حزناً بالغاً على من استنزف عيون البيروتيين دمعاً وقلوبهم اسى وأسفاً ولاسيما ابناء جامعتها الاميركانية

نقل جثمان المرحوم بعد ظهر الاثنين الى صدر منتدى الجامعة الاكبر وأقبل تلاميذه وأصحابه يودعونه ويرونه لآخر مرة في هذه الحياة الدنيا فتوارد المودعون زرافات زرافات من بعد ظهر الاثنين الى الساعة التاسعة من صباح الثلاثاء

وفي الساعة العاشرة صلي عليه فكان المشهد رهيباً جداً فانه على امتلاء النادي حتى لم يعد

يسع الحضور وكان لا يستطيع متقدم ان يتقدم ولا متأخر ان يتأخر كان السكوت تامًّا لا يجسر متنهد ان يتنهد ولا باكٍ ان ينشج حتى ولا مصدور ان ينفث. وبعد الصلاة حمل التابوت تلامذته الى بوابة الطبية حيث وُضع في سيارة خاصة والناس قد ملأوا الساحات والطرقات والمشارف المجاورة

وسارت به جنازته وكأنما سارت المدينة كلها وراءها ولا غرابة في ذلك فان الشخصية الكبيرة تؤثر في النفوس على نسبة بعد همتها واتساع دائرة عملها سواء كان صاحب تلك الشخصية طبيباً اومعلماً عالماً من علماء الدين الافاضل اومن علماء الدنيا الافرق او كان ذا منصب شغله لوجاهته وغناه فانه يكتب في النفوس وعلى القلوب بأعماله صورة تظهر بالصورة التي اراها امام عيني وأنا اكتب ما اكتب عن هذه الشخصيه الكبيرة اعني شخصية الدكتور غراهم

من يصنع الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العرف بين الله والناسَ

ولد الدكتور غراهم في كرلتون من اعمال كندا في الخامس عشر من آذار (مارس) سنة ١٨٦٢ وكان اكبر اولاد ابيه من امرأته الثانية فهو اخ لسبعة عشر اخاً وأختاً

وكانت كرلتون مسقط رأسه مدينة صغيرة حينئذ لكن كان فيها من المدارس العمومية ما لا ينقص عن غيرها من امثالها فدرس فيها الى أن بلغ السابعة عشرة وعلم بضعة اشهر في بعضها ثم ترك التعليم وأقبل على صناعة ابيه وكان صانع مركبات وجعل همه صبغ المركبات وتعلو بنها وبعد ان اتقن هذه المهنة عاد الى طلب العلم وتتلمذ لجامعة تورنتو ثم لجامعة ولاية مشيغان حيث اخذ شهادته الطبية

ثم ارتبط بخدمة مجمع بوسطن التبشيري طبيباً لارسالية عينتاب . وفي طريقه اليها مرَّ بالاستانة وصدق على شهادته الطبيه. وفيما هو هناك تعرف بابنة احد مشاهير الوُعَّاظ الاميركان فاقترن بها في الثالث من نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٨٨٥ فكانت له افضل رفيق ومعين الى ان توفاه الله

وبقي في خدمة الارسالية في عينتاب ثلاث سنوات رفيقاً للدكتور شبرد ومساعداً له في مستشفى تلك المدينة ومدرستها الطبية التي كانت تابعة لكلية تركيا المركزية او الوسطى (Central Turkey College) وانتقل في شتاء سنة ١٨٨٨ الى حلب حيث بقي نحواً من سنة في خدمة ارسالية في تلك المدينة ومن هناك انتقل الى بيروت سنة ١٨٨٩ وارتبط بالكلية الاميركانية الطبية فلم يلبث ان تعين استاذاً فيها

ولم يتم السنة حتى مكَّن نفسه في نفوس التلامذة ورفاقه من الاساتذة والمعلمين وامتلك

اكرام دائرة مديري الكلية ولم تأت السنة الثالثة حتى عرف اسمه في بيروت وفي اماكن عديدة خارجاً عنها وصار يقصد من الجهات البعيدة ويرجع اليه في بيروت عند الشدة

عرفتُ من احد تلامذته سنة ١٨٩٥ ان تلامذة الكيمياء وكان قد تولى تعليمها بداعي تغيب استاذها كانوا يجتهدون ان يراجعوا مُطَوَّلات هذا العلم تحكُّكاً به وتبجحاً بعلمهم عليه فكانوا يرونه ابداً فوقهم يعرف ما عرفوه ومايزيد عنه وهكذا اتفق لغيرهم في فرع آخر لم يكن استاذه فجربوا ما جربه طلبة الكيمياء فوصلوا الى ما وصل اليه تلامذة ذلك الصف

قال فيه احد رفاقه الاساتذة انه «عث الكتب» لانه كان لا تفارقه الكتب يطالعها مطالعة درسٍ وتبحر لا مطالعة تَلَهٍّ وتَشَبُّع فليعتبر به المعتبر وليعلم ان شهرته ومكانته في النفوس لم تأته عفواً ولا اتفاقاً ولكنه اكتسبها بشق النفس وبعد الهمة والمثابرة على العمل

وقبل ان اختم كلامي عنه اقول انه شديد العناية بمريضه يظهر اعظم اهتمام بمرضه مهما كان ويبالغ في فحصه فلا يفرغ من ذلك حتى يملك ثقة مريضه تمام الامتلاك. وكان فوق ذلك حلو المعشر فكه الحديث سريع الملاحظة لا يتبرم بعليل ولا يتضجر من كثرة مراجعة ولو كانت في غير محلها

مواد كلية في النحو واللغة

مديون ام مدين — مظاهرة ام تظاهرة — مرسح ام مسرح

استاذي العزيز الدكتور صروف لا عدمته

ان اشتغالي السنين الطويلة في درس النحو واللغة وتدريسهما يُسوّغ لي ان اعرض المواد الآتية على انظاركم وأنظار المفكرين في هذه المسائل والمشتغلين بها لعل فيها ما يلفت النظر من جديد الى هذه المباحث التي يجب ان يُنظَر فيها كما ينظر الى سائر الابحاث الادبية والاجتماعية في الوقت الحاضر اي نظراً مبنياً على قواعد راهنة يتفق فيها العقل والنقل معاً ويُطَّرَح فيها كل رأي ليس فيه ما يقبله العقل بوجه من الوجوه المنطيقية المقبولة لدى اولي الفكرة والنظر الصحيح. وحسبي فيما اكتبه الآن ان انبه به خواطر ادبائنا وعلمائنا الاعلام المتحفزة لمثل هذه المسائل الى ملاحقة هذه الابحاث وايضاح ما غمض منها ولهم اجر المحقق المستقصي ولي اجر المنبّه المبتدي. وغاية ما اؤمله ان لا اكون قد ضللت السبيل المؤدي الى نفض هذه المفازة البعيدة الارجاء والغامضتها معاً والله الموفق الى الصواب

﴿ المادة الاولى ﴾ كل ما عدل عنه من المسائل الاعرابية لغرض ما كالاستثقال مثلاً او خلافه فالعدول جواز لا وجوب . والرجوع الى المعدول عنه لاقامة وزن او لحسن رصف مثلا جائز مطلقاً وكذلك اذا لم يكن الثقل على معظمه

مثلاً المنقوص من الاسماء المعربة كالقاضي والماشي تقدر عليه كل الحركات مطلقاً للخفة ولاسيما الضمة والكسرة فاذا احتيج اليها اي الى الحركة او لم يكن الثقل على معظمه عادوا الى الاصل قال بعضهم

ولو انّ واشٍ باليمامة داره ودارِي بأعلى حضرموت اهتدى ليا

وقال آخر

يا قاضيَ الحب اتئد في قتلتي فالخط زور والشهود سكارى

قدر الاول الحركة على « واش » تخفيفاً واقامة للوزن وأظهرها الثاني على «قاضي» للحاجة اليها . ويجوز له اظهارها ايضاً من غير حاجة لان الثقل ليس على اشده كما لو كانت الحركة ضمة او كسرة فان الذوق يأبى الرجوع اليها حينئذ من غير ما حاجة

وكذلك الاسماء غير المنصرفة فانها تجر بالفتحة ولا تنون للثقل فاذا احتيج الى الحركة

والتنوين كان للمحتاج ان يرجع الى الاصل قال امرؤ القيس

ولما دخلت الخدر خدر عنيزةٍ فقالت لك الويلات انك مرجلي

احتاج الى التنوين فصرف ونون

وجاء في أفصح كلام عربي منثور نقل الينا تنوين «سلاسل» لغير ما حاجة لان الثقل الخصوصية في اللفظة يدركها الذوق ليس هو على اشده. ولو ترك قارىء التنوين في الآية لاختل ايضاً حسن الرصف اختلالاً شديداً كما لا يخفى على ذي ذوق

وكما جاز الرجوع الى التنوين في الاعلام غير المنصرفة للحاجة او للخفة جاز في المنصرفة منها ترك التنوين للغرض نفسه قال بعضهم

ادور على رضاك ولا اراه كاني طالب لسعيد مثلا

﴿ المادة الثانية ﴾ حرف المد المتطرف كالياء في قاضي وساعي ويقضي وكالالف في فتى وأفتى ويسعى وكالواو في يغزو هو عبارة عن حركة مشبعة فاذا جاء بعده ساكن من تنوين او ال تعريف تُرِكَ الاشباع كقولهم فتى ولا كمالك وفتى الفتيان وقاضي القضاة . ويقضي الله بما يشاء . وكقولك كانوا وهم في الجاهلية تغزو القبيلة اختها . كل ذلك يحذف فيه حرف المد لفظاً لا خطاً . هذا هو الاصل وترك هذا الاصل مع التنوين في مثل قاض دون فتى وكذلك مع الجازم في الفعل المجزوم كلم يقض الدين الذي عليه لا وجه له ولا مسوّغ . وتعليل النحاة ان الجازم لما لم يجد الحركة في آخر الفعل اخذ حرف العلة الشبيه بها ، تعليل لا منطق فيه اصلا . وبقاء هذا التعليل معمولا به عندنا الى اليوم وصمة في منطقنا لا يمحوها الا محو اثره من مكتوباتنا المستجدة. والذي اراه هو ان نكتب المجزوم والمرفوع في مثل — لم يرى الراون — ولا يرى الراون — بصورة واحدة اي باثبات حرف العلة خطاً في الحالتين والا فالحذف لفظاً وخطاً اولى فيهما لاشتراكهما في العلة الواحدة وغاية ما نتساهل فيه ان يبقى الاسم القديم على حاله في المشهورات المعروفة لدى الخاص والعام ولا أرى هذه الميزة الا لما رسم في المصحف . وأما ما سواه من الرسوم القديمة التي توبعوا فيها فأرى ان لكل رأيه اي ان يبقى على الخطأ في الرسم او يرجع فيه الى الاصل كما بيناه

﴿ المادة الثالثة ﴾ كل ما هو متعارف اعراباً في لغة مشهورة كلغة تميم مثلاً او لغة الحجاز او تهامة او نجد فلكل ان يجري على ما يعرفه من هذه اللغات فتقول « ما قتل المحب حراماً او حرامٌ » و « ليس الطيب الا المسكَ او المسكُ » بالاعمال او الاهمال . وقد يدخل تحت هذه المادة الجوازم والنواصب فانه عند الحاجة يجوز اهمالها كما يجوز إعمالها

وهنا اقول ان كل لغة في الاعراب جاءت في المصحف في احدى القراآت المعتبرة يجوز القياس عليها اطراداً في كل الباب ولا سيا عند الحاجة.ومن ذلك الوقف على آخر المضارع في الدرج فان القراءة وردت فيه وعليها قول الشاعر الصحابي « كما ارجح »

اني امروٌ عاهدني خليلي الا أقيم الدهر في الكبول
أضربْ بسيف الله والرسولِ

فانه وقف على المضارع في الدرج فترك علامة الاعراب ، ولما كان الشاعر من صميم العرب وفصحائهم وفوق ذلك وافق في شعره ما جاء في المصحف كان لنا أن نتابعه في كل صيغة مضارع حيثما جاءت ولاسيا اذا كان في الوقف حسن رصف أو اقامة وزن . وأزيد فأقول ان الوقف هو الاصل وعلامة الاعراب عارضة وكان يجاء بها ابتداء لاقامة الوزن في الشعر او للغنة وما اليهما ثم اصبحت يُؤتى بها تسهيلا للفهم.والعارض لا يعدل اليه عدولاً وجوبياً الا لعلته التي اوجبته فأرجو متأملا أن يتأمل ولا يستهويه قول أغراب عن اللغة لتقدم زمانهم ليس الا

استطراد

يخال الي ان هنا مناسبة بين ما ذكرته وبين ما جاء للامام السيوطي في مزهره المشهور نقلاً عن ابي زيد احد الذين نقلت الينا اللغة عن رواياتهم قال (١) طفت في عليا هوازن وهذيل اسألهم عن هذا الحرف وهو كل فعل ثلاثي مفتوح العين وليس ثانيه وثالثه من حروف الحلق ولا من الحرف الهاوي ، بالضم هو في المضارع ام بالكسر ، فلم أرهم يفرقون بين الحركتين بل يلفظ لافظهم كما يتهيأ له فيقولون ضرب يضرب ونفر ينفر ونصر ينصر بالضم او بالكسر اه . وأنا اعجب من بعضهم على علمهم واتساع مطالعاتهم كيف يضيقون على انفسهم وعلى غيرهم في هذه الحركة فينكرون على من يقول يضرب بالضم او ينصر بالكسر اشد النكير كأنه قال ما يقرب من الكفر

﴿ المادة الرابعة ﴾ في الالفاظ المشتقة ما وافق القياس المشهور والمتعارف هو أولى بالاستعمال من الجائز فيه مثاله

اسم المفعول يأتي من كل فعل ثلاثي متعد على وزن مفعول الا انه من الاجوف قد تترك واوه للخفة فتنقلب صورة مفعول الى فعول او فعيل واليك بيان ذلك

---

(١) نقلت هذا عن ذاكرتي وأخاف ان تكون خانتني في نقل النص بحرفه فليراجع المزهر شاك وله الفضل

تقول من صان يصون مصوون بالاتمام على الاصل ومصون بالنقص وواضح ان لفظ مصون قريب في السمع من لفظ مصوون وفي الوقت نفسه هو أسهل لفظاً منه على اللسان وأشهى في السمع ولهذا يعدل اليه دون الاصل . وقد بينّا فيما مر ان كلا عدل فيه عن الاصل للخفة يجوز الرجوع فيه الى الاصل عند الحاجة او اذا لم يكن الثقل على اشده

مديون ام مدين

وتقول من الاجوف الياءي باع يبيع مبيوع فتركوا لفظ مبيوع الى مبيع ولا يتم ذلك الا بقلب الضمة كسرة بدلا — والضمة والكسرة تتبدل احداهما من الاخرى بكثرة — ثم بقلب الواو ياء تبعاً لقلب الضمة كسرة ثانياً فيصير اللفظ الى مَبْيِيع وهذا يقلب الى مَبِيع ولعل لفظ مبيع اخف شيئاً من لفظ مبيوع كما ان لفظ مصون اخف شيئاً من لفظ مصوون. ولأن اللفظين يردان كثيراً على الالسنة والفرق بينهما في الخفة ليس على اشده جاء في الخيار من غير ما حاجة استعمال الصورتين. فقالوا مصوون ومصون ومبيع ومبيوع لكن يقال بالاجمال ان الاجوف الياءي يكثر فيه الاتمام على الالسنة ويكثر في الواوي النقص مع بقاء الواو او قلبها ياء فنقول من دان يدين مديون بالاتمام فانه اكثر دوراناً على الالسنة قديماً وحديثاً . الا ان بعض الادباء او معظمهم قد عدلوا مؤخراً عن استعمال مديون الى استعمال مدين ولم يحفلوا بقوانين البلاغة التي توجب اختيار المتعارف والمألوف دون غيره . ومع ان هؤلاء الادباء قد اخطأوا الاختيار في استعمالهم مدين دون مديون « على ما أرى » فيحق لهم ان يعتمدوا على ذوقهم في غيره فليس كل «مفعول» من اليائي يفضل فيه الاتمام ولا كل «مفعول» من الواوي يستحسن فيه النقص فان لفاء الفعل ولامه دخلا كبيراً في ترجيح اختيار احدى الصورتين دون اختها لحسن وقعها في السمع او لسهولة التلفظ بها على اللسان

مظاهرة ام تظاهرة

رأيت كثيرين منذ السنة التي مضت يعدلون الى تظاهرة بدلا من مظاهرة الشائعة والمشهورة في الاستعمال ولا أرى وجهاً لهذا العدول وبيانه :

تقول ظاهر زيد عمراً عاونه فتظاهرا أي تعاونا كما تقول شارك زيد عمراً فتشاركا وتقول ظاهر القوم بعضهم بعضاً فتظاهروا اي تعاونوا كما تقول شارك القوم بعضهم بعضاً فتشاركوا ولا تقول تظاهر القوم بعضهم بعضاً كما لا تقول تشارك القوم بعضهم بعضاً .

ونقول اعجبني مظاهرة القوم بعضهم بعضاً ومشاركتهم بعضهم بعضاً تبعاً لفعليهما ويستغنى ايضاً في المثالين عن ذكر «بعضهم بعضاً» ولا نقول اعجبني تظاهرة القوم ولا تشاركتهم بدون اتباع المثالين بقولنا «بعضهم بعضاً او بعضهم لبعض» لان المظاهرة كفعلها خاصة بالتعاون فيستغنى معها بالاضافة عن القيد. وأما التظاهرة فاذا لم تقيد احتملت كفعلها معنى التعاون او التدابر لان قولنا تظاهر القوم بالاطلاق اي بدون قيد يجوز فيه فهم معنى المعاونة ومعنى التدابر والمقاطعة فلا بد اذن من القرينة لتعيين معنى المعاونة كأن نقول تظاهر القوم على عدوهم بخلاف المظاهرة فانها خاصة بالمعاونة مطلقاً فلا تحتاج الى ذكر القرينة

وبناء على كل ما مر ارى انه يجوز استعمال مظاهرة مطلقاً لعدم الخطاء في استعمالها ان من جهة اللفظ او من جهة المعنى وأما تظاهرة فلا يجوز استعمالها اصلاً للخطأ الفكري الذي قد لا نفطن له فيسرع مع الغفلة عنه الى تجويز ما لا يجوز الا اذا نحينا اللفظ عما هو موضوع له اعتباطاً. وفوق كل ذي علم عليم

مرسح ام مسرح

وما اراه يقرب من باب مظاهرة وتظاهرة ما ذاع مؤخراً من استعمال مسرح بدلا من مرسح واستعمال كلا اللفظين للمعنى المراد به اليوم هو من باب النقل المبني على المجاز اي استعمال الاصل فيما هو ملابس له او فيما هو شبيه به فلننظر في اللفظين ايهما اولى من صاحبه في المعنى الذي نقل اليه

ان لفظ مرسح معروف الاستعمال في الشام كلها بمعنى الفسحة الواسعة في القرية يجتمع فيها الناس ايام افراحهم وأعيادهم ليلاً او نهاراً فيلعب اللاعبون ويرقص الراقصون ويتبارى المتبارون حتى ويمثل الممثلون في هذه الفسحة ويجلس غيرهم حواليها من كل الجهات او من اكثرها يتفرجون وقد يكون في القرية عدة فسح كعدد الحارات تقام فيها هذه المراسح (١). والفرق بينها وبين مايسميه الادباء الآن بمسارح التمثيل (عدولاً عن مراسح) انما هو في ان المرسح القديم فسحة من الارض لا بناء عليها والمسرح الجديد عليه بناء. واذا راجعنا تاريخ هذه المراسح او (المسارح) الى اول نشأتها عند اليونان رأيناها كالمراسح الباقية في اغلب قرانا الشامية الى اليوم. والمشابهة ظاهرة كل الظهور بين الحالة الاولى للمرسح والحالة الثانية التي نقل اليها وكذلك الغرض منها. اذن فنقل استعمال لفظ

(١) المرسح في الاصل للفسحة اي المكان ويجوز استعماله لما يقع فيه لانه من ملابساته التي تدرك بادراكه

المرسح الى صورته المستجدة لا غبار عليه — الا ان يرجع الى الحصن الحصين لبعضهم — اعني « لم يرد » او لم ينقل في معاجم اللغة

وهنا نسأل هل نقل لفظ مسرح في المعاجم لهذا المعنى او لشبيه به. الجواب: لا اظن ان منصفاً يجيب بالايجاب عن هذا السؤال. اذن فلنرجع الى اصل معنى الفعل المشتق منه لفظ المسرح

جاء في محيط المحيط سرح المال يسرح سام أي رعى بنفسه. وسرح الراعي المواشي سرحاً اسامها اي ارسلها ترعى. يتعدى ولا يتعدى. وسرح الرجل «سلح». وبوله انفجر. وما في صدره اخرجه وفلاناً ارسله وسرح الراعي المواشي اسامها . والسارح اسم فاعل والماشية مونثهُ سارحة

وأنت ترى ان ليس في معاني الفعل ما ينطبق بل ولا يناسب ان ينطبق على المعنى المشتقة له هذه الصيغة اذن فلكي يصحّ استعمال المشتق يجب ان نستعمل الفعل في معنى لم يرد له استعمال اصلاً فبالاولى أن يكون المعنى المراد لمشتقّه لم يرد ايضاً او لم ينقل فهو اذن ولفظة مرسح سواءٍ من هذا القبيل اي ان كلاًّ منها « لم يرد » لكن لمرسح قدمية وشيوع ليستا لمسرح فضلاً عن ان لفظ مرسح خاص ولفظ مسرح مشترك بين معان كثيرة وبعضها يؤنف من تصورها اذا احضرها الذهن امامه

وأزيد فأقول ان لفظ مرسح من الاوزان العربية القحة وله في الاستعمال مئات السنين شائعاً عاماً في قطر عربي كان ولا يزال جزءًا من صميم البلاد العربية منذ اقدم الايام الى اليوم بل ارجح انه معروف ايضاً في مصر والعراق بالمعنى الشائع والمعروف في طول بلاد الشام وعرضها

وهذا القدر يكفيني الآن. ولعلي أعود الى متابعة الموضوع اذا مكنتني صحتي ورأيت عند الادباء ومحبي اللغة اهتماماً يزيد من رغبتي في الكتابة والسلام

الدكتور صروف معلماً

أنا لا أطمع ان أباري ولا ان أقارب ما كتبه الافاضل في سيرة أستاذي وخلقه ومكانته لغوياً وأديباً . ولكني أحد تلاميذه ، وقد عرفته في صباي معلماً في برج صافيتا وعرفته في فجر شبابي أستاذاً ومعلماً في الكلية الاميركانية ببيروت ثم في المقتطف في تلك الكلية وأخيراً عرفته في مصر في المقتطف أستاذاً معلماً ثم دكتوراً معلماً. فمازلتُ اذن منذ صيف سنة ١٨٦٩ الى ان توفاه الله تلميذاً محبًّا لهذا الاستاذ الخالد ما خلد علمه وأدبه وفضله

وهيهات ان يمحى خلوده الا بامحاء عمراننا الاجتماعي عن آخره بجائحة سماوية تمحو الانسان وأثر الانسان عن هذه الكرة الارضية التي ولد ودرج وترعرع وشبَّ فيها العقل البشري حتى وصل الى الدرجة التي وصل اليها بأحد ابنائها الشرقيين المرحوم الدكتور يعقوب صروف

كان أحلى من شهد العسل في فمي ان أخاطبه شفاهاً وعلى صفحات المقتطف بيا أستاذي العزيز. وأنا أطمع ان يقبل ادعائي الآن اني كنت أحبَّ تلامذته له — ولا أجسر ان أقول اليه — بظاهر بياني او حجتي الآتية وهي: انه كان أحبَّ معلمي اليَّ في برج صافيتا ولم أكن قد أتممت الحادية عشرة من عمري . ثم كان معلمي في الكلية الاميركانية ثم معلمي في المقتطف في الكلية وفي مصر كما أشرت سابقاً . ولا أظن ان تلميذاً آخر غيري عرفه معلماً له في الاحوال الثلاثة التي عرفته بها وفي جميعها . كان عندي هو هو ، المعلم الصالح الذي تعطر النفس محبته وتملؤها « في حضرته وغيبته » سلاماً واطمئناناً فضلا عن الشعور الباطن انه لها موئلا وملاذاً . واذا كنت أنا أعرفهم به فأنا أحبهم له

ما نسيتُ ولا أنسى عدة مشاهد وعبارات شاهدتها وسمعتها منذ ثمان وخمسين سنة لان فيها صورة المعلم يعقوب صروف واعجابي بالمعلم يعقوب صروف

***

اني لا أنسى صورة بيت الشيخ اسبر ضومط في يوم جميل من أجمل أيام الصيف في برج صافيتا — السماء زرقاء لا أثر فيها لقزعة من سحاب ولا لاغبرار ما حتى فوق مياه البحر في الافق البعيد . حائط الدار من الحجر الازرق المختلف الاقدار والاشكال

وفوقه من بعض جهاته ما يحميه من الشوك دون من يحاول الصعود عليه . باب البيت من الخشب السميك السنديان او الجوز — لا أعلم أيهما كان - الا ان ألواحه مختلفة السمك حتى في اللوح الواحد وأظنها لم يُشَذّبها منشار نشار حاذق ولا أزالت خشونتها فارة نجار ماهر . وعليه سكرة ضخمة من الخشب تدخل في طاقة (ثقب) غير نافذة في صدغ الحائط مساميره المشدودة بها الالواح الى العارضتين العليا والسفلى من خشب يسمونها خوابير. وعن يمين الباب الى جهة الجنوب مصطبة تعلو شيئاً قليلاً عن الدار مسقوفة بأغصان شجر الغار وجداراها الجنوبي والغربي قائمان على قوائم مما يُعرَف هناك باسم «قطش» عليها عوارض من مثلها ومغطى على شبه المربعات بين القوائم والعوارض بغرف من أغصان البلّوط والسنديان والريحان ومما حضر خلاف ما ذكرنا

قبال هذه الخيمة في صباح أحد كما أظن الآن أتصوَّر ولداً ينظر الى المعلم يعقوب يكالم المعلم الآخر واسمه المعلم ابراهيم وهو باسم الوجه ضاحك العينين . ان صورة المعلم يعقوب أتخيلها الآن بكل وضوح بخلاف صورة معلمي الآخر وكان سبق حضوره الى برج صافيتا حضور المعلم يعقوب بأشهر وبقي بعده في المدرسة يعلّمنا عدة أشهر ولكني لا أذكر له الآن صورة قبل صورته هذه — اي التي مع صورة المعلم يعقوب — ولا بعدها، وفي الوقت نفسه هي صورة مضطربة في ذهني لا تستقرّ على حال

بعد هذا اليوم ببضعة أيام وفي مثله من الجمال ونقاوة الجو أتصوَّر ولداً راجعاً من جهة ضهر بيت سمعان حيث كانت المدرسة وحيث بيت الشيخ اسبر ضومط على مقربة منها وهو يثب على الطريق وثباً ولا أزال أشعر بهزة سرور لسروره كلّما تخيلت صورته هذه: وسبب سروره كان ان المعلم يعقوب علّمهُ أسماء الحروف الهجائية بالافرنجي ولفظها بما يقابلها من الحروف الهجائية العربية . فما ترك عماً ولا خالاً ولا خالة ولا ابن عم او خال بل ما ترك رفيقاً من أترابه رآه ذلك اليوم الا وأخبره بذلك

مرت أيام عطلة المدرسة الكلية الصيفية ورجع المعلم يعقوب في آخرها ليتم سنته الاخيرة فيها وبقي التلميذ المتوهم في نفسه انه تلميذه يحلم به المرة بعد المرة ويقوم في الصباح باكراً يقصّ حلمه على أمه ثم على كل واحد من أهل الدار وعلى غيرهم من الجيران حتى كثيراً ما أضجر أمه فاضطر ان يسكت خيفة من ضرب مكنستها — انها كانت تضربه أحياناً بالمكنسة لتفثأ من غيظها او غضبها على ثرثرته وفي الوقت نفسه لا تؤذيه وقد لا توجعه أحياناً « وان أوهمته انها توهمت ذلك » ولم تكن تحفل بتطيير المتطيرين بالضرب بالمكنسة — سمعت مرة جارتنا امرأة موسى برهوم تقول لها : أما هو حرام عليك

تضربيه بالمكنسة — فأجابتها أمي : « يا ويلي أخاف يا مرة عمي اذا ضربته بغير المكنسة أذيه أو على الاقل وجهو : وما لي قلب أسمعو يبكي وهوي الله يرضى عليه اذا حس على شيء ما يرضيني ما يعملو »

السلام عليكم يا أستاذي العزيز ورحمك الله فانك انت أنت الذي تثير أشجاني « وما أحلى أشجاننا هذه » بتذكري ما أذكره الآن من محبة الام الفاضلة واشفاقها ولولاك لكانت هذه التذكارات امحَّت من خيالي ولكنها تخلدت بالتفافها حول صورتك الخالدة التي كانت في ذهني والتي سيخلدها تدوينها في مقتطفك المحبوب الخالد الى ما شاء الله

بعد سنة من هذه التذكارات التي مرت سمحت أم جبر لابنها وحيدها ان يفارقها الى مدرسة عبيه الاميركانية رغم انكار كل نساء برج صافيتا عليها ان تسمح له يتغرب عنها الى قرية تبعد ثلاثة أيام عن قريتها وأرجح ان أكثر ما دعاها الى سماحها لابنها بالذهاب الى مدرسة عبيه — التي كانت في ذلك الزمان أبعد من أبعد البلدان النائية التي يتغرب اليها أبناء تلك القرية اليوم — هو إعجابها بالمعلم يعقوب وتهذيبه

هناك بدأت أسمع عن معلمي وأعرف عنه ما لم أكن عرفته من قبل فزادني ما عرفته محبة واحتراماً فوق ما كان له قبلاً مراراً . وآخر الامر وصلت الى ما كنت بدأت أحلم به وأتشوَّف اليه في السنة الثانية من اقامتي في مدرسة عبيه الاميركانية اي الانتقال منها الى المدرسة الكلية في بيروت المدرسة التي أخذ منها معلمي علمه وكان قد انطبع في ذهني ان لا معلم فوقه « ولم يتغير هذا المطبوع بعد »

في سنة ١٨٧٢ في شهر اكتوبر تمت لي أمنيتي بانتقالي الى الكلية السورية الانجيلية في بيروت بعناية المرحوم الدكتور صموئيل جسب رجل الفضل والنبل وكرم الاخلاق نفساً وأرومة وبعناية زوجته الفاضلة رحمها الله رحمة واسعة فانها كانت في فضلها وطيب عنصرها خليقة بالمرحوم زوجها وأكثر منه عناية واهتماماً بي وبانتقالي الى الكلية

وفي سنة ١٨٧٣ تحققت لي أحلامي الذهبية في الحادية عشرة فاني رأيت فيها المعلم يعقوب أستاذاً في الكلية الاميركانية ومعلمي فعلاً لا توهماً حلواً كان أولاً أضحوكة صبيانية التفكه بها ولاسيما بعد ان مرت السنون عليها

بقيت ثلاث سنوات تلميذاً لأستاذي ومعلمي في الكلية لا أشكو من شيء الا انه كان كأنما هو يغيرني بأن تلامذة الصفوف المتقدمة كانوا — أخذاً بظاهر كثرة ترددهم على غرفته ورفع الكلفة في معاشرته ومرافقته ان في داخل صحن المدرسة او خارجاً عنه — اكثر قرباً اليه مني . ولكني لما صرت منتهياً اي في صف السنة الرابعة فهمت ما لم أكن

افهمه وأنا ابن السنة الثانية لاني وجدت نفسي حينئذ في الحالة التي كان عليها معه أبناء ذلك الصف الذين مروا عليه قبلي

تركت المدرسة سنة ١٨٧٦ ولكني بقيت تلميذاً له لم تفارقني عنايته فأرسل الي الى برج صافيتا أول عدد ظهر من المقتطف فانتقلت من التلمذة بواسطة المدرسة الى التلمذة بواسطة المقتطف وما زلت تلميذاً له فيه الى شهر يوليو الماضي سنة ١٩٢٧ وهنا أقول: اني ما قرأت له نقداً ولا جواباً عن سؤال من كل السؤالات المختلفة في كل ما كان يخطر على بال سائل من مختلف الاقطار العربية وعلى اختلاف درجة علمهم وأدبهم في معظم الخمسين سنة المارة الا رأيت نفسي تبعاً له لا اقول الا ما قال في كل ما كنت درسته درساً خاصاً وأستفيد من علمه كما يستفيد التلميذ في كل مسألة كانت خارجة عن دائرة بحثي: وان بالنظر الى تفاصيلها: كأكثر مسائل العلوم الطبيعية بل في نفس مسائل اللغة — المسائل التي كنت وجهت اليها معظم أوقاتي مؤخراً — وفي كل ما يترك للعقل مدى للجولان فيها وابداء رأيه من غير ماضرورة للتقييد بالمنقول عن بصريين او كوفيين مثلاً، كانت أحكامه ببداهة فطرية كأحكام أكبر البيانيين او الفيلولوجيين المعاصرين

لا يزال عندي ذخيرة من هذا الاستاذ العزيز منذ ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤ أتعوذ بها كلما دجا ليل مظلمة او تباعد عن قلبي مؤمل — هذه التعويذة هي كتاب من المرحوم — حفظ بعناية لم أتمنَّ لها — يملأ صفحتين ونصف صفحة بخطه الدقيق الواضح «كان» كأخلاقه بحيث لا يشقُّ على بصر ولا تنبو عنه عين. أحب ان أنقل من هذا الكتاب او التعويذة ما يدل على «معلمية» هذا المعلم وبعد نظره أولاً. وعلى حبه لتلامذته سواء كانوا في المدرسة الصغرى ام كانوا في مدرسة المجتمع الكبرى ثانياً. وعلى انه يعرف الفضل ويعترف به لذويه ومستحقيه ثالثاً. قال رحمه الله:

« ولكن مصيبتنا كبرى وخرقنا أوسع من ان يلئمه واحد او اثنان وحسبك دليلاً ان الصين والهند وكل بلدان المشرق تئن الآن من وطأة الغربيين ولا مناص لها او ينقلب الدهر فينخر أرومتهم سوس الادعاء والعجرفة ويصفو للمشارقة فيرتعون في رياض العلم والعبارة وهذا ما نحن ساعون فيه جهدنا وباذلون دونه النفس والنفيس وانّا وان لم ننظر بأعيننا تملُّص المشرق من عبودية المغرب الا انا نراه بعين الايمان عن بعد ونحييه — وقال — « وكان فيه ولا يزال درس مهم لي ولغيري ايضاً » — وأبو ... ليس من الاغبياء ولا أظنه يمنعك سؤالك اذا وقع عليه في حينه . وان فعل . فالعز عند رسوم الاينق الذلل

« وفي الارض منآى للكريم عن الاذى   وفيها لمن خاف القلى متحوَّلُ

وما أنت أول من اتبع نهاه وعصى هواه فأ كثر الآن من الدنانير فهي تسهل كل امر عسير » . وقال ايضاً يوصيني بأحد تلاميذه — « أرأيت شاباً اسمه....هاجر حديثاً الى القطر المصري وهل تعرف شيئاً من امره ؟ اذا رأيته وقدرت ان تساعده بيسير من النقود اذا احتاج فما تفعله معه تفعله معي وأنا أوفيك اذا عجز »وقال في ختام الكتاب: اهد سلامنا واحترامنا لكل الاصحاب والمعارف ولا سيما لصاحب المحروسة وصاحبي الاهرام الفاضلين . قد ساءنا جداً ما جرى للاهرام ولكن :

لولا اضطرام النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب نشر العود

فان صاحبي الاهرام العظيمين لو قدرها السوريون قدرهما لصاغوا لهما تيجاناً من الذهب . هذا ولك مني ألف سلام أخوك يعقوب

وأنا اقول وأفتخر بقولي انه معلمي كان ولا يزال وهذا الكتاب يذكرني بغيره من الكتب التي كان يرسلها اليّ الى طرابلس فحركتني الى المطالعة وشجعتني على الكتابة. بل هي نبهتني الى ما كنت غفلت عنه من اهمية لغة اجنبية لزيادة معارفي : وكنت قد اطرحت هذه الفكرة جانباً ورميت بمعرفتي القليلة باللغة الانجليزية عرض الحائط. ولكني لما انتقلت من مدرسة حمص الاميركانية الى مدرسة طرابلس في اواخر فبراير (شباط) سنة ١٨٧٧ وجدت ان لاغنى لي في توسيع معارفي عن درس هذه اللغة اقله لاستطيع فهم لغة العلم والفلسفة المودعة في مؤلفاتها لا لاخطب ولا لاكتب فيها : وكان المنبّه لي الى هذه الحقيقة المقتطف وبيانه

كنت في طرابلس اراجع المقتطف فلا ادع واردة ولا شاردة تفوتني فيه وأنعم درس كل ما يكتب فيه . ولكني وجدت ان منزلتي في عيون اهل الادب والفضل من وجهاء الطرابلسيين الكرام « ووجهاء طرابلس هم ادباؤها وهم علماؤها ايضاً » تقتضي ان تزيد معرفتي عما تحتويه مقالات المقتطف ولا يتمّ لي تحقيق ذلك الا ان ازيد معارفي الضعيفة جداً في اللغة الانكليزية فأقبلت على ذلك بكل ما فيّ من نشاط ورغبة سنة كاملة — اخبط في تلك اللغة لنفسي بنفسي خبط عشواء وأفهم معاني الفاظها بعيني لا بأذني وسمعي — قبل ان صرت افهم ما في تلك المؤلفات من العلم والحكمة التي كان قد بدا يروج سوقها حينئذ وكان المقتطف اول من بدا يروّجه في مجلة علمية في معظم البلدان العربية ولا سيما سورية

اذكر اني بعد ذلك بمدة كتبت للمرحوم استاذي مقالة في تفسير الاحلام فجاءني كتابه يقول تنشيطاً لي — (وحقاً كان الكتاب اعظم منشط لي) — ما اخجل من

دعواي إذا ذكرت معناه — وكافأني على تلك المقالة بأن قدّمها الى المجمع العلمي العربي الاول في بيروت وقبلتُ فيه لاجلها عضواً مراسلا وقد فقدت هذه المقالة وأسفاه عليها وشُغلت عن اعادة كتابتها الى ان لم اعد استطيع ذلك

وقد كتبت مقالة اخرى موضوعها التعب وسوء الاخلاق ففُقدت ايضاً وكان نصيبها من مديحه نصيب مقالة الاحلام . أما تأثير الكتابين فيَّ فأترك تقدير ذلك لمن يطلع على مقالتي هذه ومهما قدره فقدر فأنا ما نسيت ولا انسى حسن اثرهما . ما اعظم تأثير المعلم الصالح في نفوس تلاميذه وما اعظم ما يستفيدونه من قدوته ولعله اضعاف ما يستفيدونه من علمه

انا لم اقصد بمقالتي هذه — مادح نفسه يهديك السلام — انما انا مصدق بها على ما كتبه الافاضل في المقتطف ومصادق عليه بما كتبته عن تذكاراتي في صبوتي وشبابي وأيام كهولتي ومدة تسع سنين ايضاً بعد الستين من عمري

مالي وللتنصح لقومي باختيار المعلم الصالح ولا سيما في المدارس الابتدائية اولا ثم المعلم الصالح الاديب في المدارس العالية ثم المعلم الصالح العالم في الجامعات وما يقاربها من الكليات التي تُعِدُّ ذوي المواهب للاختصاص بما ولدوا ويسروا له

يكفيني اني وفيت ديناً عليَّ بشكري المرحوم الدائن وباعترافي بفضله ودينه عليَّ مما لم استطع وفاءه في حياته فليرحمك الله يا استاذي العزيز وليرحم كلَّ المعلمين امثالك من الذين كانوا قبلك وسيكونون من بعدك آمين ثم آمين

اميركي واميركاني
بحث في النسبة

— ١ —

أستاذي العزيز الدكتور صروف

خطر في بال تلميذي وصديقي العزيز ن . ش وهو ولله الحمد من شيوخ الادباء وأعلام الكتاب والمعربين ان يسابقنا نحن المشتغلين ببعض علوم اللغة فسلكت معهُ مسلك الثقة المطلع على مبادي الفيلولوجيا ومباحث الفيلولوجيين أو مسلك المتخصصين للابحاث الصرفية على شاكلة المجتهدين لا المتابعين ونسيتُ أنهُ متخصص بالادب والبلاغة والتعريب وأن هذا التخصص لم يترك لهُ مجالاً نظيري لمتابعة هذه الابحاث التي لا تهم الجمهور حتى ولا معظم الادباء

الاَّ أني حين فطنتُ الى ما غاب عني ابتداءً كتبت لهُ أني أترك لهُ الكلمة الاخيرة وتركت لهُ فعلاً تلك الكلمة . وكنت أظن أن الأمر واضح لا يحتاج فيهِ الى كثير من عمق البحث وبعد النظر ليعلم أن النسبة الى أميركان أميركانيّ لا يجوز فيها غير ذلك مرَّت المباحثة أو المناقشة على نظر بعضهم فأراد أن يستجلي الحكم القطعيّ فيها فكتب الى المقتطف محل ثقتنا يستفتيهِ . وكان من جواب أستاذي الدكتور صروف ماكان من تفضيل أميركيّ على أميركاني . وشفع تفضيلهُ بالتعليل الفيلولوجيّ كما هي عادتهُ أن لا يرمي الكلام على عواهنهِ . ولكنّ الامر التبس على أستاذي في هذه المرة وسببه ظاهر لان هذا البحث ليس من خصائصهِ وان كان يعرف من مبادىء الفيلولوجيا وقواعدها العامة ما لم يخطر على بال معظم معلمي الصرف الذين حفظوا أرجوزة الشيخ ناصيف أو شرح الشافية المطوَّل غيباً ولا غرابة في ذلك

ومع احترامي الشديد الذي لا أشدَّ منهُ لاستاذي مقروناً بمثلهِ من المحبة كتبت اليهِ ما محصلهُ أنْ ما لك يا أستاذي وللحكم في هذه المسألة . أنها خارجة عن دائرة اختصاصك وأنت أعلم الناس بما للمتخصص من دقة النظر وما يترتب عليها من صحة الحكم في المسائل التي خصص لها كل أيام حياتهِ . احكم في فلسفة الاجتماع في مبادىء الكيميا الاولية عن آخرها وفلسفتها النظرية وتسمياتها الاصطلاحية ورجّحْ ما شئت أو أحكم في الوسطاء الروحانيين وعلل تعليلاتك العقلية الجميلة الراهنة فيهم وفي هؤلاءِ قراء الافكار المدجّلين وكاشفي أسرار الغيب من الحازين واشباههم من المشعوذين والمتنبئين . أحكم أحكامك في

كل ذلك بل في كل ما هو من باب ابحاثك الخاصة التي نطأطىء فيها رأسنا اجلالا لحكمك حالما نتثبت انهُ صدر منك حكم . ودع لي مثل هـذه المسائل التافهة التي استحي اذا طبلت وزمرت لها . هذا مآل ما كتبتهُ الى استاذي لما لي عليهِ من دالة التلميذ المحب ولعلي تشددت في التلويم اكثر مما كان ينبغي ان اتشدد

واني على ما كان مني لنادم   واني الى اوس بن لام لتائب

وهنا اتصدى لبيان ان تعليل استاذي الفيلولوجي في غير موضعهِ واليك ذلك

ان النسبة الى اميركا اذا حسبنا الألف في آخرها كالف صحراء وكيميا هي اميركاني او اميركاوي او اميركي باثبات الهمزة او بقلبها واواً او بحذفها وحذف الألف قبلها تخفيفاً. هذه الثلاث صور — والأخيرة منها على خلاف القياس — يجوز لك ان تملل عن اختيارك للاخيرة منها بالخفة او بحسن وقعها في السمع او بالعلتين معاً كما اشار استاذي . وهنالك صورة رابعة جائزة في اميركا وهي ان تحسبها توهماً (ويهوّن لك هذا الحسبان ان اللفظة علم اعجمي) من باب صنعاء وبهراء فتقول اميركاني كما قالوا صنعانيّ وبهرانيّ . من هذه الصور الاربع يجوز اختيار الاخصر والاوقع في السمع استحساناً على خلاف القاعدة . ولكنّ النسبة الى « اميركان » لا يجوز فيها الا صورة واحدة أعني اميركانيّ . وليس لهُ فيها للخيار أصلا

ومع أني كتبت الى أستاذي ما كتبت لم أشأ فتح الباب خيفةً من ملل القراء وحياء من اناس قدرت وجودهم لا يرون لي ان اطبل وأزمر في جنازة حامية والميت مسألة تافهة باعتبار اثرها المادي العملي

والحق يقال ايضاً اني لم اكن اتصور ان يكون لما كتبهُ استاذي الأثر الذي رأيتهُ لهُ بعد ذلك اثراً ماديًّا عمليًّا . وما زلت اتصور ان المسألة تتذبذب بين اقلام الكتاب مدة ثم ترجع الى حكمها الواجب اي يفطن الأدباء الى ان النسبة الى اميركا غير النسبة الى اميركان . ولكن الأمر جاء على خلاف ما قدرتهُ واليكم البيان

ان اسم جامعتنا في اللغة الانكليزية هو The American University of Beirut واختير لها في العربية الجامعة الأميركانية في بيروت وحفرت الصورتان العربية والانكليزية على الزنك ووضع وفقاً لذلك ختم المدرسة الرسمي . لكن بعد ان ظهر افتاء استاذي مدعوماً بالتعليل الفيلولوجي الذي اشرت اليهِ ورأوا ثبات المقطم والمقتطف على استعمال اميركي بدلاً من اميركاني في كل مقام وردت فيهِ هذه النسبة وتابعهما (اعني المقتطف والمقطم) كثيرون بل مال الرأي العام بكليته الى اختيار هذا الخطأ

احتراماً لظاهر حكم استاذي واحتراماً لمكانة المقتطف والمقطم (١) حمل التيار في جملة من حمل اعضاء عمدتنا اعني عمدة « الجامعة الاميركانية العمومية » في وجهتيه فاجتمعت تلك العمدة في احدى جلساتها الاسبوعية ودار فيها البحث في هذا الموضوع وحكم بأكثرية الأصوات انهُ يجب تغيير العبارة من الجامعة الاميركانية الى الجامعة الاميركية

وبناء على هذا القرار المأخوذ بأكثرية الاصوات صدر الأمر الى الخطاط ان يكتب على الرخامة الموضوعة على باب المدرسة — الجامعة الاميركية — فكتبت وحفرت ولم اشعر بها الاَّ وهي ترفع الى مكانها وعليها الاسم كما ذكرت اي الجامعة الاميركية

وبناء على ان لكلام استاذي هذا الأثر الشديد حتى يؤخذ بظاهر حكمه من غير روية ولا تريب رأيت الواجب العلمي يقتضي ان افتح هذا الباب مرة ثانية بعد ان كنت سددتهُ بيدي . وأفتحهُ احتراماً لهُ اي لأستاذي . ولا يخاف القراء اطالة الكلام بعد طول هذه المقدمة فاني اكتفي بالسؤالين الآتيين ومن يتأمل فيهما ويفكر عفواً في الجواب عنهما لا يحتاج فيها اظن الى شرح او برهان يحتاج الى مقدمات عقلية وفيلولوجية . والسؤالان هما :

السؤال الأول

(1) The America College.
(2) The American College.

اذا نقلنا الصورتين الانكليزيتين الى العربية بصورة مضاف ومضاف اليهِ قلنا في الاولى كلية اميركا . وفي الثانية كلية الاميركان . ثم حوّلنا التركيب الاضافيّ في الصورة الاولى الى تركيب تقييديّ اعني صفة وموصوف وقلنا فيهِ الكلية الاميركية فماذا نقول في تحويل التركيب الاضافيّ الى تركيب تقييديّ في الصورة الثانية ؟

السؤال الثاني

كيف ينسب الى الاسماء الآتية :

حمدان . نبهان . زيدان . عدنان . قحطان . ريدان . سمدان . يونان . سريان . افغان . يابان . جرمان . المان . بريطان . انكليكان . اميركان . سودان . رومان . ايران . عجبان . انسان . جثمان

وهنا اسأل من يصحّ ان يوجّه اليهِ السؤال : هل راجعت أيها السيد في نفسك او في كتاب من كتب الصرف فرأيت مسوّغاً يسوّغ ان تكون النسبة الى اميركان اميركيّ ؟ لا تخلط اميركا باميركان فأن النسبة الى الاسم الاول العلم أي اميركا قد يجوز فيها

---

(١) ليعتبر اهل العلم واصحاب الحيثيات المحترمة ما لآرائهم واقوالهم من التأثير في توليد الرأي العام وليتفكروا قبل ان يكتبوا حرفاً واحداً

استحساناً على خلاف القياس اميركيّ .وأما النسبة الى اميركان اسماً للجنس المراد بهِ شعب الولايات المتحدة فلا يجوز فيهِ الا " اميركاني " كانكليكاني وروماني وجرماني والماني وسوداني وايراني وعجياني . ممن عنده نقل عن امام او عن كاتب درس باب النسبة ذوقاً أو تعلماً أنهُ بوجه من الوجوه أو لعلة من العلل أن ينسب الى أحد الاسماء المذكورة أعلاه بحذف الالف والنون فليذكره

وفي الختام أقول

ان كثيرين يتابعون الرجال المشهورين فيعرفون الحق بهم . فهل لمثل هؤلاء المتابعين ان يعرفوا ماذا كان يقول المرحومان الشيخ ناصيف اليازجي والشيخ يوسف الاسير . بل ماذا كان يقول المرحوم الدكتور فانديك والاستاذ الدكتور يعقوب صروف في النسبة الى أميركان

أقول لمثل هؤلاء انظروا الى اللوحة الكبيرة المعلقة على باب بناية المطبعة الاميركانية في بيروت والى المقتطف في سنيهِ الاولى الى حينما ذكر الكلية الاميركانية فأنهُ لم يخطر لهُ قط حينئذٍ أن يقول الكلية الاميركية ولم يخطر في بال المرحوم الشيخ ابراهيم اليازجي الذي كان في بعض تلك السنين يفاتي المقتطف تفلية ليعثر على سقطة نحوية أو صرفية ليقيم أعظم النكير عليها فأنهُ مرّ على الكلية الاميركانية أو المدارس الاميركانية أو ما هو من هذا القبيل في مقالات الدكتور صروف ولم ينبس فيها ببنت شفةٍ . فليعتبر المتابعون

أما ما استهوى أستاذي الدكتور صروف الى استعمال أميركيّ بدلاً من أميركانيّ والاولى أن أقول ان ما هوّن عليهِ أن لا يرفض استعمال أميركيّ في موضع أميركاني رفضاً باتاً فلهُ وجه لا يعلمهُ أستاذي وأعلمهُ أنا لانهُ من اختصاصي دونهُ . واذا اذن أستاذي فسمح لي أن أسوّد صفحات المقتطف ببياض ابحاث كهذه يظنها بعضهم تافهة ولكنها من أعلى المباحث البسيكولوجية سوّدتها في أحد أجزاء المقتطف الآتية

والمعذرة من القراء الكرام عما أطلتُ بهِ من عذر والسلام

عود الى النسبة

— ٢ —

استاذي العزيز الدكتور صروف

هل تأذن لي في هذه المسألة ان اضع رأيي الى جنب رأيك حتى لا يحرم قراء المقتطف وجهتيْ نظر كل منهما تعتمد بالأكثر على سند عقلي فيولوجي وان اقتضى الأمر فعلى سند تاريخي اكثر مما على مجرد سند نقلي يرجع الى قال فلان وقال فلان من الذين تقدمونا لأنهم تقدمونا . وبناء على اذنك استأذن القراء بعرض ما يأتي من التمهيدات الفيلولوجية المؤيدة او التي يمكن ان تتأيد بشواهد الواقع قديماً وحديثاً وأذكرها بغاية ما استطيعهُ من الاختصار وهي :

(اولاً) ان حروف العلة تتبدَّل بعضها من بعض اذا دعا الى ذلك داعٍ من الخفة وحسن اللفظ فتقلب الواو ياء وبالعكس وكلتاهما تقلبان الفاً وهمزةً وبالعكس

ومثل حروف العلة الحركات فانها تبدل بعضها من بعض فضلاً عن اختلاس المشبعة او اشباع المختلسة . وكل ذلك يجري بداهة على اللسان . والعمدة فيهِ حسن الذوق وبداهة عفو الخاطر . والمختار عندي ان يبقى ما الف على الألسنة او دُوّن في كتب اللغة والأدب على ما الف فيهِ الا ان تعرض حاجة فيقاس كل على مثلهِ وينظر بنظيره

(ثانياً) حروف العلة وحروف النون قريبة المخارج ولذلك فقد يقلب احدها نوناً ولا سيما الواو وهو معروف عند الفيلولوجيين ولا يخفى على من تنبه له عندنا والمتأمل يرى ان التنوين في « قاضٍ وواشٍ » هو من باب الابدال هذا . وكذلك « التنوين » في جوارٍ فان النحاة بقولهم ان ياء المنقوص من صيغة منتهى الجموع تحذف ويعوض عنه بالتنوين قد اعترفوا بالابدال ضمناً

ومن هذا القبيل تنوين الترنم فانهُ عبارة عن ابدال الحركة المشبعة وهي حرف المد نوناً وعلى عكسهِ لو تأمل متأملٌ اشباع الحركة في القافية فانه عبارة عن قلب التنوين حرف مد

وهنا اشير الى ما يقع على الألسنة من قولهم « لِسَّا ولسَّنْ . ولمَّا ولمَّنْ . وما وماهو » ولا يخفى خائف من « الهاء » فانها اخت الهمزة ومعروفٌ ان وضع كل منه

موضع صاحبتها لغة لبعضهم جرى عليها المتنبىء في قوله

لهنَّكِ اولى لائم بملامةٍ وأحوج ممَّن تعذلين الى العذلِ

وأما انقلاب الواو والياء همزة اذا وقعتا بعد الف فيكاد يكون مطرداً وقدفطن له الصرفيون وقرروه في قواعد علمهم بل حسبهُ بعضهم واجباً في مثل قائل وبائع. ومما لا يجوز الغفلة عنهُ هو جواز مد المقصور وقصر الممدود فانهُ من قبيل الابدال او القلب. وأعود فأقول ان جميع ما اشرنا اليه او معظمه يرجع فيه الى البداهة وحسن الذوق لايختص بزمان دون زمان ولا هو مما يحلل لقوم ويحرم على آخرين

(ثالثاً) الواو والياء وبالأخص الياء في مثل عين ويوم فيها ثلاث لغات كانت هذه اللغات قديماً ولا تزال محفوظة الى اليوم وهي

(ا) اخلاص الفتح وهي لغة المتأدبين وعموم اهل الشوف والمتن من اقضية جبل لبنان وأخاف ان اشمل في هذا الحكم لغة جميع اللبنانيين

(ب) قلب الياء الفاً فتقول عان ويام وهي لغة معظم اهالي شمالي سوريا ومما يجب ملاحظتهُ انهم عند الاضافة الى الضمير ولا سيما « ياء » المتكلم يرجعون الى تحقيق الياء والواو

(ت) الامالة فيها وهي لغة دمشق وحمص وحماه وأهل فلسطين وشرقي الأردن اجمالاً ولغة مصر والعراقيين على ما ارجح

وأما الياء بعد الكسرة فالأكثر فيها تحقيق الكسر ولكنَّ بعضهم يميلونها كثيراً او قليلاً نحو الفتح اذا وقعت في المقطع الأخير نحو قاضي ونحو حليب وسليم ولا سيما اذا اتصلت بياء النسبة. ولا تزال هذه اللغة او اللهجة غالبة في مدينة زحلة وما جاورها وقد اشرت اليها لأنها تفسر لغة من قال في النسبة الى ثقيف ثقفي والى حنيفة حنفي والى عليّ وعديّ علويّ وعدويّ فانهم فتحوا ما قبل الياء « وفقاً لهذه اللغة » فصارت الياء (وهي ساكنة) بعد فتحة فأمالوها الى الألف كما امالوا ياء «عين» ثم تركوا الاشباع

وارجح انهم اولاً حذفوا الألف في حنفي وثقفي وعلوي خطاً لا لفظاً كما حذفوها في « هذا وذلك » اسميْ اشارة وكما في سموي ومع الايام والتكرار اصبحوا يحذفونها لفظاً وخطاً

وهذه الجارية التي جرت في حنفي وثقفي وعلوي هي الآن تتطور في «سماوي وسموي» فان الاكثرين اصبحوا يكتبونها بدون الف. وحذاق الكتاب يضعون الفاً قصيرة فوق الميم بدلاً من الفتحة ويشيرون بها الى وجود الألف على ان كثيرين منا اصبحوا الآن

يقولون البركات السموية اي يحذفون الالف لفظاً وخطاً . وجاز لهم ذلك لان المعنى لا يلتبس على احد والذهن ايضاً لا يتوقف فيه حائراً ماذا يقدر . لكن لو قال قائلنا بركات سماوية (بألف اطول من العصا) كان في جانب الصواب والاصالة كما يكون من يقول

بكل قريشيٍّ اذا ما لقيتهُ سريع الى داعي الندى والتكرم

التي تطورت اولا فيما ارجح الى قراشي بحذف الالف الممالة خطاً ثم الى قرشي بحذفها لفظاً وخطاً

(رابعاً) ان قلب الواو قبل ياء النسبة الى نونٍ وإن لم يفطن لهُ (بحسب الظاهر) سيبويه ولا من تقدمهُ كالخليل ويونس لم يفت علامة اليمن وأديبها صاحب كتاب وصف جزيرة العرب. قال هذا الامام العلامة وجه ٥٥ من كتابهِ المشهور — وينسب الى صنعاء صنعاني مثل بهراء وبهراني لأنهم رأوا النون اخف من الواو . وخولان لا تنسب اليها الا على بنية الأصل صنعاوي وكلهم يقولون في ساكن الكدراء كدراوي ولا يقولون كدراني

اما الفيلولوجيون فلا يشكون في هذا الابدال ولكنهم يقولون انه يجري بداهة على الالسنة وأنهُ غير لازم ولا مطّرد فان قلت انّا اذا جارينا هؤلاء الفيلولوجيين اذن لا يعرف قائل بعدها ماذا يقول

قلت بل هو كسائر امثاله من الجائزات نعتمد المألوف المتعارف فيها ولا نعرّج على خلافهِ الاّ عند الحاجة . وازيد فأقول ان ما يجري بداهة على الألسنة قلّما يتغبّى على سامعٍ وقلّما يخالف المتعارف

زعم بعض الأدباء في صنعاني وبهراني وامثالها انهُ من قبيل الشاذّ ولا اعلم على ماذا او على من اعتمد في قولهِ هذا فانهُ لم يعتمد على سيبويه ولا على الخليل ولا على الاعاهش كما أؤكد لانهُ لم يُنقل عن واحدٍ منهم في طول وعرض كتاب سيبويه ولأنه ليس واحدٌ من هؤلاءِ ولا من غيرهم يخرّج كلام الرسول على الشاذّ وقد ورد في حديث سلمان ان لكل امرئٍ جوانيًّا وبرّانيًّا فمن اصلح جوّانيّهُ اصلح الله برانيهُ . فهل يشكُّ هذا الأديب بصحة الحديث ام يقول انه منسوب الى جو البيت وهو داخلهُ وزيادة الألف والنون للتوكيد كما قال ابن الأثير !

أمّا انا فعندي انهُ منسوب الى جوّا وبرّا اللفظتين المحفوظتين الباقيتين على الألسنة في الشام كلها وفي مصر والعراقين كما ارجح وهو من باب صنعاني وبهراني . وان سلمنا بقول ابن الأثير فالنسبة من قبيل جسدانيّ وروحانيّ وهي نسبة سريانية فيها علامتا

نسبة على ما بينهُ العلامة الملفان المرحوم المطران يوسف داود في كتابهِ اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية . ومن بابها عبَّاداني نسبةً الى عبادان (المدينة المعروفة) وعبادان بدورها نسبة الى عبَّادابن الحصين الذي بناها او نزلها اولاً (راجع عبادان في معجم البلدان) وقول ابن الأثير ان الالف والنون للتوكيد هو احالة على مجهول لا يرضاها احد ممن شاموا المبادىء الفيلولوجية المسلم بها عندكل علماء اللغات في وقتنا الحاضر

(خامساً) ذكر ياقوت في معجمهِ ان كان ثلاث عشرة مدينة كل منها باسم الاسكندرية ومنها الاسكندرية قرية على دجلة بازاء الجامدة بينها وبين واسط خمسة عشر فرسخاً ينسب اليها احمد بن المختار ابو بكر الاسكندراني

(سادساً) ينسب الى الأعلام مطلقاً بدون قيد ولا شرط . اعلام الأشخاص او الأجناس وأعلام المدن والقرى والعشائر والقبائل والملل والنحل والولايات والممالك الخ ولا ينسب الى الصفات المشتقة . فقاضي وهاشم مثلاً من حيث هما اسما فاعل لا ينسب اليهما للعبث فاذا سمينا بهما قلنا حينئذ الأسرة القاضوية والهاشمية وأصبح المنسوب اليهِ صفة تجري عليه كل احكام الصفة فهو اذن بهذا الاعتبار لا يجوز النسبة اليه. على انهُ اذا اخرج عن الوصفية الى العلمية « كالاسكندرية والنبطية » صار حكمه كحكم هاشم وعامر او القاهرة والحديثة اعلاماً وينسب اليهِ كما ينسب اليها . انتهت التمهيدات

لنرجع الآن الى النسبة الى الاسكندرية ولنبحث في الصور الجائزة لنا فيها ثم ايها افضل وأول ما نقوله ان الاسكندرية من حيث هي صفة مشتقة من اسكندر لا يجوز النسبة اليها لأنه من قبيل العبث لاجتماع نسبتين في الاسم الواحد من جهة واحدة ولكن الاسكندرية المدينة المعروفة اصبحت اسماً علماً ينسب اليهِ كما ينسب الى كل الاعلام المنقولة عن الصفات

اذا فهم هذا لم يبقَ علينا الا ان ننظر في الأوجه الجائزة لنا في النسبة اليها وهو الغاية من كتابة هذه المقالة فنقول يجوز لنا ما يأتي

(اولاً) نحذف التاء تشبيهاً لها بتاء الوحدة ونزيد ياء النسبة ونقول اسكندريّ كما قلنا (او قالوا) اميّ وعديّ وغنيّ . وفي هذه الصورة ما فيها من الثقل وتوسلاً الى ازالتهِ نقلب الياء واواً ونقول اسكندرويّ كما قلنا غنيويّ (توهماً) . ولما كان لا يزال هناك ثقل وسببهُ الكسرة المشبعة بين الفتحة اوّلاً والكسرة ثانياً دفعتنا بداهة الذوق والخاطر الى ابدالها او قلبها فتحة مشبعة وقلنا اسكندراويّ كما قالوا في زيني زبانيّ وفي غنيوي (المتوهمة) غنياوي ويجوز ترك اشباع الفتحة . اما في غناويّ فترك الاشباع

فيه من الخفة وحسن الوقع في السمع ما ترى في « غنوي » بخلاف زباني" واسكندراوي فان الاشباع فيهما ولا سيما في الثاني الطف جداً وأشهى وقعاً في السمع من قولك اسكندروي" بترك اشباع الفتحة ومن اسكندريوي" بابقاء اشباع الكسرة ممالا فيها اوغير ممال. وهنا نقول انا صورنا ابدال الواو بالياء والكسرة المشبعة بالفتحة المشبعة . وترك الاشباع تارة دون اخرى وفي اسم دون غيره كأنما هو يتطور في درجات وأعمال فكرة وروية والواقع انه يجري على السنتنا وكان يجري على السنة من تقدمنا ببداهة الفطرة وعفو الخاطر تارة بهذه الصورة وأخرى بتلك الى ان غلبت صورة من الصور وألفت لسبب غالب أُلف

(ثانياً) يجوز لنا ان نقلب الواو في اسكندراوي نوناً كما قلبناها في صنعاوي وبهراوي وروحاوي ودستباوي وكما قلبناها في برّاني وجواني

(ثالثاً) يجوز ان ننسب الى الاسكندر رأساً ونقول مثلاً قال ابو بكر الاسكندري . ولما كانت القرينة الحالية الواقعية تمنع ان يكون المقصود بالنسبة اليه هو الاسكندر اقتضى مجازاً ان تكون النسبة الى شيء من معلقاته او ما يلابسه ملابسة جائزة واضحة وهي ملابسة الباني الى المبني" الواضحة والمعروفة أتم معرفة تاريخية . وهذا عملياً يعادل قول من يقول (لأنه غفل عن المجاز) انا نحذف ياء النسبة ونضع بدلها ياء اخرى غيرها لأنه لا يجتمع علامتا نسبة . والحقيقة هي على ما ذكرنا اي انا نسبنا مجازاً الى الاسكندر وأردنا النسبة الى متعلقه أي المدينة التي بناها وعلى فرض انا نسبنا الى الاسكندرية المعروفة فيكون حذف الياء للتخفيف لأنها ليست بعد ياء نسبة بل اصبحت بعد العلمية حرف هجاء كياء صقلية وهي اذا حذفت فانما تحذف للتخفيف ومع ذلك لو نسب ناسب فقال صقلاوي" او صِقِلاني" لكان لا يزال في متنزّهات ومقاصف النسبة العربية ووفقاً لروحها التي هي اقرب الى المنطق والقياس الفطري البديهي" من اللغات الغربية المهذبة التي نعلمها

(رابعاً) يجوز ان نعتبر الهاء في الاسكندرية هاءً مهموسة ومن اصل الكلمة « وهي كذلك عند التحقيق الفيلولوجي » والهاء المهموسة هي الف بين الف المد والقصر فان اعتبرناها مقصورة قلنا اسكندريوي" وان اعتبرناها ممدودة قلنا اسكندرياوي والصورة الثانية مفضلة على الأولى لأنها اخف على اللسان وأحلى في السمع . وهنالك الطريقة العلمية التركية اي نترك هذه الهاء على صورتها ونقول اسكندريهوي" ونقرأها كأنما هناك الف قبل الواو او بدونها وهذه الصورة من النسبة أي العلمية التركية يظهر حسنها في النسبة الى

مثل حلبية وبغدادية وجعفرية وشرقية وغربية ومطرية وطره ولا سيما في مثل معده وكره وثوره وذره وقد تنبهت الى هذه النسبة بما جاء للدكتور الأديب محمد جميل الخاني في مقالته الشائقة في « اللغة العلمية » في مجلة المعهد الطبي العربي

الخلاصة

او تلخيص كل ما ذكرناه مما دعا الى هذه المقالة هو انه في النسبة الى الاسكندرية يجوز لنا ان نقول فلان الاسكندري وفلانة الاسكندرية من باب المجاز لانا نسبة الى الباني وأردنا متعلقهُ وهو المدينة المبنية

ويجوز لنا ان نقول فلان الاسكندراني والاسكندراوي وفلانة الاسكندرانية والاسكندراوية وهذا ما يهمنا . وأنا واستاذي الدكتور صروف متفقان في جواز الصورتين اسكندري واسكندراني ولكننا مختلفان في التعليل والتعليل هو المهم وهو المقصود بالذات في هذه المقالة وله ما بعدهُ

اما التعليل الذي اذهب اليهِ فهو انا حذفنا التاء من اسكندرية توهماً انها « تاء وحدة » وقلبنا الياء الأخيرة واواً للخفة وقلبنا الياء التي قبلها الفاً وأثبتناها كذلك وكان يجوز لنا حذفها كما نحذف الياء الأولى في علي وغني وعدي لولا ان حذفها يؤدي الى الثقل وهو الذي نتجنبهُ ويؤيد قولنا انا سمعناهم يقولون اسكندراوي ولم نسمعهم يقولون اسكندروي لا بفتح الراء ولا بكسرها . وهذه الواو في اسكندراوي يجوز فيها لتقارب مخرجي الواو والنون ان تقلب نوناً في كثير من الصور للخفة وحسن الوقع في السمع ويفعل ذلك ببداهة الذوق كصنعاوي وصنعاني وروحاوي وروحاني

ونفس هذه النتيجة كان يمكن ان نصل اليها فيما لو كنا اتبعنا مذهب القوم وطرائق تعليلهم ويمنعني من بيان ذلك الآن خوف الاطالة والتكرار وكفى ما كان منهما حتى الآن

وأما التعليل التاريخي الذي ورد لاستاذي فاذكره بنصّهِ وهو « أن عامة العرب لما استوطنوا هذا القطر بعد الفتح سمعوا كلمة « الكسندريان » فلم يفطنوا الى ان النون التي في آخرها هي نون النسبة لأنَّ العامة تسمع الكلام وتحفظهُ وتستعملهُ من غير تعمل فالحقوها بياء النسبة على مقتضى مألوفهم فقالوا الاسكندرانيّ وشاع هذا الاستعمال الخ »

فما نظنهُ يحتمل التجريح الذي يستحقهُ كلام أستاذي حتى من الوجهة التاريخية فأنّ أبا بكر الاسكندراني منسوب الى الاسكندريَّة القرية التي على دجلة لا الى الاسكندرية المصريَّة الروميَّة

وعلى فرض أن تلك القرية حفظت ما حفظتهُ اسكندريَّة مصر فماذا نقول في قيساراني نسبة الى قيساريَّة او في طبراني نسبة الى طبريَّة بل في الصالحاني نسبة الى الصالحيَّة وفي حاصباني نسبة الى حاصبيَّة ودير عطاني نسبة الى دير عطيَّة وكيف نعلل هذه النون في دير عطاني خصوصاً ؟

وأما القول « أن العامة تسمع الكلام وتستعملهُ من غير تمثّل » فأفهم منهُ أن أستاذي أراد ان يقول انعامَّة العرب الذين استوطنوا القطر المصري بعد الفتح (وكانوا من صميم اهل الجزيرة العربيَّة وأفصح فصحائها) لا يُعوَّل على استعمالهم فان كان ما فهمتهُ صحيحاً فما كان أحبَّ اليّ لو فطن أستاذي الى الحقيقة العقلية والفيلولوجيَّة والتاريخية أيضاً وهي ان سيبويه واساتذتهُ الخليل ويونس وأمثال هؤلاء الاعلام ومن تقدم عليهم أو تأخر عنهم لم يضعوا القواعد للعامة وانما أخذوها عنهم وان كل قياس او قانون او قاعدة يضعها علماء اللغة للغة لا يجوز ان تخالف البداهة العامة وان وضعوا مثل ذلك فلا يثبت الا بقوة والى حين أيضاً ان لم تكن القوة التي تسندها ثابتة. ومع ذلك لا تموت اللغة المبنيَّة على البداهة بل تبقى جنباً الى جنب مع التي تسندها القوّة

وآخر ما يصعب عليّ ان اعترض بهِ على استاذي هو قولهُ « ويقتضي القياس حذف النون » لما فيهِ من التسرُّع وغض النظر عن المعقول والمنقول معاً . ولا أعلم على ماذا أو على مَن استند في حكمهِ هذا

كذلك كنت أود لو ترك اتلانتيكي وباسيفيكي على حالها لم يقلقل هذين البحرين العظيمين فان « يك » فيهما مثل « يق » في ارغاطيقي وموسيقي ومثل «يز» في انكليزي و «يك» في انكليكاني وعهدي بهِ يرى الحكمة في بقاء ما كان من المألوف على ما كان. ولعمري فاني لا اخاف ان اقول ان بداهة من تقدمنا من الكتاب اقرب الى الحقيقة من اجتهاد بعض المجتهدين المتسرعين في وقتنا الحاضر اعني القرن العشرين لأن اجتهاد هؤلاء البعض لا يسندهُ الا علمهم الاعتيادي . وأما بداهة اولئك فمن ورائها علم واجتهاد كل من تقدمهم . وبعبارة اخرى ان البداهة العامة الموروثة خلفاً عن سلف منذ اربعة عشر قرناً الى اليوم وهي واحدة عند ابناء العربية وعند ابناء الانكليز والفرنساويين لا ينبغي ان يستخفّ بها ولا يصح العدول عن مقتضاها الاَّ بشهادة العلم البديهية التي هي اقوى منها او بشهادة حسن الذوق البديهي الذي لا عاري فيهِ والمعذرة من القراء الكرام على ما أطلت بهِ وكان يمكن فيهِ الاختصار والسلام

ارتقاء اللغة العربية

واستعدادها أيضاً للارتقاء

— ١ —

اللغة العربية ليست بنت القرن السابع المسيحي ولا بنت القرن السادس أو الخامس. ولا هي أيضاً بنت القرن السابع قبل المسيح بل هي أقدم عهداً من ذلك بكثير

هي الأخت الكبرى للعبرانية والارامية ان لم تكن أمهما وعلى ما تصرح به تواريخنا العربية المكتوبة وتقاليدنا المروية جيلاً بعد جيل خلفاً عن سلف هي لغة العاديين الاراميين تجار حضرموت وسبا وعمان واليمن ولغة تمدنهم السامي السامي . لغة وصلت الى درجة من الارتقاء جعلت مثل صاحب حصن تيماء منذ الف وأربعمائة سنة ونيف قبل اليوم يقول

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضهُ فكل رداء يرتديه جميل
وان هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس الى حسن الثناء سبيل

وجعلت أيضاً مثل بن الطثرية اعرابيًّا جافيًا لا يرى الا شيحة او قيصوماً وقلما يأكل الا ضباً أو يربوعاً أكلت رجليه الأبارق والأماعز بل أكلت الابارق والاماعز رجله يقول ما يحسده على رقيه كثيرون من شعرائنا الحاليين شرقيين وغربيين

بنفسي من لو مرّ برد بنانه على كبدي كانت شفاءً أناملُه
ومن هابني في كل شيء وهبتهُ فلا هو يعطيني ولا أنا سائله

ويقول

فياخلة النفس التي ليس دونها لنا من اخلاء الصفاء خليل
ويامن كتمنا حبه لم يطع به عدوّ ولم يؤمن عليه دخيلُ
اما من مقام اشتكي غربة النوى وخوف العدى فيه اليك سبيل
فديتك أعدائي كثير وشقتي بعيد وأشياعي اليك قليلُ
وكنت اذا ما جئت جئت بعلة فأفنيت علاتي فكيف أقولُ
فما كل يوم لي بأرضك حاجة ولا كل يوم لي اليك رسولُ

وجعلت ابن الدمينة أيضاً وهو اعرابيٌ مثله يقول

لك الله إني واصل ما وصلتني ومثن بما أوليتني ومثيبُ
وآخذ ما أعطيت عفواً وانني لأزور عما تكرهين هيوبُ
فلا تتركي نفسي شعاعاً فانها من الوجد قد كادت عليك تذوبُ
وإني لأستحييك حتى كأنما عليَّ بظهر الغيب منك رقيبُ

ولا ينقص عنهما في الرقة والبيان وجودة السبك قول الصمَّة عبد الله بن قشير بن كعب اعرابيٌ آخر مثلهما في جفاء العيش وخشونته

حننتَ الى ريا ونفسك باعدت مزارك من ريّا وشعبا كما معا
فما حسنٌ أن يأتي الامر طائعاً وتجزعَ ان داعي الصبابةَ أسمعا
قفا ودِّعا نجداً ومن حلّ بالحمى وقلَّ لنجدٍ عندنا أن يودَّعا
بنفسي تلك الارضُ ما أطيب الرُّبا وما أحسنَ المصطافُ والمتربَّعا
وليست عشيَّات الحمى برواجع عليك ولكن خلِّ عينيك تدمعا
ولما رأيت البشر أعرض دوننا وحالت بنات الشوق يحننَّ نزَّعا
بكت عيني اليسرى فلما زجرتُها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

هذا مثال مما قاله هؤلاء الاعراب في الترفق والغزل ولا ينقص عنه في البيان وحسن السبك ما قالوه في الفخر والحكم والرثاء وما الى ذلك واليك ما قاله النهشلي

انا محيُّوك يا سلمى فحيينا وان سقيت كرام الناس فاسقينا
وان دعوت الى جُلى و مكرُمةٍ يوماً سراة كرام الناس فادعينا
أنا بني نهشل لا ندعي لاب ولا هو بالابناء يشرينا
ان تبتدر غاية يوماً لمكرمة تلق السوابق فينا والمصلينا
وليس يهلك منا سيد أبداً الا افتلينا غلاماً سيدٌ فينا
إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا ولو نسام بها في الأمن أغلينا
إني لمن معشر أفنى أوائلهم قيل الكماة ألا أين المحامونا
لو كان في الألف منا واحد فدعوا من فارسٌ خالهم إياه يعنونا

الى آخر القصيدة

ومثل قول النهشلي قول الآخر من قصيدة له قال :

اذا أنت لم تنصف أخاك وجدته على طرف الهجران ان كان يعقل
ويركبُ حدَّ السيف من أن تضيمهُ اذا لم يكن عن شفرة السيف مرحل

وكنت اذا ما صاحبٌ رام ظنتي　　وبدَّل سوءًا بالذي كنت أفعلُ
قلبت له ظهر المجن فلم أدم　　على ذاك إلا ريثما أتحولُ
اذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد　　اليه بوجهٍ آخر الدهر تقبلُ

ولو أطعت هوى النفس واستشهدت بكل ما تراه أهلاً للاستشهاد به لملأت جزءًا بل أجزاءً من الهلال الأغر على اني لا أطاوعها وأستأذن القراء في ذكر الأبيات الآتية فقط لامرأة من نسائهم وهي المعروفة بليلى الأخيلية قالت :

يا أيها السدم الملوّي رأسه　　ليقود من أهل الحجاز بريما
أتريد عمرو بن الخليع ودونه　　كعب إذن لوجدته مرؤوما
ان الخليع ورهطه في عامر　　كالقلب ألبس جؤجؤاً وضريما
لا تغزوَنَّ الدهر آل مطرّف　　لا ظالماً أبداً ولا مظلوما
قوم رباط الخيل وسط بيوتهم　　وأسنّةٌ زرقٌ تخالُ نجوما
ومخرّق عنه القميص تخاله　　وسط البيوت من الحياء سقيما
حتى اذا رفع اللواء رأيته　　تحت اللواء على الخميس زعيما

دعنا من الشعراء والمنظوم من أقوالهم وانظر الى الأحاديث المروية عن الرسول فان هناك منها نحواً من عشرة آلاف حديث كانت في أوائل المئة الثانية للهجرة متداولة على الألسنة أو مودعة في بطون الدفاتر وكلها من الكلام الذي أقرت له العرب والعجم انه من الكلام الذي لا يفوقه ان لم نقل لا يماثله كلام في فصاحةٍ وبلاغة

اللغة العربية في ما بين سنة مئة واربعين ومئة وخمسين كان فيها من كتب الأدب مثل كتاب كليلة ودمنة والدرة اليتيمة وغيرهما من ترجمة او من تأليف ابن المقفع الكاتب المشهور وكانت فيها قبل ذلك مثل رسالة عبد الحميد الكاتب المشهور للكتاب وكتب الحجاج الى قواده وعماله وقبلها الرسائل التي تبودلت بين الامام عليّ ابن أبي طالب وبين معاوية والخطب التي يعزوها ابن قتيبه الى ذلك الامام والى أصحابه من الصحابة والتابعين واثبتها في كتابه المشهور والمعروف « الامامة والسياسة »

كل هذه المكتوبات وامثالها وهي كثيرة كانت من الفصاحة والبلاغة بحيث لا تزال الى الآن من النمط العالي الذي ينسج على منواله والغالب الذي يضرب على مثاله

اللغة العربية في الفاظها المفردة من أغنى لغات العالم قديماً وحديثاً واظن هذا من المسلم به عند العلماء من الغربيين والشرقيين وذلك للسبب الذي اشرنا اليه آنفاً اي انها كانت لغة اعظم فرع لأعظم امة قامت في العالم الأمة الآرامية العادية تاجرة العالم قديماً

وناشرة التمدن السامي في اوربا وافريقيا ذلك التمدن العظيم الذي لا تزال آثاره ماثلة في محافل حضرموت واليمن ، وفي قصور بابل واشور وهياكلها الخالدة على الدهر بل ازيد واقول وفي برابي مصر ايضاً واهرامها لا تزال فتنة الناظرين ودهشة العلماء والمفكرين

وليس غنى العربية في كثرة الفاظها فقط بل غناها العظيم الذي لا يكاد يماثل انما هو في اتساع اشتقاقاتها وكثرتها ونفوذ القياس واطراده في أغلبها ان لم اقل فيها كلها ، وما أظنها تنقص عن اليونانية او اللاتينية مصدر غنى اللغات الأوربية ومقلع رخام الفاظها العلمية والفنية

هذه لمحة دالة على غنى اللغة العربية وسبب غناها وكل علماء اللغات الذين اتقنوا العربية ووقفوا على دقائقها وغناها في مفرداتها واشتقاقاتها يوافقون على ما قلناه بل قد نقل عن بعضهم أنه قال ما معناه: ان كان ثمَّ للغة حق أن تعيش وتبقى فالعربية أحق لغة أن يكون لها هذا الحق . وأنا اقول صدق هذا العلامة الاميركاني وقد عاشت اللغة العربية المضرية الى الآن الفاً وخمسمائة سنة وابناؤها اليوم يكادون يفهمون اشعار شعراء الجاهلية والمخضرمين كما يفهمون أشعار أبي تمام والبحتري والمتنبي أو كما يفهمون أشعار أبي العلاء والشريف الرضي ويفهمون أشعار هؤلاء الفحول المتقدمين كما يفهمون أشعار شعراء المئة السادسة والسابعة بل هم يطربون بشعر الشعراء الاندلسيين وموشحاتهم ويقلدونها في نظمهم كأنها نظمت البارحة . ولعلَّ همَّ كثيرون من خيرة شعراء عصرنا الحاليين بقية القرن التاسع عشر ومن سبقهم من شعرائه أرباب الشهرة التي طبقت مصر والشام والعراق بل العالم العربي عن آخره، هم اكثر هؤلاء ان لم أقل كلهم كان أن يحتذوا خطوات مَن تقدمهم من شعراء اليتيمة كالمتنبي وأبي فراس الحمداني ومن خلفهم كالمعري والشريف الرضي ومن خالف هؤلاء من شعراء المئة السادسة والسابعة. بل أعظم مدح لشاعر من أغلب شعرائنا الحاليين الحاضرين أن تنعته بالمتنبي الكندي أو بالمتنبي المغربي أو بابن نباتة المصري أو بابن النبيه أو بابن سهل الأندلسي وأمثال هؤلاء . ومعنى ذلك أن اللغة العربية لغة حية كانت ولا تزال فلماذا يشكونها البعض ومما يشكون منها يا ترى ؟

من يشكو منها وهل هو محق في شكواه ؟

— يشكو منها بعض الشعراء شعراء المنظوم والمنثور

اذا كان همُّ اكثر هؤلاء الشاكين أو من هم في طبقتهم أن يقلدوا شعراء الحماسة أو شعراء اليتيمة بل شعراء المئة السادسة والسابعة في الفاظهم وعباراتهم وتركيبهم بل في أغلب تشابيههم ومجازاتهم وكناياتهم فكيف تحق لهم الشكوى من اللغة أنها تغص بأفكارهم

وتضيق دائرة الفاظها وتراكيبها عن دائرة خيالاتهم وتصوراتهم الشعرية

وأنا أقول لهؤلاء الشاكين يا هؤلاء ما أنصفتم لغتكم ولو أنصفتم لسمعتم هاتفاً يهتف بكم أن وسعوا دائرة خيالكم وتصوراتكم عن ابتكار لا عن تقليد وعن روية لا عن ترجمة وأنا الضمين لكم أن العربية تتسع أمامكم كما اتسعت لمن تقدمكم وأنكم تجدون في الفاظها المتولدة والتي يمكن أن تتولد على القياس (لفاهم الاشتقاق والقياس) ما تطلبون وفوق ما تطلبون

رأيت البعض يدعون الملل من القوافي التي تتشابه وتتوازن ، وبعض هؤلاء يقولون تقليداً (على ما أظن) واتباعاً بالشعر الأعمى أي الشعر الذي لا قافية له فيالله من أمثال هؤلاء فانهم على ما هو أولى أن يقال فيهم غلبهم حب التقليد على حسن ذوقهم الطبيعي فجعلهم يرون المحاسن على غير صورتها الحقيقية جعلهم يرون القافية العربية الجميلة الرنانة تثقل على أسماعهم ويشكون منها بل تطرف بعضهم وهم قلائل فعدلوا الى طرق غير مطروقة والى صور غير مألوفة لا عندنا ولا عند الغربيين كل ذلك عن حسن ظن على ما أظن ببعض أساتذتنا الغربيين الذين قالوا في القافية العربية ما قالوه عن غير تحقيق أو قالوه متسرعين في الراجح

استطراد

كان تسارع الى ذهني ان متابعة بعض أدبائنا لبعض الاساتذة الغربيين غريبة في بابها لا نظير لها وكدت أحسبها من جملة الأدلة التي تقيمها احياناً او نقيم مثلها على انحطاطنا وفساد اخلاقنا وتربيتنا . ولكني عدت ففكرت انا كثيراً ما نتعصب لأساتذتنا الوطنيين وتتابعهم فيما يذهبون اليه لا نسألهم دليلاً على ما يقولون ولا نطالبهم بحجة فيما يعتقدون بل قد كان مثل هذه المتابعة معروفاً عند من تقدمنا في ازمان عزنا واستقلالنا عن الغربي

واليك ما جاء في هذا الصدد لشيخ من كبار شيوخ الأدب رحمه الله بعد ان ذكر ما ذكر من فضل العلم ومنزلته من التلميذ وحقوقه عليه مانصه :

« ولا ينبغي ان يبعثه أي التلميذ معرفة الحق له أي للمعلم على قبول الشبهة منه ولا يدعوه ترك الاعنات له على التقليد فيما اخذ عنه فانه ربما غالى بعض الاتباع في عالمهم حتى يروا ان قوله دليل وان لم يستدل وان اعتقاده حجة وان لم يحتج فيفضي بهم الأمر الى التسليم له فيما اخذ عنه . (الى ان قال) ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلاً يناظر في مجلس حفر وقد استدل عليه بدلالة صحيحة فكان جوابه عنها ان قال هذه دلالة فاسدة

وجه فسادها ان شيخي لم يذكرها وما لم يذكره الشيخ لا خير فيه فأمسك عنه المستدل تعجباً ولأن شيخه كان محتشماً » اه

والظاهر ان هذا غير مقصور علينا فقد اخبرني احد الأساتذة الافاضل الذين كانوا في نيويورك مدة ودرسوا في جامعتها المشهورة واخذوا دبلوماها ان القوم هناك يحترمون جداً النقول عن الأساتذة واهل العلم المشهورين ويقبلون المنقول عنهم من غير ان ينظروا في صحته او في عدمها ويكاد يكون المنسوب الى استاذ من اساتذة الجامعة عند احد تلامذتها او غيره كالمنسوب الى الشيخ الذي ذكره العلامة الماوردي عند تلميذه الموحى اليه. ولنرجع بعد هذا الاستطراد الى ما كنا فيه

لا شك عندي ان بعضاً من الأساتذة الغربيين وبعضهم ممن كان من اساتذتنا طعنوا في القافية لما رأوا ما لها من المقام عندنا وزعموا انها تؤدي الى السآمة والملل وسواء كانوا يعتقدون اولا يعتقدون صحة ما قالوه وسواء ايضاً قالوه بعد الفكرة والروية او قالوه على الخيل مع التسرُّع والعصبيَّة فأنا اعتقد ان ما قصد اليه شاعرنا العربي بقوله — ايها اللائم سلمى — يصدق على اكثر هؤلاء الطاعنين ويشك في انهم ممن جمعوا بين التحقيق والانصاف — وقليل هم الذين هم من هذه الطبقة — ومع هذا وذاك نقول لمثل هؤلاء الشاكين من يلزمكم ان تنظموا اكثر من عشرين الى اربعين على قافية واحدة . واذا شاقكم البحر الذي تنظمون عليه وخفتم من ملل تكرار القافية فأمامكم المخمَّسات او الموشحات الأندلسية واذا امتدَّ بكم نفس موضوع قصيدتكم الى الغربيات (نفرض ذلك فرضاً) فلماذا لا تقسمون الموضوع الى ابواب وفصول كما تبوّبون وتفصلون المنثور وحينئذ تجدون مندوحة عن ملل القافية وعن ملل الوزن او البحر الواحد ايضاً اذا كنتم تشكون منه كما تشكون من القافية ولم أسمع من شكا من هذا القبيل

وكان حالها في الحكم واحدة لو احتكمنا من الدنيا الى حكم

وأظن السبب أن احد الغربيين لم يشكُ من ذلك كما شكا بعضهم من القافية . ولولا ان أعظم شعراء الغربيين انكليز وفرنساويين ينظم أحياناً مئات الأبيات على وزن واحد لرجحت أنا كنا سمعنا الشكوى من البقاء على الوزن الواحد كما سمعناها على تكرار القافية الواحدة

وغاية ما أقوله ولاسيما من جهة استعداد اللغات الغربية لبيان المعاني والتخيلات الشعرية وما اليها نظماً ونثراً اني أشكُّ في أن اللغة الانكليزية وهي في الوقت الحاضر أغنى لغات أوربا تستطيع ان تمثل افكار المتنبي وحماسة المتنبي المعروفة له في مديح سيف الدولة بألفاظ أفصح من الفاظه وعبارات ابلغ من عباراته او تحدث في النفس لو اخذت على عهدتها

تصوير تلك المعاني ما تحدثه تلك القصائد من القشعريرة والنشأة في نفس قارئها

ولا أشك ايضاً بل أنا على يقين ان المعاني والحكم المودعة في كافوريات هذا الرجل لا تستطيع اللغة الانكليزية على تصويرها بعبارة ابلغ من عبارتها العربية . فان قلت ان المتنبي وابا العلاء المعري والبها زهير لم ينظموا مثل معاني شكسبير ولا تقابل معانيهم بمعانيه ولا طريقتهم بطريقته . قلت انت هنا تقابل الرجل بالرجل لا اللغة باللغة فشكسبير غير المتنبي وغير أبي العلاء وغير البها زهير وعلمه غير علمهم وطريقته وموضوعه غير طريقتهم وموضوعهم ولا شك عندي ان شكسبير كان اوسع تخيلاً وأعلم بالناس واتباع الناس وبما يجول في خواطر كل طبقة من طبقاتهم اكثر من البها زهير ومن المتنبي ومن أبي العلاء ايضاً ولكن هذا لا يعني ان اللغة الانكليزية في اتساعها واستعدادها للترقي كانت وستكون أفضل من اللغة العربية وان نسبتها اليها في ذلك هي كنسبة اتساع خيال شكسبير ومعرفته بأطباع الناس وعواطفهم وانفعالاتهم الى اتساع خيال المتنبي ومعرفته كذلك

افرض ان مثل شكسبير الآن ومثل المتنبي كذلك توارد خاطر كل منهما على معنى واحاط كل بذلك المعنى كاحاطة صاحبه به وجاء هذا بعبارته الانكليزية وذاك بعبارته العربية فأي العبارتين تظن كانت تكون افصح وابلغ — الحكم في هذا نتركه توهما لعارف باللغتين

دعنا من الفرض والحكم على المفروض وهلم بنا الى الموجود والواقع فعلاً وبيانه : اطلع احد كبار اساتذة الانكليز وجهابذة كتابهم على ديوان البهاء زهير واحاط بمعانيه كل الاحاطة وفهمها بمساعدة المرحوم رزق الله حسون تمام الفهم ثم ترجم ذلك الديوان الى الانكليزية . ولا شك ان غيره وقف على هذه الترجمة كما وقفت انا عليها منذ سنوات فليحكم الاديب المطلع على الترجمة بين اللغتين وليقل لنا هل الالفاظ الانكليزية وتراكيبها هي اشف عن تلك المعاني من اللغة العربية واكثر منها ايجازاً واقتصاداً على انتباه السامع

اخترت ديوان البهاء زهير لأن الرجل شاعر فكاهي اعتيادي لم يغرق في تخيلاته ولا في تصوير انفعالاته وجل ما جاء به ان لم يكن كله من المألوف المعتاد بل عبارته تنحو في أغلب أحوالها منحى لغة العامة ألا انها عبارة أديب عارف بصرف اللغة ونحوها لا يتجوز ما يتجوزه العامة من ثلم زوايا الالفاظ الصرفية ولا يخل بالاستواء الذي يقتضيه المطار الاعرابي ومثل هذه اللغة ليس في ترجمتها الى لغة أخرى ما يعجز المترجم وتغص به اللغة المترجم اليها

ثم اصل اللغة الانكليزية غير أصل اللغة العربية في اطباعهم وعاداتهم وحاسياتهم

ومجاري أفكارهم وغيرهم أيضاً في علمهم واختباراتهم وبالتالي في تخيلاتهم وفي قابلياتهم واستعدادهم . واعترف أيضاً من غير استحياء أن في خاصة الانكليز وأهل الأدب منهم الآن أفراداً أرقى من خاصة المتكلمين بالعربية في استعدادهم وعلمهم معاً . كل ذلك مسلم به عندي وعند غيري كما أرجح ولكني لا أسلم إن استعداد اللغة الانكليزية لاتساع وتصوير الأفكار والتخيلات الشعرية حقيقة أو مجازاً هو في أصله وطبيعته أعلى وأرقى من استعداد اللغة العربية له . ينقصنا استعداد الاشخاص لا استعداد اللغة وارتقاء الافراد المتكلمين بها لا إرتقاؤها لأن إرتقاء اللغة إنما هو بارتقاء أفرادها وانحطاطها بانحطاطهم أو بتالفهم ومتى وجد الشخص المستعد ذو المخيلة الواسعة الشعرية بين أدباء العربية وجدت فيها تلك التخيلات الشعرية السامية والجميلة لاينقصها شيء مما تراه لها من الرونق والطلاوة والبهاء في لغة من اللغات الغربية

وجد الريحاني فوجد وادي الفريكة . وجد جبران جبران فوجد من العواصف وأمثالها في كتابته ومن لا تأخذه نشأة وإنما نشأة وهو يقرأ كتابات هذين الكاتبين الشعرية والنثرية . أنا أعرف الريحاني شخصياً واعرف ان تمكنه من اللغة الانكليزية يفوق تمكنه من العربية وان ما استمده من لغة كبار كتاب الانجليزية في الفاظهم وعباراتهم هو اضعاف ما استمده وما يستطيع أن يستمده من كبار كتاب العربية ولكن جمال وادي الفريكة في العربية ليس هو دون جمال ذلك الوادي فيما لو كتبه الريحاني باللغة الانكليزية على ما اعتقد . مع أنه لو كان استعداد الانكليزية في أصل فطرته ارقى واقوى من استعداد العربية لكان حسن وادي الفريكة فيما لو كتبه الريحاني بالانكليزية عشرة اضعاف حسنه في العربية

ماذا تقول ايها الريحاني العزيز وقد قرأت ما قلت اني اعتقده عن جمال وادي الفريكة في العربية وانك لو كتبته بالانكليزية لما زاد جمال المكتوب في هذه عن المكتوب في بلده كما ينبغي أن يزيد فيها لو كان استعداد اللغتين في أصله واحداً بداعي كثرة من كان يمكن ان تستعين بهم من كتّاب الانكليزية الذين سبقوك وقلة من استعنت بهم من كتاب العربية بل ارجح ترجيحاً يقارب اليقين انك لم تستعن بأحد ا.ا لانه لم يقله بين كتّاب العربية الغابرين مثل كتّاب وادي الفريكة أو لأن كتبهم تولاها الضياع مع الايام او ابتلعها دجلة في جملة ما ابتلعه من كتب مكاتب بغداد

يا حضرة جبران افندي جبران أنا وان لم اعرفك ودعني اقول بعض المعرفة واظن أنك في آداب اللغتين كما ذكرت عن الصديق الريحاني ولذلك أسألك هل كانت تكون

عواصفك فيما لو كتبتها بالانكليزية في شـدتها ضعفي ما هي عليه في العربية ولا أقول اضعاف « على ما كان ينبغي » بل هل كانت تكون مثلها مع شيء من الربا الذي يستحقه رأس مال اللغة الانكليزية المتحول اليك من بنوك كبار كتابها

وما قلته في الكتابة الشعرية اقوله في الكتابة الادبية في كل انواعها على العموم اي اننا نحتاج الى الكتّاب المستعدين بالفطرة اولاً وبالاكتساب ثانياً مع التفرغ للكتابة وترك الاشتغال في غير ما تجردنا وتفرغنا للكتابة فيه . فانه ــ على ما اعتقد ــ إذا وجد الكتاب على هذه الشريطة في العربية وجدت فيها ولاشك تلك الكتابة البليغة السامية التي تراها الكبار كتاب الانكليز والفرنساويين . وبعبارة أخرى ليوجد في كتّاب العربية من هم في استعدادهم الفطري والمكتسب مثل كارليل ومكولي مثلاً او مثل فكتور هيوكو وريتان فتوجد فيها كتابة هؤلاء في السمو وبلاغة البيان

وجد ابن خلدون فوجدت مقدمته وليست كتابات امثاله من الفرنساويين والانكليز في هذا الموضوع بأبلغ من كتابته في المقدمة . وُجدَ الامام الغزالي فوجد الاحياء وبقية مؤلفات هذا الامام التي لا نظير لها في فصاحة الفاظها وبلاغة عباراتها مع الدقة والتحقيق اللذين لا يتهيئان الكاتب ما لم تكن اللغة التي يكتب فيها على درجة بالغة من الارتقاء والاتساع

وجد الامام الزمخشري وخطيب السري الفخر الرازي فوجد تفسيرها والكتابان آية من آيات البلاغة وهيهات ان يكون لكتاب في مثل موضوعهما مثل مالهما من رائع الفصاحة وسمو البيان والبلاغة ،ولو كان المؤلف من طبقة رينان عند الفرنساويين او من طبقة مكولي او كارليل عند الانكليز

ومثل تفسير الامام الفخر الرازي تفسير العلامة ابي السعود محمد العمادي قاضي السلطان سليمان الكبير العثماني فان واقفاً على هذا التفسير لا يتصور أن تقوى لغة غير العربية على الاتيان بتفسير أفصح منهُ او ابلغ

وجد المرحوم جورجي زيدان وجميل المدور فوجدت روايات الاول التاريخية ووجد حضارة الاسلام في دار السلام للثاني كتاب لو وزن بالدرر لرجحها . ولو تفرغ المرحوم زيدان للروايات التاريخية واستعان ببعض من كتّاب الروايات الذين تقدموه لكانت روايات المرحوم زيدان لا تنقص في فصاحتها وبلاغتها وتلاحم نسجها ودقة تعبيرها عن كتاب دوماس الشهيرة ان لم تكن زادت عليها طلاوة وبلاغة عبارة على

حين ان المرحوم زيدان لم يكن كاتباً روائياً بل كان في فطرته فيلسوفاً مفكراً وانما عدل الى كتابة الروايات لانه رأى ان سوقها رائجة وطلابها كثيرون يزيدون عشرات المرات عن طلاب التاريخ والفلسفة والاعتبار

وجد الدكتور صروف فوجدت روايتاه فتاة مصر وفتاة الفيوم ووجد ترجمة الحرب المقدسة وسر النجاح والدكتور صروف ليس هو روائياً في فطرته ولا تفرغ لكتابة الروايات انما عنَّ له ان يودع بعض صفحات المقتطف شيئاً من فلسفة الاقتصاد وقوة العقل والمال وشر المضاربات وما تؤدي اليه ليستفيد الشبان من فلسفته ويحذروا من شراك المضاربات المنصوبة أمامهم بصورها الكثيرة الجذابة ومع ذلك جاءت روايتاهُ في شكلها وموضوعها كأحسن ما كتب في بابهما من الروايات الغربية مبنى ومعنى ولقد قرأت الروايتين حين صدورهما ولا ازال الى اليوم اشعر بنشأة استحسان تقوم في نفسي كلما ذكرت اسميهما

وجد المرحوم البستاني والدكتور فانديك فوجدت ترجمة سياحة المسيحي التي تكاد تكون ابلغ من الاصل او كأن الكتاب وضع وضعاً ولم يترجم ترجمة

وجد المرحوم فارس الشدياق فوجد كتاب الواسطة وكتاب كشف المخبأ وسائر كتاباته الأدبية البالغة من الحسن والطلاوة مبالغها ولعل كل من ذكرنا لم يكونوا في استعدادهم الفطري من الطبقة الأولى فيما كتبوا فيه وبعبارة أخرى لم يكن استعدادهم للكتابة في المواضيع التي كتبوا فيها أو ترجموها نظير استعداد أكابر كتاب الانكليزية والفرنساوية في تلك المواضيع هذا فضلاً عن أنهم لم يتفرغوا لما كتبوا فيه كما تفرغ من نقابلهم بهم من أكابر كتاب القوم الذين نقابل لغتنا على لغاتهم ومؤلفاتنا على مؤلفاتهم

وجد المرحوم الدكتور شميل فوجدت كتاباته في الموضوع المستعد له في فطرته ومع أنه لم يستعن بغيره من كتاب العربيـة المتقدمين عليه جاءت كتاباته في فصاحة ألفاظها وبيان مبادئـها وبلاغتها كافصح وأبلغ ما جاء في ذلك الموضوع لأكابر علماء الفرنساويين والانكليز

وصلت في نسخ هذه المقالة الى هنا ثم اتفق أن أحدهم فتح « الورد الصافي » الذي صدر حديثاً وقرأ علينا فيه مقالة المرحوم الشيخ اسكندر العازار موضوعها « قيمة الاشياء » فقلت في نفسي لو أن المرحوم الشيخ اسكندر تفرغ وهو في الاربعين من عمره لهذا النوع من الكتابة الذي اشتهر فيه دكنس عند الانكليز ومارك توين عند الاميركان فأي ذخيرة بل أي كنز كانت صارت كتاباته في العربية لمن يأتي بعده من

الكتاب . ان المقالة المشار اليها أسالت في مواضع كثيرة منها دموع الكثيرين منا ان لم أقل كلنا لفكاهتها وتدفقها بحسن الدعابة وخفة الروح. وهنا يصح أن نقول كما قلنا سابقاً:
وجد المرحوم اسكندر العازار فوجدت كتاباته في خطبه التي رن صداها في الآفاق وأطربت نوادي الأدب من سمع ومن قرأ ولا تزال في كثير من مواقفها ومباحثاتها تضحك الشكلى ويغفل منها الحزين عن أحزانه والشجي الصابي عما شجاه وأصباه
وما تنسى — فلا ينبغي لأحد ان ينسى — كتابات المرحوم قاسم أمين في كتابيه تحرير المرأة والمرأة الجديدة فانهـا من الطراز العالي فوجد وقد كان المرحوم قاضياً فيلسوفاً لا منشئاً كاتباً فكيف بكتابته فيما لو كان مفطوراً على الادب وحسن البيان وتفرد للكتابة فيما فطر عليه . وأرجح أيضاً انه لا يذكر ذاكر في مصر المرحوم قاسم أمين الا ويذكر تلميذته المرحومة باحثة البادية ومن يقول ان كتابة سيدة أوربية في سنها وفي الموضوع الذي كتبت فيه هي في البيان والبلاغة او في فصاحة الالفاظ والعبارة أعلى طبقة رحمها الله

(٢)

عود الى الشعر والشعراء

لم اتصدَّ لذكر السابقين المجلين من شعرائنا الذين تفخر بهم العربية الآن في مصر والشام والعراقين لاسباب منها اني أخاف الغفلة عن ذكر من لا يجوز الغفلة عن ذكرهم جهلاً مني بهم أو نسياناً عن غير قصد وهذا ما لا يجوز لي ومما لا أريدهُ أيضاً بوجه من الوجوه ومنها ان أكون قائلاً ما اقوله في شعرهم عن رأي لا عن تقليد . وهذا يقتضيني مراجعة ليست متيسرة لي الآن ولو تيسرت مراجعة دواوين كبار شعرائنا فما يتيسر لي مراجعة دواوين من هم في طبقتهم من شعراء الانكليز لاقابل بينهم واحكم عن يقين في أي المجلي من شعراء الفريقين أشعراء العربية أم شعراء الانكليز
ثم على فرض اني راجعت وقابلت فأخاف ان لا اكون منصفاً اذا حكمتُ ولا اشك ان الحيف يكون واقعاً على شعرائنا ويحقُّ لايٍّ منهم اذا قابلت شعره بشعر تنيسن مثلاً فيان السبق لشاعر الانكليز ان يقول لي ما أنصفتني ولا أنصفت العربية وقد كان يجب عليك ان تفطن لمغزى شاعرنا العربي حيث قال

تقولين ما في الناس مثلك عاشق   جدي مثل من أحببته تجدي مثلي

وأنا أقول جد لي أمة كالأمة الانكليزية اشعر بهـا اني سائد لا مسود وسابق لا مسبوق وعزيز غني لا ذليل فقير وحاكم مسلط نافذ أمره في غيره لا محكوم مسلط

عليه نافذ امر غيره فيه . وجد لي بوسط راق وتهذيب بالغ مستوف كالوسط والتهذيب اللذين كانا لتنيسن وخذ مني بعد ذلك شعراً كشعره فيه خيال كخياله ونخر كفخره وعزة وطموح كعزته وطموحه . نعم جد لي امة ووسطاً اشعر معها كما كان يشعر تنيسن او من شئت غيره من شعراء امته فأجد لك شعراً يقول بلسان حاله عن نفسه

بلغنـا السماء مجدنا وسناؤنا وانـا لنبغي فوق ذلك مفخرا

مساكين نحن أبناء العربية ومساكين هم أغلب شعرائنا الذين ليس لهم ما يفاخرون به الآن الا عظام الأجداد البالية : أين محيطهم من محيط أمثالهم من شعراء الانكليز وأين وسطهم الراقي الذي عاشوا وتهذبوا فيه من وسط أولئك وأين شعورهم الشخصي وشعائرهم القوميـة من شعور أولئك وشعائرهم . واذا كان الشعر ابن الشعور الشخصي والقومي كما يذهبون وكما هو الحق فشتان اذن شتان بين شعر شاعر من أمة غالبة سائدة وشعر شـاعر آخر من طبقته ولكنه من أمة مغلوبة مسودة : كيف بل مئة مرة كيف يستوي شعر هـذين ؟ ومتى استويا أو يستويان ؟ دعوني أنظر الى هذه المسألة من وجه آخر وليعذرني القراء على اشباع الكلام في هذا الموضوع فانه ما زال منذ سنين يجول في خاطري وأنا أتوجع للغتنا وشعراء لغتنا من اعتقاد بعضهم فيها من استهوتهم الأميال والآداب الانكليزية أو الفرنساوية . ولذلك لا أستطيع أن اتركه وقد أمكنتني الفرصة قبل أن آتي على آخر ما يحضرني مما يفش وطاب كربي ويفثأ نوران صدري

لنفرض أن شاعرنا العربي المصري أو السوري عاش في وسط راق كالوسط الانكليزي وغيبنا عنه فكر السائد والمسود والغالب والمغلوب أيجوز لنا أن نتصور أن تكون البيدعية التي فيه من حيث الشدة والاتساع كالبيدعية التي في الانكليزي من هذه الحيثية ؟ كلا لا يجوز ثم كلا وكلا فان خمساً وأربعين مليوناً بل مئة وخمسين مليوناً (انكلترا واميركا) لا يكون أنبغ نابغ فيهم في الشعر والأدب أو في الاقتصاد والسياسة أو في الالهيات والفلسفة مساوياً لانبغ نابغ في إثني عشر مليوناً أو قل خمسة عشر مليوناً (أهل مصر والشام). نعم يتشابهان في أن كلا منهما أنبغ نابغ في أمته ولكنهما لا ينبغي أن يتساويا في شدة النبوغ واتساعه ولنضرب مثلا على ذلك

ان مشتلة تبغ فيها خمسة وأربعون مليون شتلة لا تكون الشتلة أو الشتلتان المنقاة منها في علوها وثخنها وعدد أوراقها وسائر الصفات المؤذنة بميزة فرد عن آخر وتفوقه عليه كالشتلة أو الشتلتين اللتين تنتقيان من مشتلة ليس فيهـا الا اثني عشر مليون شتلة وهكذا فقل في مشتلة (أو دندالة) من التوت أو التين أو الزيتون أو التفاح أو أو الخ

بل المشتملة التي هي أكثر أفراداً يظهر فيها النبوغ الاعظم في شدته واتساعه

والارجح ان يكون الحال في القوميات الانسانية كالحال في المشاتل اذا تساوت القوميات بحسب الظاهر في سائر المحيطات الحسية والمعنوية ماعدا كثرة العدد فان القومية التي هي أكثر عدداً يكون عدد الافراد النوابغ فيها أكثر وفي الوقت نفسه يكون التفوق في شدة النبوغ أو البيدعية حيث يكون التفوق العددي

معلوم الفرق بين محيط الفرد منا ومحيط الفرد من المتكلمين بالانكليزية . معلوم كذلك الفرق بين بيدعيتنا وبيدعيتهم وبين ارتقائنا العلمي والسياسي والفلسفي الخ وبين ارتقائهم فانهم يفوقوننا في جميع ذلك ويفوقوننا أيضاً في كثرة عدد الأفراد ولعل نسبتنا اليهم في ارتقاء المحيط العلمي والأدبي والسياسي هو كنسبة واحد الى ثلاث أو أربع وأما في كثرة العدد فنسبتنا اليهم كنسبة واحد الى عشرة فان المتكلمين بالانكليزية في بريطانيا والولايات المتحدة نحو من مئة وخمسين مليوناً وعليه فاذا كانت لغاتهم في استعدادها الفطري أو الاولي أرقى أو أعلى من استعداد العربية فينبغي إذن أن يكون الفرق الحالي في آداب اللغتين واقتدارها على تصوير المعاني الشعرية وقل أيضاً المعاني الأدبية والسياسية والاقتصادية والفلسفية بالغاً أعظم مبالغه ولا يجوز المقابلة بينهما والمتصدي للمقابلة لا يرى غير السخرية وتزوية الفم والانف وينظر اليه كما ينظر الى من يتصدى لمقابلة عمران القاهرة مثلا بعمران بعض العزب في ضواحيها أو بمقابلة عمران بيروت وجمال قصورها بعمران إحدى قرى البقاع وجمال بيوتها المبنية بالطين وبعض الحجر

وان كان استعداد اللغتين الفطري أي لغتنا ولغتهم واحداً فلارتقاء محيطهم عن محيطنا ولزيادة عدد المتكلمين بلغتهم عن عدد المتكلمين بلغتنا كان يجب أن تكون آدابهم وشعرهم وفلسفتهم في حسنها وبلاغة بيانها وما الى ذلك أعلى من آدابنا وشعرنا وفلسفتنا ثلاث مرات الى عشر مرات . ولو كان الفرق بالغاً هذه الدرجة ما كان احد على ما اظن يجسر على الوقوف بجانب لغتنا والانتصار لها بل كان رجل مثلي يتصدى لكتابة ما كتب يحسب مدخولاً في عقله وأقل ما كان يليق به من النعوت أنه جاهل مغفل لا يدري ولا يدري انه لا يدري. ولما كانت نتيجة كلا الغرضين هي مما لا يسلم به ولم نرَ من عالم ولا من أديب مفكر حتى من نفس الغربيين قال به فالفرضان اذن — أي ان لغتهم باستعدادها الأولي أرقى من لغتنا أو مساوية لها — جديران بالشك وعدم القبول وبالضرورة يكون ما نحاول اثباته وقد تعنينا له في هذه المقالة ما تعنيناه هو الاجدر بالقبول والثقة أي أن لغتنا باستعدادها الأولي أو بفطرتها الأصلية هي أرقى من الانكليزية أو الفرنساوية

وأعلاها بلاغة وأبينهما بياناً في الشعر والخطابة وما الى ذلك من العلوم الدينية والاجتماعية والفلسفية ولكنها تحتاج الى الخدمة والى من يخدمها من الافراد النوابغ والبيدعيين ويحتاج هؤلاء اذا ظهروا أن يتفرغوا لما خلقوا له وأن تنصرف اليه وجهتهم . وهنا أقول أن بيادعة (١) البيان كبيادعة الفنون اذا وجدوا انصرفوا الى ما فطروا عليه على رغم الصعوبات والموانع الا أنهم قلما يظهرون الا في الفترات المتقطعة والأحايين من الدهر في كل أمة لا فرق في ذلك بين شرق وغرب أو بين أصفر وأحمر فما على العربية الا أن تستشرف الى ظهورهم حتى اذا ظهروا وعرفتهم كان عليها أن تنزلهم المنزلة التي تحق لهم وتحتفظ بهم ولا احتفاظها بأنفس الاعلاق وأثمن الجواهر . ولعل عدداً منهم تفاخر كل أمة بوجود مثله بينها هو الآن بين ظهرانينا في المهاجر وفي البلدان العربية وأخصُّ مصر والشام والعراقين على رغم الحالة الشؤمى التي صرنا اليها من ضغط السياسة الأوربية علينا وطموّ تمدنهم وعوائدهم وأفكارهم على تمدننا وعوائدنا وأفكارنا ولما نتكيف لكل ذلك بعد

كأني أسمع قائلاً يقول وجد بين اساتذة الانكليز من ترجم ديوان البها زهير وجاءت ترجمته كما يقولون غاية في الاجادة وحسن البيان . ولكن لم يوجد بين اساتذة العربية من نظم ديوان شاعر انكليزي وجاء فيها كما جاء ديوان البها زهير في الانكليزية فاذا تقول ألا يؤخذ من هذا ما يؤيد دعوى من يزعمون انحطاط العربية عن الانكليزية وقصورها عن أن تؤدي ما تؤديه تلك من البلاغة وحسن البيان ؟

والجواب : نعم وجد بين اساتذتهم من ترجم ديوان البها زهير ولحد الآن لم يوجد بين اساتذتنا من تصدّى لترجمة ديوان شاعر انكليزي بل على فرضانه وجد من تصدّى

---

(١) البيادعة أو الابادعة جمع بيدعي وأبدعي على قياس يلمعي وألمعي هو الذي يبدع في أقواله أو في فنه اي يأتي به على غير مثال وبعبارة اخرى هو الذي قد يبتكر العبارات ابتكاراً لا يقلدها تقليداً وذلك لما يرى من المناسبات الخفيسة التي لا يراها غيره بين المعاني والالفاظ الدالة عليها وبين بعض الافكار والعبارات الخاصة المبتدعة كقولهم حمي الوطيس . وان من البيان لسحرا . وهذا يوم له ما بعده . والايمان يوجب ما بعده . والمضعف امير الركب . والناس ابناء ما يحسنون . ولعل من هذا الباب قول من قال :

مستقبل بالذي يهوى وان كثرت ... منه الذنوب ومعذور بما صنعا

وقول ابي نواس : لا تسدين الي عارفة ... حتى أقوم بشكر ما سلفا

وقوله ايضاً ليس على الله بمستنكر ... ان يجمع العالم في واحد

وكثير من ابيات ابي تمام والمتنبي التي جرت مجرى الامثال فانها كانت في زمانها من المبتكرات على الارجح

لذلك ثم لم يستطع ما استطاعه الاستاذ الانكليزي الموحى اليه فلا يؤخذ ذلك في اعتقادي دليلاً يؤيد زعم الزاعم بقصور العربية وسبق الانكليزية

وبياناً لذلك أقول دعوني أذكر لكم شيئاً عن مترجم ديوان البها زهير وشيئاً عن الديوان نفسه ولكم بعدها ان تحكموا بما شئتم

مترجم البها زهير هو الاستاذ ادورد هنري بالمر المشهور استاذ العربية في جامعة كمبردج جامعة من أقدم وأشهر الجامعات البريطانية وقد خصص حياته للاشتغال بالعربية بعد ان انتقته جامعته لذلك انتقاء من بين مئات طلبتها المبرزين ومضى على الاستاذ في مهنته هذه سنوات عديدة كان لا هم له فيها الا بلوغ أقصى الغاية فيما اتجهت وجهته اليه من ترك أثر له عن العربية يكسبه فخراً وشهرة ويكسب جامعته أيضاً مثل ذلك ان لم يكن اضعافه وفوق ذلك فقد استعان الاستاذ الموحى اليه في ترجمته بأديب عربي هو رزق الله حسون لا غيره . رجل كان من خيرة ابناء العربية وأشهر أدبائها وكتابها لذلك الحين فضلا عما في كمبردج من الاسباب والوسائل التي تسهل للاستاذ بالمر وأمثاله الوصول الى الغاية التي يرمون اليها

فالى أن يكون عندنا جامعة في الشهرة والقدم ككمبردج والى أن يتهيأ أن ينبغ فيها اساتذة يدرسون الانكليزية ويبرعون فيها على نسبة تفوقهم في العربية وتزيح جامعتهم عنهم العلل والاسباب التي تصرفهم عن موضوع تدريسهم وغاية حياتهم الى أن يتم كل ذلك ويتصدى منا استاذ لترجمة مثل ديوان البها زهير ثم لا يستطيع أن يأتي بمثل ما أتى به الاستاذ هنري بالمر الى حينذاك لا الى ما قبله ينبغي التوقف في الحكم بقصور العربية وسبق اللغات الاجنبية الانكليزية أوالفرنساوية

نعم قبل ان يتحقق كل ما ذكرناه لا يجوز لزاعم ان يزعم في العربية ما يعتقده بعض أبنائها الذين يتأدبون على موائد اللغات الاجنبية وقد سقاهم اساتذة تلك اللغات سلوانات لا سلوانة واحدة ولا اثنتين ليسلوا لغتهم وينصرفوا عنها وعن محاسن آدابها الحاصلة والتي يمكن أن تحصل

لنرجع الى الديوان المترجم والى صاحبه فنقول كان البها زهير وزيراً اديباً وكان شاعراً فكهاً رقيق حواشي الطبع خفيف الروح فجاء ديوانه كأخلاقه سهل العبارة قريب الاشارة لا تثقل الفاظه في سمع ولا معانيه على فهم لم يأت فيه بتخيلات غير اعتيادية ولا أتعب نفسه بحكم غامضة أدبية أو بتصورات سياسية اجتماعية تستدعي درجة رفيعة من الفهم وقدراً كبيراً من الذوق والعلم . ولذلك فما أظن انه يصعب على أحد من نبهاء الازهر

الشريف ممن يترفعون قليلاً عن متوسط الكتاب أصحاب الذوق وسلامة الطبع في اللغة والانشاء أن يترجم ديواناً هو في الانكليزية كالبها زهير في العربية بشرط أن يكون ممن أتقنوا فهم الانكليزية كما أتقن الاستاذ بلمر فهم العربية ثم عكن من الأسباب واتساع الزمان كما مكن من كل ذلك الاستاذ المومى اليه

بل انا اعتقد أن أديباً من أدباء الازهر ممن يميلون الى فنون الأدب والبلاغة ولا يزيد عن أن يكون من الطبقة الاولى الاعتيادية في صناعة الانشاء اذا استعدَّ كما استعدَّ الاستاذ بلمر وأزيحت أعذاره كما أزيحت أعذار ذلك يستطيع ان ينقل « الفردوس المفقود » الى العربية بل و « الفردوس المرتجع » أيضاً نقلاً يوسم بطابع من البلاغة وحسن البيان لا يقل عما وسم به ديوان البها زهير في ترجمة الاستاذ مع ما لهذين الكتابين من علو الطبقة ورفيع المنزلة في اللغة الانكليزية

أنا لا أعلم أديباً منا تصدَّى لنقل ديوان من دواوين شعراء الانكليز فأستشهد به تقوية أو اثباتاً لما أذهب اليه ولكني أعلم ان البستاني نقل الالياذة المشهورة الى العربية ومع انه لم يتفرغ للنقل ولا كان من الذين وقفوا كل حياتهم للغة وصناعة البلاغة مع ذلك وعلى تباين ما بين العربية واليونانية في الذوق والتخيل بالنسبة الى الانكليزية جاءت ترجمة العلامة البستاني لا تنقص في حسن بيانها ولا في تصوير ما أراده شاعر اليونان عن معدل أحسن ترجمات هذه المجروية (١) الى اللغة الانكليزية فماذا عكن بل يجب أن يستدل مستدل من ذلك يا ترى ؟ اني اترك الجواب لأهل العلم والتحقيق من المتأدبين وذوي الانصاف في أحكامهم سواء كانت أحكامهم لهم أم عليهم

— ٣ —

سمعت مرة أحد الأدباء يذكر كتاب الأبطال وعبادة الأبطال لكارليل الانكليزي وكان الاعجاب به ملء فمه وصوته وملء عينيه ووجهه (ويستحق كل ذلك كتاب كارليل كما سمعت) ولكنه كان في أثناء ذلك يشكو بل يتمرمر أسفاً أن ليس في العربية مثل هذا الكتاب ويخاف ان هو أقدم على ترجمته أن يقال له ماذا — نعت — خمَّست أم خمشت؟

(قل للذي خمسها خمستها يا أعور)

وكانت غنة المرارة ظاهرة كل الظهور في اعتراف هذا الأديب بعجزه عن الترجمة ويعني بعجزه أن لا تجيء الترجمة في بلاغتها وحسن بيانها واشاراتها كما هي في الأصل

(١) نسبة الى ماجري وسمعتهم يقولون مجروية الزير القصة المنظومة بالشعر العامي

الانكليزي . ولكني لحظت أن هذا الأديب (وأمثاله كثيرون) كان يلقي معظم العجز ان لم يكن كله على عاتق اللغة لا على عاتقه

اني أشعر مع هذا الاديب ومع كل أديب مثله اذ يرون مثل هذا الكتاب الذي يصدق فيه ما ل قول المعري

لفظ كانَّ معاني السكر تسكنهُ — فمن تحفَّظ بيتاً منهُ لم يُفِق
إذا ترنم شادٍ لليراع به — لاقى المنايا بلا خوفٍ ولا فَرَقِ
وان تمثل صادٍ للصخور به — جادت عليه بعذب غير ذي رنق

يرون مثل هذا الكتاب ولا يستطيعون أن يردوه من ساعتهم الى العربية ببلاغة كبلاغة أصله وبيان كبيانه ولانهم لا يفطنون الى ان العجز والقصور في نفوسهم يزعمونه في اللغة وينسبونه اليها ثم يشكون منها مرَّ الشكوى . وأنا لا أكتفي هنا بمجرد قولي أنهم مخطئون كما ألمعت الى ذلك قبلاً مرة أو مراراً بل لابد ليّ من بيان موضع الخطأ ولا سيما في مثل كتاب كارليل هذا فأقول

(١) ان أمثال هؤلاء الادباء لا يفطنون الى ان كارليل هو من نوابغ كتاب الانكليز ومن أفرادهم في الادب وصناعة الانشاء في القرن التاسع عشر وانه الى الآن لم يظهر في عالم البلاغة الانكليزية أحسن منه ان لم أقل مثله

(٢) أنهم لا يفطنون أيضاً في الراجح الى أن كارليل بقي نحواً من عشرين سنة تقريباً يطالع ويفكر ويستعد قبل أن كتب هذا الكتاب . ولعله أيضا بعد أن كتب مسوداته بقي بضعة أشهر ان لم أقل بضع سنين يحل ويعقد في نسيج كتابه حتى جاء على صورته الاخيرة التي يراه عليها ادباؤنا المتشوفون الى ترجمته من غير أن يستعدوا لها الاستعداد اللائق بها

(٣) أنهم لا يفطنون لسلسلة أفكارهم الخفية التي يبنون عليها احكامهم الظاهرة فكأني بهم يثبون وثباً من مقدماتهم الى النتيجة بدون أن يدققوا في صحة المقدمات

لو حلل الاديب الذي أشرت اليه معقود سلسلة أفكاره لوجدها على ما يأتي — وهي كذلك حللها هو أم لم يحللها

(١) من يستطيع لدى المطالعة أن يفهم بنساية أفكار مؤلف في مؤلفه ومراميه فيها يستطيع أن يبني مثل مؤلفه اذا وجد المواد اللازمة للبنيان

(٢) أنا فهمت كتاب كارليل ومراميه فيه وفهمت قواعد البنيان التي جرى عليها أثناء ما كان يبني بل درستها في كتب البيان العامة التي درسها هو ولعلي زدت عليه في

ذلك . والنتيجة التي يرجح أن قد وثب اليها ذهنه من هاتين المقدمتين هي : اذن أنا أستطيع ان اترجم الكتاب اذا وجدت المواد اللازمة للترجمة ولكني جربت الترجمة فلم أستطعها . ثم لما كان فهمي وفهم كارليل فيما أودعه كتابه متساويين فبالضرورة ان المواد اللازمة للبناء التي كانت عنده والمواد التي هي عندي غير متساوية وهو المطلوب. وهنا أيضاً اعظم الخطأ واخفاه كما يظهر للمتأمل بعد التروي واعمال الفكرة

لنبحث الآن في صحة المقدمة الأولى ومن يسلم بصحتها بعد التفطن لها ؟ لا أحد على ما أظن فانه ليس كل من يستطيع فهم افكار مؤلف وفهم الضوابط والقوانين التي بموجبها بنى المؤلف افكاره يستطيع ان يبني مثل تلك الافكار . فصناعة الحياكة حياكة الخام البلدي على انوالنا السورية البسيطة يستطيع اكثر الذين عندهم ادنى مسكة في الصناعات اليدوية أن يفهموها في أيام قلائل وقل في أسابيع ولكنهم لا يستطيعون حالما يفهمون قواعد الحياكة بالمشاهدة العينية بل بعد الممارسة الاولية أيضاً أن تأتي شققهم التي يحيكونها بعد تلك الممارسة كشقة المعلم الذي تعلموا عنه وأحبوا أن يحاكوه

هب صناعة نسج خيوط الانشاء الفكرية في بساطتها وسهولتها كصناعة نسج الخيوط القطنية أو الصوفية فانك لا تستطيع بمجرد فهمك افكار مؤلف في كتابه وان بلغت في ذلك مبلغ فهم المؤلف تماماً أن تأتي شقة ترجمتك لها كشقة المؤلف في قوتها وتلاحم خيوطها مع تناسبها بعضها بعضاً في كل أجزاء الشقة من أولها الى آخرها ولا سيما اذا كان ثمَّ وشيٌ ونمنمة تحب ان تقلدها أيضاً . وقس على صناعة الحياكة صناعة الموسيقى . وهنا أمثل لك بي ذاتي فاني درست مبادىء الموسيقى وفهمت عقليًّا أو نظريًّا كل ما قاله لي الاستاذ عن طبيعة الصوت في سائر درجاته الثمان من دو القرار الى دو الجواب وكنت أستطيع حيناً أن أقرأ بكل سهولة علامات كل ترتيلة في كتاب ترتيل الكنيسة الانجيلية البروتستانية بل وتمرنت على ترنيم بعض هذه التراتيل مدة لا تقل الآن عن خمسين سنة ومع ذلك فالى هذه الساعة لا أستطيع أن أرنم أبسط ترنيمة منها لوحدي . واذا وقف المرتلون الذين أتابعهم بصوتي عن الترتيل وقف لوقفتهم كل وتر في حنجرتي . وعلى فرض أني بقيت مستمراً في ترتيلي كان ترتيلي تصويتاً لا ترنماً وتخبيطاً لا توقيعاً (ومن توفيقاتي والحمد لله أني أفهم من نفسي هذه المقدرة الموسيقية وسمو درجة استعدادي فيها تمام الفهم)

والمقدمة الثانية مغلوطة أيضاً كالاولى لانه على فرض اني فهمت كل ما ذكره كارليل في كتابه فهل اكون فهمت كل ما أودعه فيما ذكره في ذلك الكتاب . ولبيان ذلك اكتفي بأن أسأل هذا السؤال وهو : هب ان كارليل لم يكن في رأسه غير ما ذكره في

كتابه فهل كان استطاع هو نفسه أن يكتب ذلك الكتاب او يجيء كما جاء خلابة وبياناً ساحراً . كلا . وانا أسأل أيضاً كل اديب قرأ كارليل هل فهم من كتابه لاول مرة قرأه نفس ما فهمه في المرة الثانية ؟ وهل يفهم من قراءته للمرة الثانية نفس ما يفهم في المرة الثالثة من غير زيادة ؟ أم هو يفهم في كل مرة قرأ الكتاب مع الفكرة والروية شيئاً زائداً عما كان فهمه في القراءة التي سبقت ؟

لنرجع الى ما كنا فيه والى الاديب الذي أشرنا اليه . لنفرض ايها الأديب أن فهمك وفهم كارليل تساويا بتكرار مطالعتك لكتابه ولنفرض أيضاً بجرد فرض أن ذوقك في فن الانشاء كذوقه وبديعيتك في البلاغة وحسن البيان كبديعيته فهل المواد اللازمة للكتابة الحاصلة لك والمخزونة عندك مساوية للمواد الحاصلة كانت له والمخزونة كانت عنده ؟ ما لنا والمواد اللازمة للكتابة في نفس اللغة العربية والانكليزية فان حسن كتابتك أو ترجمتك لا تتوقف على هذه بل على مقدار الحاصل لك والمخزون عندك منها

ان كارليل اطلع على كتابة عشرات من أبلغ الكتاب في لغته وحفظ من الشعر والنثر البليغ في الانكليزية ما يقارب ما كان يحفظه ابو بكر الخوارزمي فهل قرأت أنت — ولا اقول حفظت — ديوان أبي تمام ورسائل الخوارزمي وفهمت ايضاً مع القراءة ما في الفاظ هذين المؤلفين اي الديوان والرسائل فأصبحت تستطيع ان تميز بين المعنى الحقيقي والمجازي وفي أي المعنيين تستعمل هذه أو تلك اللفظة التي يتفق لمستفهم ان يستفهم منك من معناها ؟

ماذا كانت مطالعاتك في كتب اللغة والادب والحكمة والتاريخ وأي الكتب البليغة وقفت عليها وتعنيت بضبطها واستقصاء البحث عن أصل معاني الفاظها ؟

أقرأت مؤلفات الجاحظ بل البيان والتبيين من مؤلفاته ؟

أقرأت مؤلفات الثعالبي قراءة فهم وروية ؟ بل ارضى لك أن تكون قرأت له اليتيمة فقط . او رسائله الخمس وكتابه سحر البلاغة

هل قرأت مؤلفات ابن مسكويه ؟

هل قرأت مؤلفات الغزالي ؟

هل قرأت مؤلفات محيي الدين ابن العربي . بل هل قرأت كتاب صبح الأعشى للقلقشندي ؟

لو سألت عن اسماء الكتب واسماء الكتّاب المشهورين الذين راجع كارليل مؤلفاتهم مراجعة فهم واستقصاء لوجدت عشرات من مثل أبي تمام وعشرات او اكثر من مثل

الجاحظ والثعالبي ومثل ذلك او قريب منه من أمثال ابن مسكويه والغزالي وابن العربي كل مؤلفات مثل هؤلاء الاكابر راجعها الرجل قبل أن بدأ بكتابة كتابه وخزن عنده منها ما خزن من الفاظ لغته وعبارات بلغائها فهل فعلت نصف ما فعله بل ثلثه بل ربعه ؟ استعد نصف استعداد الرجل واخزن في محفوظك من الفاظ العربية وعبارات بلغاء كتابها في مواضيع تقرب من موضوع كتاب كارليل نصف ما كان يخزنه هذا الرجل ثم جرب نفسك في ترجمة كتابه وانا الكفيل لك انك تستطيع ترجمته في سنة أو سنتين ويجيء كما تشتهي ويشتهيه أصحاب الأذواق الجميلة في فن البلاغة. بل أنا الكفيل انك تضعه وضعاً كأنك كتبته ابتداء من عند نفسك ولا ينقص قدر كتابك في العربية عن قدر كتابه في الانكليزية ذرة من البلاغة وحسن البيان

ان معظم أدبائنا الحاليين هم ممن درسوا في الانكليزية أو في الفرنساوية سنوات وطالعوا ما شاء الله أن يطالعوه من بليغ كتب أدبها وفلاسفة أدبائها وكل ذلك بعد ان درسوا كتب صرفها ونحوها وبيانها وبلاغتها وحذقوا ذلك اكثر من ابنائها ولكنهم في لغتهم اقتصروا على درس بعض علوم اللغة من الصرف والنحو متأففين ولعلهم مروا مرور المسرع على مختصر من مختصرات البيان والبلاغة وأما كتب الأدب والتاريخ وما اليها من كتب الحكمة والسياسة المدنية فقلما زادت مطالعاتهم في هذه عما يكتب عادة في مجلاتنا العلمية والأدبية . وبعبارة أخرى أنهم صرفوا سبع سنين الى ثمان أو تسع في كلية أجنبية وكانوا في كل تلك المدة يدرسون لغتهم ساعة ويدرسون لغة المدرسة التي هي الانكليزية أو الفرنساوية أربع ساعات على الأقل الى الست ساعات

ثم بعد أن أخذوا شهادة المدرسة بقيت نسبة مطالعاتهم في لغتهم اليها في لغة أجنبية كنسبة واحد الى اربع . امثال هؤلاء الأدباء ينتقون من الكتاب امثال كارليل الانكليزي وامرسون الاميركاني وامثال شاتوبريان الفرنساوي ويحاولون ترجمة أعلى مؤلفاتهم درجة في البلاغة وحسن البيان من غير ان يزيد على استعدادهم الذي اشرنا اليه في لغاتهم الا ما هو دون الطفيف . فاذا رأوا من انفسهم العجز ولا غرابة فيما اذا رأوا منها ذلك دعوا بالويل والثبور على لغتهم واتهموها بكل تهمة شنعاء وغفلوا عن انفسهم وقصور استعدادهم وعلمهم بل غفلوا عن ان لغتهم انما هي هم ترتقي بهم وتنحط بغفلتهم او بانحطاطهم والغفلة هي الغالبة علينا

اطلت على قراء الهلال الاغر فيما كتبت ولكنه موضوع طالما جال في خاطري فلم ار بداً من توفية حقه فأطلت لأفش بالاطالة كربي وأسري عن نفسي ولعلي

سرّيت عن نفوس كثيرين غيري ونفثت بما أطلت من نجائث صدورهم وصدري. أقف هنا الآن لاعقب هذا الفصل بفصل آخر آتي فيه على مختصر من تاريخ اللغة العربية كيف نمت وارتقت ثم كيف وقفت وتراجعت الى ان بدأت النهضة الحديثة وما رافق كل ذلك من تطورات اللغات الاجنبية الى أن أصبحت سابقة مقلدة بعد أن كانت لاحقة مقلدة . فلعلنا بهذه اللمحة نهتدي شيئاً الى ما نحن في حاجة الى الاهتداء اليه من احياء معالم العربية والرجوع بها الى المنصة اللائقة بها بين اللغات الحية والمنزلة الحرية ان تكون لها بين لغات الادب والعلم والفلسفة الحالية وبالله الاستعانة وهو حسبنا ونعم الوكيل

اللغة العربية واللغات الاوربية

اللغات الاوربية لأول أمرها والعلوم

كانت مدارس الأندلس العربية في ابان عزها بالنسبة الى بلدان اوربا كمدارس اوربا واميركا اليوم الى البلدان العربية في آسيا وافريقيا . وكانت اللغة العربية لغة العلم وعنها يترجمون . ولكن لغات القوم حتى ارقاها لم تكن تقوى على ان يؤلف فيها ولذلك كان علماؤهم وادباؤهم يعتمدون على اللاتينية ويؤلفون فيها . والذي في ذهني ان العلامة نيوتن الانكليزي كتب كتبه العلمية في اللاتينية لا في الانكليزية

في أواسط وربما في أوائل القرن السادس عشر بدأت النهضة الأوربية الحالية وأخذ الكتاب الفرنساويون والانكليز والجرمان يضعون الكتب في لغاتهم او يترجمون اليها مافي خزائن اللغتين اليونانية واللاتينية . فأخذت هذه تتدرج في اتساعها وغناها شيئاً فشيئاً حتى بلغت ما بلغته بعد نهضة استمرت في سيرها الى الآن من غير ان تقف نحواً من اربعمائة سنة ونيف أي منذ اكتشفت اميركا الى اليوم ولا تزال حركة هذه النهضة على مثل ما كانت عليه بل هي اليوم على اسرع ما بلغته من السرعة وأوسع ما بلغته من الاتساع

قلت ان القوم أي علماءهم وأدباءهم كانوا يكتبون ويؤلفون في اللغة اللاتينية حتى القرن السادس عشر ثم منذ حينئذ صارت مؤلفاتهم وكتاباتهم في لغاتهم إلا ما قلَّ منها فأخذت تلك اللغات تزداد توسعاً وارتقاء حتى بلغت ما بلغته الآن . وكانت تنظر في بدء نهضتها تلك الى العربية وتحسدها على غناها وجمالها فأصبحنا اليوم وقد انقلب بنا الحال فأصبح من كان حاسداً محسوداً ومن كان غنياً فقيراً وبالعكس

ولا بد لي من ان اشير الى ان النهضة الاوربية الاخيرة كان سبقتها نهضة قبلها وهي نهضة الأجيال المتوسطة وكان بدء هذه النهضة الأولى رجوع الملوك والامراء الصليبيين من الشرق ولا سيما من سوريا وفلسطين مغلولين مقهورين

والذي احب الاشارة اليه تلميحاً هو ان الاوربيين منذ ايام الغزوات الصليبية الاولى وابتداء فشلهم انتبهوا لانفسهم فرأوا ماهم فيه من الجهل والانحطاط بالنسبة الى الممالك الاسلامية في الشام ومصر واخذوا في تلافي امرهم فبدأوا بانشاء المدارس الكلية والجامعة ويرجع عهد بعض تلك المدارس في فرنسا وجرمانيا الى اواخر ايام الحروب الصليبية

وكان الذين يرجعون الى اوطانهم الغربية من الشرق يحملون معهم افكاراً جديدة ومبادىء جديدة وبالاجمال يحملون مبدأ نهضة فكرية اجتماعية دينية كانت سبباً في زعزعة ثقتهم بالحالة التي كانوا فيها وبالعلم والآداب الدينية والاجتماعية التي كانوا يرونها كالوحي المنزل لا يجوز لهم الخروج عنها او تعديلها بوجه من الوجوه . فلم يأت القرن السادس عشر حتى كانوا تشربوا افكار الشرقيين وعلوم الشرقيين اعني العرب في الشام ومصر وفي مستعمراتهم في اسبانيا وفي البلدان المقابلة لها من افريقيا — وتمّ لهم في بدء ذلك القرن أمران الأول غلبتهم على التفوق الشرقي العربي باستيلائهم على الاندلس كلها وابعاد العرب عنها لم يبق فيها منهم الا من اعتنق النصرانية . وهذا وان كان من الأهمية بمكان عظيم إلا ان الأمر الثاني وهو اكتشاف اميركا واكتشاف طريق رأس الرجا الصالح كان أهم من الغلبة على العرب في الاندلس وطردهم منها

سبب اهمية التغلب على الاندلس واكتشاف اميركا وطريق رأس الرجا الصالح

الانغلاب كما لا يخفى ذلّ والغلبة عزّ . الانغلاب يدعو الى الانخذال وقصر المطامع والرضوخ لتزجية العيش والرضا بالحاصل مهما كان خوفاً من الصيرورة الى ما هو أدنى وأدهى والغلبة تدعو الى عكس ذلك كله . ان طرد العرب من الأندلس كان بمثابة احساس لاوربا بالقلب واما اكتشاف اميركا فكان لاوربا غلباً ظاهراً فعليًّا وقد استمر لها هذا الغلب مدى ثلاثمائة سنة كانت في اثنائها تتزايد غنى وجاهاً . وكذلك اكتشاف طريق رأس الرجا الصالح فانه ادى الى سلسلة انتصارات على شعوب افريقيا وآسيا وغلبة على ممالك كان لها الغلب سياسةً وتجارة وصناعةً على ما سواها من الممالك . وكل هذا جعل نهضة اوربا على نموّ وقوة سنة بعد سنة وجيلاً بعد جيل الى الآن . وعلى عكس ذلك كان الحال في الشام ومصر والعراقين وشبه جزيرة العرب

قلت ما قلت لاذكر العارفين بالتاريخ ان اوربا بدأت تستيقظ من جهلها على عقب الحروب الصليبية وأما نهضتها العظيمة فبدأت باكتشاف اميركا واكتشاف طريق رأس الرجا . واما مصر والشام والعراق فبدأ جمودها ونومها منذ ابتدأت اوروبا تستيقظ وأخذت بالتراجع منذ بدأت أوربا بالتقدم وقد ابتدأ تقدم اوروبا وتأخرنا نحن منذ اكتشاف اميركا أي من اربعمائة سنة ونيف

اللغات تابعة أبداً لاحوال المتكلمين بها فاذا تقدموا وسادوا تقدمت وسادت واذا تأخروا وذلوا تأخرت وذلّت . بدأت اللغات الاوروبية بالتقدم منذ ابتدأ القرن الثالث عشر او ما قبله قليلاً فما بلغت اواخر القرن السادس عشر حتى كانت قد اصبحت

على مستوى لغتنا العربية في ابان نهضتها وعزها او تكاد . ومنذ ذلك الحين مازالت اللغات الاوربية في تزايد من غنى وارتقاء والعربية في تزايد كذلك لكن من فقر وانحطاط الى اواسط القرن الماضي فان العربية استيقظت حينئذ باستيقاظ الدولة المصرية المحمدية العلوية واستيقاظ العشائر اللبنانية معها وساعدها في يقظتها هذه الارساليات الكاثوليكية والبروتستانية بما شادته هذه الارساليات من المدارس العالية وبمن علموهم فيها من نخبة ابنائها وابناء السواحل السورية . وزاد في اتساع هذه النهضة ان اكتشفنا بالمهاجرة طريق اميركا من جديد وطريق رأس الرجا الصالح ايضاً فلم نبلغ القرن العشرين حتى استردت لغتنا العربية ما كانت خسرته في زمن انحطاطها واستأنفت فوق ذلك كما اعتقد شيئاً من التقدم الذي تتبعت فيه خطوات اللغات الاوروبية . وها نحن الآن نحاول ان تصل العربية في قرن الى ما وصلت اليه لغات اوربا في اربعة قرون على حين لا تزال اوربا سائدة ونحن مسودون وظافرة ونحن مظفورون (اي مظفور بنا) ومبتكرة ونحن مقلدون ومتبوعة ونحن تابعون وعالمة بما تصنع ونحن جاهلون وفوق ذلك هي مطلقة ونحن مقيدون . وذلك مما لا يكون بل لا بد لنا من الزمن الكافي لتبلغ لغتنا العربية في العلوم والفنون ما بلغته الانكليزية والفرنساوية . ولولا اني اعتقد ان الاستعداد الفطري فينا وفي لغتنا العربية اقوى اجمالاً من استعداد الغربيين ولغات الغربيين لقلت انه يستحيل علينا اللحاق بهم بعد ان سبقونا هذا السبق المبين في اثناء المدة التي اشرنا اليها الا اذا حدث من الحوادث ما اخرهم وقدمنا وفلّ من عزمهم وارهف عزمنا . وكل ذلك مما ليس في الحسبان بل ليس في افق آمالنا ما يشير اليه

كيف نستطيع اللحاق بالغربيين

قلت ان اللغات الغربية لحقت لغتنا العربية في القرن السادس عشر ثم تركتها وراءها ومنذ ذلك الحين اخذت مسافة البعد تتزايد بين لغتنا ولغاتهم عما كان من استيقاظهم ونومنا وحركتهم وجمودنا حتى جاءت الدولتان دولة محمد علي باشا في مصر ودولة حليفها الامير بشير الشهابي في لبنان . وعضد النهضة العلمية في ايامها وما بعدها الارسالية الاوروبية التبشيرية وان شئت فقل دعاة الكاثوليكية والبرتستانية ولكن هيهات ما كان ولا يزال بين سرعة سيرهم وسيرنا وتقدمهم العلمي وتقدمنا . والامر لا يزال على ما كان عليه بل حركة سيرنا العلمي قد اخذت الآن بالتناقص عما كانت عليه في اول هذا القرن وبقيت حركة سيرهم على ما كانت عليه بل زادت فكيف نلحق بهم ! بل هل نستطيع ان نلحق بهم (عظمة وجاهاً) وكانوا وما زالوا اكثر منّا عدداً واوسع تجارة واشد حولاً وطولاً

وزاد اخيراً انهم سادة غالبين واصبحنا تابعين مغلوبين

ماذا نجيب « نحن » عن هذا السؤال ؟

نحن — ومن نحن ؟ نحن السوريون ولا يبلغ عددنا الثلاث ملايين لا نستطيع لا في الصناعة ولا في التجارة ولا في الغنى ولا في القوة واتساع السلطة ان نلحق الفرنساويين بل نبقى « على الأرجح » كما صرنا تابعين لهم « ويجوز ان نندغم بهم ولا سيما النصارى اللبنانيون » . لكن لو كنا ألحقنا بالانكليز تلك الأمة السكسونية القوية ذات المخالب والأضراس الحديدية ما كنا ندري الى ماذا مصيرنا . فانه يجوز ان نبقى تابعين لهم كما نتوقع ان نكون مع الفرنساويين ويجوز ـ ولا سيما اذا ناظرناهم او خالفناهم ـ ان ينسروا لحومنا بأسنانهم القوية ويطحنوا أعظامنا بأضراسهم الحديدية وتكون آخرتنا معهم كآخرة الاستراليين في استراليا او الهنود والاميركان في اميركا او نبقى عندهم كما بقي اهل جبعون. عند الاسرائيليين محتطبي حطب ومستقي ماء لبيت الرب الى آخر الدهر وإن لم نطق ذل الخدمة والعبودية نتفرق على وجه كل الأرض كما تفرق من قبلنا افرايم ومنسى او كما تفرق يهوذا وبنيامين لكن على غير أمل بالعودة كما يأمل اولئك الآن

ماذا نجيب نحن ؟

ومن نحن ؟ نحن اهل العراق والموصل ولا نزيد عن المليونين الا قليلاً وصاروا الآن يحسبون ثلاثة ملايين لا نستطيع لا في عدة ولا في عدد وشدة ان نلحق الانكليزيين اسياد الهنود والافغان والتبت والفرس في آسيا وكل الحاميين في افريقيا . غداً يملأون علينا بلادنا الخصيبة بلاد بابل واشور مهد التمدن السامي ومركز الصناعة والتجارة الى عهد اليونان والرومان بل الى عهد العرب وابان عز الاسلام نعم غداً يملأون علينا بلادنا هذه هنوداً وملقيين وسياميين واماميين وربما زنجاً وهوتنتيين فاما ان نستكين ونرضى كما يرضى المغلوب والفقير والمكسور الذليل او نرحل مع الشمس لا نعلم الى اين المصير

ما ذا نجيب نحن ؟

ومن نحن ؟ نحن الذين نتكلم العربية لغة القرآن والحديث وأم لغة التوراة والمزامير ويبلغ عددنا نحواً من خمسين مليوناً واذا اضفنا الينا بني امنا العربية وبني ابينا ابراهيم أعني اليهود ابناء عمنا بل اخواننا في اللغة والنسب بلغ عددنا نحواً من ستين مليوناً ونيف

نحن هؤلاء المتكلمين باللغة العربية لا نستطيع شيئاً الآن لأننا متفرقون متشتتون لا صلة بيننا ولا جامعة الا جامعة اللغة العربية. ولو كان الكاتب مسلماً لزاد جامعة الدين على جامعة اللغة ايضاً. ونعمت كانت الجامعة رابطاً بيننا لو لم يطعنها بعضهم طعنة كادت تقضي عليها

نحن هولاء على تفرقنا الجغرافي والسياسي الحاضر أصبحنا لاقدرة لنا ولا قوة فينا . ولولا بقية امل لنا في مصر لكنت اقول انه قضي علينا بالبقاء الى ازمنة على ما كنا عليه أي بالتأخر عن الغربيين في العلم والصناعة وما اليهما من الغنى والقوة (وهما الغاية من العلم والصناعة) . واذا لم يتداول الامر أهملنا لغتنا ايضاً فلم ننقل اليها علوم القوم وثمرات عقولهم واختباراتهم الواسعة زاد تأخرنا عنهم واتسعت دائرة البعد بيننا وبينهم اتساعاً يقضي على كل آمالنا في المستقبل

واراني وصلت الى ما قصدت له بالذات في هذه المقالة اعني تعريب الكتب العلمية والفنية وما الى هذه الطريقة التي ينبغي ان تتبع في ذلك . ولكن لا بد لي من الاستطراد الآتي فانه يحاش على قلبي فلا استطيع ان اخطو خطوة قبل ان ادفعهم عن معدتي المصابة بما يشبه الدوار البحري الشديد واليكم الاستطراد

الاستطراد

كان لنا اي المتكلمين بالعربية جامعتان جامعة اللغة وجامعة الدين وهما جامعتان اساسيتان ومن أشد الجامعات لتكوين الأمة والمملكة ثم ربطتنا (أكثرنا) الجامعة الدينية بالعثمانيين الاتراك فتألفت من ذلك الممالك العثمانية في اوربا وآسيا وشمالي افريقيا ولسوء الطالع تغلب العثمانيون على اقوام والحقوهم بممالكهم وهم لا يربطهم بالعثمانيين من الاتراك والعرب جامعة ما غير جامعة التغلب والقهر فكانوا سبباً في ضعف الدولة العثمانية وما زالوا اشواكاً ومناخس في جسمها يثورون عليها ويمالئون اعداءها حتى انفصلوا عنها أخيراً

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط بل كانوا علة لانفصال كثير من البلدان العربية عن العثمانية رغم الرابطة الدينية الشديدة التي كانت تربطهم بالعثمانيين الاتراك . وذلك لبعدهم عن مركز العصبية العثمانية في آسيا الصغرى وبما كان حصل للدولة من الضعف والانحطاط بتوالي الثورات التي قام بها اولئك الأقوام من اليونان والبلغار والرومان والصرب اقوام ادمجوا في العثمانية ثم رابطة تربطهم بها الا رابطة التغلب والقهر . ثم قام اقوام إفسدوا الجامعة الدينية التي كانت تربطهم بالاتراك العثمانيين وكان بها عزهم وعليها بنيت دعائم مجدهم فسقط بسقوطها بناء العثمانية الشامخ الى الحضيض وتفككت أوصالها واصبح المتكلمون بالعربية اشتاتاً بعد ان كانوا عصبة واحدة

وغاية ما اريد الوصول اليه وتمكينه في النفوس انه كان للمتكلمين بالعربية جامعتان جامعة من الدين والسياسة وتسمت مؤخراً بالجامعة العثمانية وجامعة من اللغة العربية وانفكت

الجامعة الاولى بفصل اولئك المنفصلين « من كانوا » ولم يبق لنا إلا الجامعة الثانية جامعة اللغة . فاذا لم نحرص عليها و نبذل غاية مجهودنا في احيائها ورفع علمها فوق كل علم بقي لنا فقل على العرب وعلى التضامن العربي السلام الى ان يأذن الله با نقلاب الطبائع والأحوال ولنعلل انفسنا بهذه الأماني والآمال ورحم الله من قال :

أعلل النفس بالآمال ارقبها ما اضيق العيش لولا فسحة الأمل

نهضة الشرق العربي

وموقفه ازاء المدنية الغربية

(قضية كلية) « لا بد لكل نهضة سياسية من أسباب تدعو اليها ووجيه يسندها تستتبع وجاهته وجاهة بقية الوجهاء وينتفع هو وهم منها كل من بحسب وجاهته ثم لا بد من مال ينفق على مروجيها والآخذين بنصرتها وتعميمها الى ان تبلغ غايتها » اه

نفهم بنهضة الشرق العربي النهضة التي نراها امامنا الآن ونكاد نلمسها بأيدينا وهي نهضة سياسية تطلب الاستقلال السياسي والتخلص من جور أوربا الاقتصادي والجنسي . ونعني بالجور الجنسي ما ينظره جنس غالب الى جنس مغلوب وسيد الى مسود وقد يغني عن كل ذلك أن نقول كما ينظر الآن غربي الى شرقي أو أجنبي ولا سيما انكليزي وفرنساوي الى وطني mative في العراق وسوريا وحتى في نفس مصر زهرة الشرق العربي وروح النهضة الحالية وقلبها النابض

ولا بد لي قبل ان ابدأ كلامي عن هذه النهضة من تقدمة ما يأتي وهو :

أولا — اني أصور ما اصوره عن هذه النهضة وفقاً لما في ذهني كما فهمته من مطالعاتي وشعرت به من اختباراتي التي كانت تتابع شهراً بعد شهر وسنة بعد سنة منذ صرت اتأثر من المحيط الذي حولي وأؤثر فيه الى الآن . ولا شك ان ما كنت افهمه من مطالعاتي واختباراتي ومن المحيط حولي والحوادث التي تتعاقب فيه لم يبق على حالة واحدة بل كثيراً ما كان يتولاه النقض والابرام فتارة تنسخ معلوماتي اللاحقة معلوماتي السابقة وتارة تؤيدها وبالعكس .

وكثيراً ما كنت أعدل عن فهم مضى الى فهم استجد ثم أعود فأرجع عن المستجد المعدول اليه الى القديم المعدول عنه وبعبارة اخرى كثيراً ما تضاربت افكاري وتناقضت مفهوماتي واحكامي ونسخ سابقها لاحقها ولاحقها سابقها قبل ان استقرت على الشكل الذي اصوره الآن وهو شكل في ذهني لم ارجع فيه وانا اصوره الى تاريخ مكتوب يمكنني الرجوع اليه كحجة والاستشهاد به بل لا أضمن ان توافق افكاري ومفهوماتي الآن في مقالتي هذه كل او معظم افكاري ومفهوماتي وكتاباتي التي سبقت . ولذلك فمن ينتقدني في نفسه او في مجلة فلينتقد مفهوميتي نفسها لا زمان وقوعها ولا المكان الذي وقعت فيه فيما اذا أشارت الى زمان او مكان

ثانياً — لايسعني الحال ان استوفي الكلام على هذه النهضة في الأقطار العربية الثلاثة أعني العراق والشام ومصر ولذلك اكتفي بما اعرفه عنها اجمالاً في سوريا وربما أشرت اشارة اليها في العراق وفلسطين ثم بحسب مافي الامكان وما تحتمله صفحات الهلال أشرح حال النهضة في مصر

النهضة في سوريا

كان قبل هذه النهضة نهضة سبقتها في ايام مدحت باشا ولكل اسبابها . أما اسباب النهضة ايام مدحت باشا فكانت لتفكيك عرى الاتحاد العثماني ومن أشهر ما نظم أثناءها قصيدة

دع مجلس الغيد الأوانس وهوى لواحظها النواعس

وكان من ورائها انكلترا وأما مدحت باشا فكان فزّاعة بين ايدي ساستها الذين كانوا يحاولون بها الوصول الى السودان والاستيلاء عليه أو على الاقل دقّ وتد جحى فيه الى ان يحين لهم الوقت المناسب مع الأيام . لكن مع كل مابذله مدحت باشا لأجل ترويجها لم تكن البلاد في استعداد لها ولم يكن أيضاً قد حصل التفاهم بين الانكليز والفرنساويين عليها فتلاشى أمرها بعزله ونقله الى ازمير ثم أخذ من هناك تحت الحفظ بتهمة اشتراكه في مقتل المرحوم عبد العزيز وارسل الى مكانه المرحوم حمدي باشا والياً على الشام فلم يحتج هذا الوزير الأمين لدولته الى اكثر من الأمر بحبس واحد من الشبان الذين بالغوا في اثارة الخواطر من غير ما تقية ولا تكتم فاشتملت عليه القنصلية الانكليزية في دمشق وتوسلت لاخراجه من السجن وارسلته بصورة مبعد كما اظن الى القاهرة وهناك تعين على أثر وصوله ترجماناً لجيش الاحتلال . هذا خلاصة ما بقي في ذهني من امر المرحوم شاكر بك الخوري ولا أكفل ما أثرت فيه الايام من التكيفات الخفية ولكنها لم تكن شديدة ولا كثيرة كما أؤكد للقارىء العزيز

على ان هذه النهضة لم تذهب بلا فائدة للدافعين اليها أعني انكلترا . وأثرها على ما اعتقد وكما فهمت من كل حوادثها وما تلاها حتى الآن هو ان الاستانة تساهلت فأذنت بارسال الحملة الانكليزية لتخليص غوردون باشا وكان هذا بذهابه الى السودان قد هيّأ كل الوسائل لتمكين الدراويش من الاحاطة به في الخرطوم وقطع خط الرجعة عليه وعلى كل من كانوا هناك. وأغارت تلك الحملة على الخرطوم وكل السودان حتى وادي حلفا يغلي غلياناً بالثورة التي انتهت اخيراً بالشكل الذي نعلمه بدق « وتد جحى » أولاً ثم بتجريد الحملة الانكليزية المصرية بعد مضي سنين بقيادة الجنرال كتشنر باشا المشهور وتحت رايتين انكليزية ومصرية معاً على نفقة مصر كما اظن

هذه هي النهضة الأولى في سوريا وكانت نهضة سياسية عربية لكن ضد الأتراك . ثم كانت النهضة العربية قبل الحرب العظمى العالمية وقبيل او اثناء الحرب البلقانية وهذه ايضاً كانت ضد الاتراك . ثم جاءت النهضة الحالية وهي نهضة عربية شرقية تطلب الاستقلال السياسي والاقتصادي والجنسي

أسباب النهضة الحالية

من منا لا يتمنى ان تكون هذه النهضة قائمة على اساس وطيد يضمن لها البقاء بل من منا لا يتألم عن مجرد الفرض انها فوران وقتي لا يلبث ان يخمد ؟ لكن هل تسوغ لنا عواطفنا ان نكذب انفسنا ونغفل عما كان يمر بنا منذ ايام قلائل ؟ البارحة كنا — أي اهل سوريا وفلسطين — نستقبل الحلفاء باطلاق البارود وزلاغيط النساء وقرع الاجراس في قبب الكنائس وآذان المؤذنين في الجوامع ونحمد الله ان خلصنا من العثمانية وظلم الظلام القاسطين الغاشمين. بالأمس اسرع علينا في بيروت واكابر اعياننا بأوتوموبيلاتهم يتلقون الفاتحين الى عكا او صور وتهولني ان اقول ماذا كان يقال في اجتماعات كثيرة عند وصول الجيش الفاتح وماذا سبق به الطراس ينقشونه في آذان الكثيرين من الأهلين أعني في آذان الأعيان والكبراء وفي آذان اهل النباهة وذوي اللسن من الأدباء والخطباء والكتاب الخ الخ . وكيف كانت تتكيف الأفكار وتتقلب الخواطر بين اسبوع واسبوع واحياناً بين يوم وآخر والى الآن لم تستقر على شيء ثابت بعد بل لا نعرف كل ما نريده تمام المعرفة

نعم نشاهد نهضة سياسية — وان كانت تلبس احياناً لباس نهضة ادبية اجتماعية — فما سببها ؟ خابت آمالنا بدول الحلفاء وخيبة الآمال ليست بسهلة . رأينا انفسنا في امور كثيرة كنا نحسب التخلص منها ولا نزال حيث كنا بل في سرّنا قد نقول إنا رجعنا الى الوراء . كنا عصبة واحدة أولي قوة فاذا بنا جماعات متفرقة ضعيفة . كنا اولاً ولاية واحدة او ولايتين فاذا بنا دول سبع . يا لمرارة ما شعرنا ونشعر به ! وأمرّنا نفساً التجار واهل الصناعة والزراعة بل اصبح يشعر بالمرارة حتى العملة ومتعاطو الاسباب التافهة ودع عنك الأدباء والكتاب فانهم بدأوا يشعرون ببوار حرفتهم الشريفة . لكن الأولى بنا ان لا نحركهم فانهم فيما اعتقد ابعد الناس عن الاعتراف بمرارة النفس التي عم الشعور بها او كاد يعم كما انهم ابعدنا عن الاعتراف بخيبة آمالنا وقد خابت . ومعنى كل ما قلته قد يفهم منه ان نهضتنا العربية الشرقية الحالية اشبه بفوران وقتي ان لم تكن فوراناً ولكني لا اقول ذلك لأني يؤلمني حتى مجرد خطور هذا الخطر في بالي

دعوني اذن اقول ان نهضتنا هذه هي نهضة حقيقية . نعم وقد بدأت تكون كذلك

باذنه تعالى ولا اقول ذلك مجرد رياء ارضاء لعواطفي وعواطف مواطني بل هناك مايسوغ لي قولي هذا ويصحح حكمي وهو ان شدة مرارة انفسنا نبهت انفسنا لدرجة من الشدة لا يزول أثرها بسهولة فأصبح يجوز لنا ان نعتمد على تكيفات الوجود التي قد تأتينا بما يحقق آمالنا من حيث لا نحتسب . على اني مع الأسف اقول اني لا أرى في سوريا وجيهاً تستتبع وجاهته ما سواها من الوجاهات ويقر له بقية الوجهاء برياسته ثم هو يطمع بالانتفاع من هذه النهضة وعنده من المال ما ينفق عليها الى أن تستحكم في النفوس وتبلغ درجة لا يستطاع قلعها منها ولا تحويل الأفكار عنها . لو كنت أرى مثل هذه الوجاهة ما توقفت ولا ترددت في حكمي عن اصالة هذه النهضة وثباتها الى ان يبلغ اهلها ما يريدون . نعم ليس امامي الآن ما افزع اليه فأؤمل من ثم لأجله باستمرارها وازدياد عدد الناهضين بها وشدة تضامنهم أيضاً الى شدة مرارة نفوسنا بما كان من خيبة آمالنا وانكشاف مقاصد الحلفاء بعض الانكشاف لنا ولا اقول كل الانكشاف فاني كنت اخاف ولا ازال اخاف من سذاجتنا التي تصدق كل ما تسمع من خوالب العبارات وتنخدع بها

***

يكفي ما ذكرته عن سوريا ولبنان واترك الأمر في العراق وفلسطين وشرق الأردن الى عارف بأحوال هذه البلدان العربية من بنيها فان الابن لا يهم كما يهتم غيره وغاية ما اقوله أو استطيع اقوله اني اخاف على هذه البلدان العربية ان تصبح ملعباً للسياسة الغربية وهنا الخوف كل الخوف فاني ارى من وراء ستار السياسة اللاعبة على لوحة فلسطين وأرض الفراتين الى شطوط البحر الاسود شمالاً وبحر قزبين شمالاً شرقياً قوماً سحرة بل اسحر السحرة السياسيين الذين يستطيعون بسحرهم ان يفرقوا بين المرء وزوجه وبين الأم وبنيها

النهضة في وادي النيل

ان اول نهضة عربية شرقية حسب الظاهر كانت نهضة المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الكبير وما اتصل بأذيالها من الحركة العرابية ولكنها كانت لتفكيك عرى الوحدة العثمانية وقد رتب معظم فصولها الساسة الانكليزيون الماهرون واليك البيان :

لا آخذ القارىء الآن الى ايام نابوليون بونابرت القائد العظيم وموقعة أبي قير ولا الى ايام محمد علي باشا وما كان في ايامه الأولى الى ان قضى على المماليك واصبح والي مصر لا ينازعه منازع فان السياستين الانكليزية والفرنساوية كانتا حينئذ بل بقيتا الى ما بعد الحملة المصرية الابراهيمية بل الى سنة سبعين على طرفي نقيض إلا في فترة قصيرة تغلب فيها دهاء بالمرستون على نابوليون الثالث حتى استجره الى محاربة الروس سنة ١٨٥٦

بعد سنة السبعين بدأت السياسة الانكليزية تتقرب من السياسة الفرنساوية وكأنما الفرنساويون انتهوا بعد اندحارهم امام الالمان الى ان السياسة النابوليونية القائمة على معاندة انكلترا ومزاحمة نفوذها في مصر سياسة عقيمة فاتفقت السياستان على الامر المشترك بينهما وهو تفكيك عرى الاتحاد العثماني وان تقنع كل منهما بحصتها وتعدلا عن المزاحمة بينهما

ورأت الدولتان في المرحوم اسماعيل باشا الرجل القويم الجسور الطموح المفتوح اليد بل بالحري المبذر الوسيلة العظمى لهذه الغاية فأعانتاه على طموحه فنال في سنة ١٨٦٦ خطاً شريفاً مؤذناً بالارث الصريح في عائلته . وفي السنة التي تلتها نال لقب خديوي وهو أرفع رتب وزراء الدولة

ولم يقف اندفاعه عند هذا الحد فزار الاستانة سنة ١٨٧٣ وقوبل فيها بأعظم الترحاب ونال من التفات الحضرة الشاهانية المرحوم عبد العزيز مالم ينله احد قبله من اهل بيته . ثم لم يلبث ان عاد الى مصر حتى جاءه الفرمان الشاهاني يخوله كل الحقوق المعطاة لرتبة الخديوية وهي حقوق الوراثة لاول ابنائه والاستقلال بالاحكام الادارية واقامة المعاهدات مع الدول الاجنبية واستقراض القروض الخ . . .

ويظهر من مطالعة هذا الفرمان ان الخديوية المصرية اصبحت به مستقلة فعلا كاستقلال اية دولة وضعت يدك عليها من دول اوربا حاشا الدول الست العظام . نعم اصبحت بالنسبة الى العثمانية الضعيفة مستقلة تمام الاستقلال وانفكت عروة ارتباطها بالاستانة الى الدرجة التي كان يريدها القوم

بدأ المرحوم اسماعيل باشا بعد هذا الفرمان بالاسراف في نفقاته وبالاستقراض لها ولمشروعاته التي كان كثير منها لخير البلاد ولظهور لمحة عليها من لمحات أبهة المدنية الاوروبية كما ان منها ما كان لاظهار أبهة الخديوية وعزة الملك حتى اذا اكمل دوره في التمثيل الذي اراده القوم وكانت الحرب الروسية العثمانية قد انتهت وامضيت معاهدة برلين التي اعطيت فيها الهرسك والبشناق لاوستريا وقبرص لانكلترا اولاً ووقع الاتفاق السري بين فرنسا وانكلترا على ان تحتل الاولى تونس والثانية مصر وفقاً لبروجرام تقاليدهما القديم

لما تم كل ذلك وجاء الوقت لأن تستلم انكلترا حصتها ولم كانت تعلم ان دون استلامها واسماعيل العظيم على سرير الخديوية خرق القتاد في الليلة الظلماء أقيل المرحوم اسماعيل باشا ونصب مكانه ابنه المرحوم المغفور له محمد توفيق باشا

نعم نزل اسماعيل العظيم عن سريره بمصادقة الاستانة التي كان انتهض عليها وظن بأنه فاز بما نهض لاجله والحقيقة ان الفوز كان لمن كانوا يدفعونه الى ما وافق هوى في نفسه

وظاهره مجد لمصر واستقلال له ولها عن تسلط الاستانة وتدخلها في شؤون بلاد النيل المبارك تدخلا يعوقها عن السير في معارج الفلاح او يؤخرها الى ازمنة من بلوغ المجد الخليق بها

***

النهضة العرابية

احتلت فرنسا بلاد تونس ووجدت المسوغ لاحتلالها في تأديب قبائل الخمير التي كانت تعيث فساداً كما ادعي على حدود الاملاك الفرنساوية وبقي على انكلترا وفقاً لتفاهمهامع فرنسا ان تجد مسوغاً شرعيًّا ظاهراً لاحتلال القطر المصري فظهرت الحركة العرابية وكان ظاهرها لازالة الاستبداد العسكري التركي بأبناء مصر واعطائهم حقوقهم الخليقة بهم بحيث يسيرون هم والأتراك والشراكسة ومن اليهم على مستوى واحد وفي الوقت نفسه لازالة الامتيازات الاجنبية والتخلص من استبداد ابناء الرعويات الاوروبية التي كانت قد بلغت في فظاعتها الى ما لا يطاق

ما كان أحلى ظاهر تلك النهضة وما اخلبها للب ولذلك نالت عطف معظم الأهلين على اختلاف طبقاتهم فى مدة اقصر من يوم المسرة ولقاء الأصحاب ولكن يالالاسف فان الذين خدعوا المرحوم اسماعيل باشا الكبير لا يمتنع عليهم ان يخدعوا عرابي باشا وبضعة من الضباط رفاقه

فلما أتمَّ هذا دوره وبلغ الغاية التي يريدون ان تقع ارسلوا بوارجهم وكان ما كان من احتلالهم القطر المصري كما احتلَّ الفرنساويون القطر التونسي ولكنهم لم يقفوا عند هذا الحد لأن من بروغرامهم احتلال السودان ايضاً بل احتلال هذا القطر كان ولا يزال عندهم أهم من احتلال مصر . بقي عليهم إذن ان يدبروا الوسائل لاحتلال ذاك القطر كما دبروها لاحتلال الاسكندرية والقاهرة ولا بد قبل الاحتلال من التفاهم بينهم وبين الفرنساويين لأن عين أولئك كانت متوجهة الى مراكش كتوجه عين هؤلاء الى السودان

ومن الدهاء العجيب بل قل من حسن السياسة التي يجب على الشرقي العربي أو التركي أن يتعلم مثلها او يفطن لها هو ان المحتلين استعانوا بالاستانة على خلع عرابي كما استعانوا بها على خلع المرحوم اسماعيل باشا واظهروه أي عرابي اخيراً بمظهر عاص على خديويه وخليفته العظيم عبد الحميد غفر الله لهم اجمعين ولنا معهم

النهضة الكاملية

نهضة المرحوم مصطفى كامل كانت وسطاً بين النهضة العرابية مسببة عنها وبين نهضتنا هنا الحالية المباركة وسبباً لها . والفرق بين ماتقدمتاها وبينها ان النهضة الاولى التي كان قطبها اسماعيل والثانية التي كان قطبها عرابي كانتا لفك عرى الاتحاد العثماني ومصة من مصات عقد رابطة ذلك الاتحاد وكان العاملون فيها من وراء الستار هم الانكليز والفرنساويون بالدرجة الأولى ومن سواهم بالدرجة الثانية وأما هـذه فالعاملون فيها كانوا وما زالوا من الوطنيين

انقضت معركة التل الكبير وأبعد المرحوم عرابي باشا الى جزيرة سيلان وأبعـد غيره كثيرون الى مناف غيرها واستلم زمام الأمر والنهي في الجيش المصري ضباط من الانكليز بدلاً من الأتراك والشراكسة الغاشمين العاسفين كما كانوا يزعمون او يدعون . وبدأ اهل النهضة الوطنيون العرابيون يتوقعون ان يتحقق لهم ما كانوا يحلمون به ويسعون اليه ولعلهم كانوا بمكان من السذاجة كما كنا حتى كانوا يصدقون ان القوم غايتهم في رنة العود — في خدمة الحق والانسانية وانصاف الأقوام المظلومين والاحسان الى الفقراء والمساكين — لا في رنة العود — الاستئثار بالسلطة واستنضاض المنافع واحتياز الأموال

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفـة فلعـلة لا يظـلم

مرَّت على الضباط العرابيين بضع سنين ينتظرون فيها ان يتحقق لهم ما كانوا يؤنسون به فاذا بهم بعد ان كانوا يأمرون من تحتهم من الأتراك والشراكسة ويأتمرون بأمر من فوقهم اصبحوا لا يجسرون ان يأمروا وان نفراً بسيطاً من الانكليز فكيف بالأومباشي أو السرجنت

ثم جلس عباس حلمي على اريكة الخديوية وكان شابًّا قوي البنية قوي الارادة قوي التدبير المالي وهو يظن انه امير البلاد وله الأمر والنهي أو قل معظم الأمر والنهي فيها من اقصاها الى اقصاها فما اسرع ما خابت آماله حين رأى يد كرومر من فوق يده يد يغطيها مخامل الحرير الناعمة ومن وراء تلك المخامل حسك الحـديد القاسية تحز اللحم وتنفذ في العظام

تولد في نفس عباس كره شديد على نسبة شدة شكيمته ومرارة نفسه ومرارة النفس هذه كان ولا شك يشاركه فيها كل امراء البيت الخديوي وكل اعيان البلاد وكبراؤهم وكل أمراء العسكرية على نسبة ما تحيف من وجاهتهم ونفوذهم ومن لم تتحيف اليد الحديدية من كرامته ونفوذ جاهه في كل القطر المصري ؟ وأحسَّ المغفور له السلطان عبد الحميد

بما فعلته السياستان البريطانية والفرنساوية وما ترميان اليه في المستقبل فمدَّ كلتا يديه اليمنى الى الامبراطور غليوم واليسرى الى عباس حلمي باشا بما يشجعه على مناهضة السياسة الانكليزية واظهار كرهه لها

وما ذاك بخلاً بالنفوس عن القنا ولكن صدم الشر بالشر أحزم

أشرنا في اول هذه المقالة الى ان المال والوجاهة من اشد ما يسندان النهضات السياسية والقائمين على نشرها وتمكينها في النفوس وقد تكفل بذلك البيت الخديوي وأكابر اعيان البلاد . فأين الرجال بل أين الرجل الذي ولدته الأيام في مصر لحمل هذه الأمانة والقيام بتلك النهضة التي هي أمنية كل أمة ومطمح كل شعب له ماض مجيد غلب على امره واستبدَّ به ؟ ولد لحمل هذه الأمانة والقيام بنشرها والدعوة اليها المرحوم مصطفى كامل باشا فلحيي ذكر مصطفى كامل وليخلد اسم هذا الوطني الكبير في قلب كل مصري وناهض عربي وشرقي وليكتب اسمه واسم كل من لبى دعوته من الأدباء والعلماء والاعيان والصلحاء والذين كانوا من ورائها يسندونها بمالهم وجاههم من الأمراء والوزراء — ليكتب اسم كل واحد من هؤلاء في سجل مفاخر ابطال الامم

فذلكة

إن نهضة المرحوم اسماعيل باشا كانت مقدمة للنهضة العرابية ولا يدٍ لها اي للنهضة العرابية ولا يدلها أي للنهضة العرابية فيها وهذه بدورها جاءت مترتبة على ما قبلها وعلة للنهضة بعدها اعني النهضة الكاملية الخالدة

هذه النهضة الوطنية لكسر نير سيطرة الاجنبي ومحو سواد الذل والمهانة عن محيا كل ابناء وادي النيل بعثت النفس المصرية من سباتها العميق وزعزعت ذلك الاعتقاد الراسخ كان في النفوس بانحطاط الهمم وصغر النفوس وميزة الغربي بالفطرة على الشرقي وابتعثت معها نهضة ادبية تكاد مصر لم تشاهد مثلها منذ الايام الاولى الى الآن ويكفي الاشارة الى الأدب الجم العالي الذي ظهر في خطب المرحوم مصطفى كامل باشا وفي مقالاته السياسية ومؤلفاته العديدة وفي مقالات المؤيد وكتاباته وفي كتابة كل الجرائد والمجلات المصرية الآن على اختلاف نزعاتها ومواضيعها والغايات التي ترمي اليها

وأدباء القطر المصري بل أدباء كل الاقطار العربية يعرفون نفاسة ما ظهر من المؤلفات والتراجم في اثناء الثلاثين السنة الأخيرة وما اراني بعيداً عن الحقيقة فيما لو قلت ان الآداب العربية في مصر عادت بهم — بالأدباء المصريين كلهم لا اخص فئة دون فئة

ولا مذهباً دون مذهب ولا قديمي الوطنية دون مستجديها ـ الى ما كانت عليه فما اعظم زهوها الى ما بعد القرن الثالث والسادس من الهجرة العربية

وانبعث ايضاً مع النهضة الادبية احترام كلي للنفس فمات ذلك الاعتقاد المحط بالنفس المذل لها والذي كان اكبر مسبب لخلودها واستكانتها الى الرق المعنوي الذي هو اشد ايلاماً وضرراً في البلاد من الرق السياسي فأصبح المصري لا يقر بالميزة للاجنبي كما كان (وكنا لا نزال في غير وادي النيل) قبلاً واصبح شائعاً عند خاصتهم وعامتهم ودينًا مصدقاً أن طبيبنا ينقص عن طبيبهم ولا يجوز أن ينقص وصيدلينا لا ينبغي ولا يجوز أن ينقص عن صيدليهم وكذلك كاتبنا وأديبنا وعالمنا ومعلمنا وصانعنا وتاجرنا الخ الخ . وبكلمة اخرى استفاق فيهم احترام النفس واعتقاد الكفاءة بالذات ـ وكما تشعر النفس كذلك تكون

كل هذا مما يسوغ لي الحكم أن النهضة المصرية الوطنية الحالية اصبحت نهضة متمكنة في النفس يصعب اطفاء جذوتها المقدسة من نفوس القائمين بها مهما قاومهم المقاومون وسيبذل الغرب ودول الغرب كل ما في وسعهم لمقاومة روح هذه النهضة ولا سيما اهل السياسة وملوك الأموال الذين فاق استبدادهم بالانسانية كل استبداد سبق للكهان والملوك والأمراء والأعيان . وبفوز النهضة المصرية ينهض الشرق عن آخره كثيراً او قليلاً كل قطر على حسب استعداده »

وفي نفسي تفاصيل كثيرة في شأن ما يدعم هذه النهضة من الوسائل ما لا استطيع بيانه الآن وربما الى اجل غير مسمى ولا اظن تسعني فيه صفحات الهلال العزيزة فالمعذرة من القراء الافاضل والسلام

المرأة الشرقية

١ — ماذا يحسن ان تستبقي من اخلاقها التقليدية

٢ — ماذا يحسن ان تقتبس من شقيقتها الغربية

(اولاً) ما هي المرأة الشرقية ؟ اهي البدوية في برية سوريا وشول بغداد وتهائم الحجاز ونجد واليمن وصحاريها أم هي الحضرية في العراقين ومصر والشام وشمالي افريقيا ؟

ماذا نعرف عن المرأة البدوية ؟ انا لا نعرف عنها بالمعاشرة والمعاملة الا ما نعرفه عن المرأة الغربية أي معرفة سطحية مذرور عليها كثير من بودرة الخيال والتوهم

إذن نحن نريد المرأة الحضرية . وهنا اسأل أي انواع المرأة الحضرية نريد؟ احضرية العراقين ام حضرية مصر وشمالي افريقيا ام حضرية سورية من حدود مصر جنوباً الى الاناضول شمالاً ؟ اي هذه نعني ؟ بل عند التحقيق أي هذه تتصور لها صورة في ذهني وأنا اكتب ما اكتب ؟

لا استحياء في الحق . ان ما اعرفه عن المرأة في شمالي افريقيا ومصر والعراقين ولا اذكر السودان والجزيرة العربية المعروفة بين البحر الاحمر غرباً وبحري عمان وفارس شرقاً ، ان ما اعرفه عنها يكاد يكون اقل مما اعرفه عن المرأة الغربية التي اتصورها اعني الانكليزية والاميركانية في عقر دارها في انكلترا والولايات المتحدة . بل المرأة التي في ذهني هي المرأة الشامية ولكن اي جهة من جهات بلاد الشام؟ انا اعترف لعموم القراء ان الصورة التي في ذهني عن المرأة الشامية ايضاً انما هي صورة المرأة القروية المسيحية في شمالي سورية اعني في صافيتا والحصن بالدرجة الاولى وفي طرابلس وبعض الكورة بالدرجة الثانية ثم هناك صورة لها بالدرجة الثالثة في بعض قرى لبنان المسيحية الدرزية . ويرجع عهد الصورة التي هي بالدرجة الاولى الى ما قبل خمسين سنة من الآن والتي في الدرجة الثانية والثالثة الى عهد اقرب شيئاً الى زماننا الحاضر من عهد الصورة التي هي بالدرجة الاولى

ماذا تعرف المرأة الشرقية عن نفسها قبل سبعين سنة بل قبل خمسين سنة من الآن ؟ وهنا أسأل ـ ومن نريد بالمرأة الشرقية ؟ لا شك أنا لا نريد بها عند التحقيق اولئك الكاتبات المتفردات اللواتي اصبحن نفاخر بهن الغربيات في اوربا وأميركا وعددهن

لا يتجاوز أصابع اليدين او مضاعف هذا العدد في الكثير. ولكن المرأة الشرقية ليست هؤلاء ولا هي ايضاً اولئك اللواتي تهذبن في مدارس الارساليات الغربية فان هؤلاء النجوم اللامعة بين النساء الساميات قد لا يتجاوز عددهن $\frac{1}{1000}$ من مجموع نسائنا . وهنا لا بد لي من التصريح ان هاته النجوم او اللآلىء لسن المرأة الشرقيـة وفي الوقت نفسه لسن المرأة الغربية وبعبارة اخرى لا يعرفن المرأة الغربية الحقيقية ولا يعرفن ايضاً المرأة الشرقية اعني العدد الاعظم منها الذي يجمع اخلاقها وأميالها الشرقية الصرفة وان شئت فقل الفطرية فضلاً عن تصوراتها الخالصة التي لا تشوبها شائبة او شوائب من التصورات المزعومة عن المرأة الغربية

ان أغلب اولئك المتعلمات في المدارس الاجنبية هنّ من المسيحيات وهؤلاء قلّ ما يعرفنه عن اخواتهن المتحجبات بل قلّ ما يعرفه معظمهن عن اخواتهن المترفات وعن نوع المعيشة التي يعشنها داخل بيوتهن وأقل من هـذا هو ما يعرفنه عن اخواتهن من الطبقة المتوسطة القرويات من حالة العوز اللواتي يعشن في بيوتهن على اعمالهن اليدوية ومساعدة رجالهن في صناعاتهم البيتية او في البستان والحقل

مالنا ولما يعرفنه او نعرفه عن المرأة الشرقية . ماذا يعرف هؤلاء الفاضلات بل ماذا نعرفه نحن اعني اكثر الرجال عن المرأة الغربية في عقر دارها ؟

ان جلّ ما نعرفه نحن وهن عنها ليس هو الا معرفة اجمالية سطحية وهو مقصور في الاكثر على ما نعرفه عن الامرأة المرسلة الانكليزية او الاميركانية اولاً وهذه الامرأة هي بحسب الظاهر امرأة مستبدة في خدم بيتها حتى وفي زوجها ان كانت متزوجة وفي تلميذاتها ان كانت معلمة او مديرة مدرسة ، او ما نعرفه عن الراهبة من راهبات احدى البعثات الفرنساوية او الالمانية

(ثانياً) واذا عرفناها في غير هاتين الصورتين فانما نعرفها في المدن الكبيرة امرأة قنصل او تاجر غني او مدير شركة وربما رأيناها في الملاهي والمراقص او في حانات الشراب وأشباه المتنزهات

هذه هي معرفتنا الغالبة المشاهدة بالمرأة الغربية وأفضل صورة لها هي صورة المرسلة المبشرة والمعلمة او الراهبة الزاهدة والخادمة المتعبدة ولو انا نريد نساءنا ليكن مرسلات أي مبشرات بالدين وناقلات تمدن عنا الى من سوانا او نريدها للرهبانية والانقطاع الصوم وأنواع التعبّد وخدمة الفقراء والمنقطعين لكانت المرأة الغربية التي نعرفها بيننا من افضل مثال وأعلى قدوة للمرأة الشرقية . أما ونحن نريد امرأتنا امرأة تنهض

بنا وبأولادنا من حضيض الخمول الذي نحاول الهرب منه الى أوج النباهة الذي نتشوق للوصول اليه فيحسن بنا ان نعرف نحن تمام المعرفة وتعرف نساؤنا ايضاً المرأة الغربية التي نرغب في الاقتباس عنها كما هي في عقر دارها وفي اغلب طبقاتها ولا سيما الطبقة المتوسطة وعلى الخصوص تلك التي في القرى والمزارع وأحياء اهل الصون والعافية في المدن . نعم يحسن بنا ان نعرف المرأة الانكليزية المزرعانية النشيطة كما تصورها صورة البيت الانكليزي المزرعاني English Farmyard او المرأة الفرنساوية المقتصدة في بيتها وكرومها او الالمانية كما هي في المستعمرة الالمانية الفلسطينية لا كما هي مصورة في أذهان أغلب نسائنا بل في اذهان اغلب كتّا بنا الافاضل

ان لم تعرف المرأة الشرقية نفسها كما كانت قبل ان تمكنت البعثات الغربية من تنشيطها حتى صارت كما هي الآن وان لم تعرف ايضاً حقيقة المرأة الغربية في عقر دارها — قبل ان تعرف كل ذلك حق المعرفة — لا ارى من فائدة اعظم من ان تترك على فطرتها . ولا ارى افضل من التعليم الوطني والتربية الوطنية كما يوحي بها الى نسائنا الموهوبات بالفطرة حسن الذوق الشرقي وحسن التدبير المنزلي مع الصون ودماثة الاخلاق والحياء المستحب القريب من قلوبنا اللاصق بها من دون خوف ولا تهيب مذلة . وأرجح أن صورة المرأة الفاضلة كما صورها لنا لموئيل ملك مسا (هي مكة كما ارجح) في الفصل الحادي والثلاثين من سفر الامثال هي افضل صورة نضعها امام نسائنا وبناتنا

فلنحرص على هذه الصورة ولتحفظها نساؤنا بل ورجالنا غيباً وليكتبنها رقاعاً من أجود الرقاع ويعلقنها في مجالسهن وفي صدور غرف مقاعدهن وليذكرن أن هذه الصورة هي رسم أم لموئيل الملكة الشرقية غرستها في ذهن ابنها وتعهدتها بالسقيا وحسن التربية حتى نمت وتأصلت وأثمرت يوماً خير الثمرات التي عرفها التمدن السامي القديم والسلام

قرطاجه وقرطاجنه

قرأت ماجاء في هلال مايو سنة ١٩٢٥ وما جاء في مقتطف ذلك الشهر وتلك السنة أيضاً . أما ما جاء في المقتطف عن قرطاجنة فيوافق المشهور المتعارف . وعندي انه أولى بالقبول لان نص ياقوت ويوافقه نص ابي الفداء على ان قرطاجنة في افريقية على مقربة من تونس صريح لا يقبل الرد ولا التأويل

على اني انكر على المقتطف مآل قوله « ان اسم قرطاجنة لم يبتدعه لها العرب بل وجدوه في جغرافية بطليموس فان اليونان سموها كرخيدون وسماها اللاتين قارشيدون والاسمان محرّفان من اسمها في الفينيقية وهو « كرت هدشت » اي القرية الحديثة مقابلة لصور مدينة الفينيقيين القديمة » اه

والذي ارجحه ان اسم كرخيدون اليوناني وقارشيدون اللاتيني محرّفان عن « قرية جونو » بامالة النون الى الضم او بالفتح وجونو اسم اخت بوغماليون ملك صور وزوجة رئيس كهنتها . فان التقاليد تحفظ لهذه المرأة فضل وشرف بناء هـذه المدينة التي تسمت باسمها . واسم قرطاجنة واضح في « قرية جونو » يرى حالا لاقل تأمل بخلاف « قرية هدشت » فان انتاج « قرطاجنة » منه بعيد جداً جداً يحتاج الى خرق العادة

اذا سلمنا بما ذكرناه اي انها تسمت باسم بانيتها وفقاً للتقاليد المتناقلة يكون الاسمان اليوناني واللاتيني كلاهما محرّفان عن الاسم الفينيقي والتحريف هذا اي تحريف كرخيدون وقارشيدون عن « قرية جونو » واضح . وهو اقرب الى طبيعة تبدّلات حروف الهجاء من تحريفها عن قرية « هدشت »

على اني ارجح ايضاً ان اسم قرطاجنة بقي محفوظاً على السنة الاهلين من البربر وتسلمه منهم العرب اخيراً . ولذلك نظائر فان اسم تدمر بقي نحواً من تسعمئة سنة مغموراً بالاسم اليوناني « بالميرا » الى ان عاد فغلب على كرسي ملـكه بغلبة ابناء جنس سكانها الاولين . ومثل بالميرا نهر الأرنط فانه لم يلبث ان استرد اسمه العاصي بعـد الفتح الاسلامي بقليل « ولا شك ان ذلك كان لان الالسنة حفظت له اسمه الاصلي الذي بقي لـكن مغموراً بالاسم الذي سمته به الامة الغالبة »

ومثل نهر « الارنط » نهر « الـكيوثيروس » او « السيوثيروس » وهو المعروف اليوم باسم النهر الـكبير عند مصبه على بضع ساعات من شمال شرقي طرابلس فانه لم يلبث ان

عاد الى اسمه الوطني الاول « راويل » وتفسيره عطية ايل وعليه فيكون الاسم اليوناني ترجمة الاسم الحثي او الارامي كما اعتقد

وربما كان اسم اورشليم اقرب الى ما نحن فيه . فان هذه المدينة خربها تيطس الروماني وبقيت عقود السنين ينعق في اطلالها البوم وتتضاغى بين انقاض جدرانها بنات آوى ثم اعيد بناؤها تحت اسم ايلياء وبقيت عشرات عشرات السنين تسمى بهذا الاسم وجاء عليها الفتح الاسلامي وهي باسم ايليا ولكن اسمها الاول كان لم يزل محفوظاً فما لبثت ان استردته بعد الفتح بقليل وذهب عنها اسم ايلياء بذهاب الدولة التي سمتها بهذا الاسم . وفوق كل ذي علم عليم .

فصول الكتاب

فلسفة اللغة العربية وتطورها

وهي مقالات أنشأها الاستاذ

جبر ضومط في تاريخ اللغة العربية ونهضة الاقوام

المتكلمين بها وفلسفة نشوئها وتطورها ووسائل

ترقيتها — ونشرها في مجلتي المقتطف والهلال

بين سنة ١٨٨٨ وسنة ١٩٢٨

تأليف

جبر ضومط

أستاذ اللغة العربية وآدابها سابقاً في

جامعة بيروت الاميركانية

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر

سنة ١٩٢٩